

AMLY

رومف السب عى



الملكى

خطا





يوسف السباعي



الحف راحلة



الطبعة الأولى



للمؤلف

أطراف ...	(قصص قصيرة ١٩٤٧)	الناشر مكتبة الانجني
نائب عزرائيل ...	(رواية ... ١٩٤٧)	» » »
اثنى عشرة امرأة ...	(قصص قصيرة ١٩٤٨)	» » »
خيال السدور ...	(» » ١٩٤٨)	» » »
يا أمة ضحكت ...	(» » ١٩٤٨)	» » »
اثنى عشر رجلاً ...	(» » ١٩٤٩)	» » »
أرض التفاق ...	(رواية ... ١٩٤٩)	» » »
في موكب الهوى ..	(قصص قصيرة ١٩٤٩)	دار الفكر العربي
من العالم المجهول ..	(» » ١٩٤٩)	مكتبة الخانجي
هذه النفوس ...	(» » ١٩٥٠)	دار الفكر العربي
إني راحلة ...	(رواية ... ١٩٥٠)	مكتبة الخانجي
ميكى العشاق ...	(قصص قصيرة ١٩٥٠)	دار الفكر العربي
بيت أبو الریش	(قصص قصيرة ١٩٥٠)	مكتبة الخانجي
وجنية ناميش ...		
أغنيات ...	(قصص قصيرة ١٩٥١)	» » »
أم رتيبة ...	(مسرحية ... ١٩٥١)	» » »
هذا هو الحب ...	(قصص قصيرة ١٩٥١)	دار الفكر العربي
صور طبق الأصل ..	(» » ١٩٥١)	مكتبة الخانجي
بين الأطلال ...	(رواية ... ١٩٥٢)	» » »
السقامنة ...	(» ... ١٩٥٢)	» » »
سار اللبالي ...	(قصص قصيرة ١٩٥٢)	دار الفكر العربي
الشيخ زعرب ...	(» » ١٩٥٢)	مكتبة الخانجي

نخسة من الإيمان . .	(قصص قصيرة ١٩٥٢)	الناشر دار الفكر العربي
وراء الستار . . .	(مسرحية ١٩٥٢ . . .)	مكتبة الخانجي
سنة نساء وستة رجال	(قصص قصيرة ١٩٥٣)	» » »
هذه الحياة	(» » ١٩٥٣)	دار الفكر العربي
البحث عن جسد . .	(رواية ١٩٥٣)	مكتبة الخانجي
جمعية قتل الزوجات .	(مسرحية . . . ١٩٥٣)	النهضة المصرية
فديتك يا ليلى	(رواية ١٩٥٣)	مكتبة الخانجي
ليلة خمر	(قصص قصيرة ١٩٥٣)	» » »
همة غابرة	(» » ١٩٥٣)	دار الفكر العربي
رد قلبي	(رواية في جزئين ١٩٥٤)	مكتبة الخانجي
ليال ودموع	(قصص قصيرة ١٩٥٥)	» » »
طريق الوحدة . . .	(رواية ١٩٥٦)	الشركة العربية
أيام تمر	(مقالات . . . ١٩٥٧)	» » »
من حياتي	(» » ١٩٥٨ . . .)	» » »
لطائف وثقات . . .	(مقالات ١٩٥٩)	الناشر المكتب التجاري ببيروت
نادية	(رواية في جزئين ١٩٦٠)	الناشر مكتبة الخانجي
جفت الدموع . . .	(رواية في جزئين ١٩٦١)	» » »
أيام مشرفة	(مقالات . . . ١٩٦١)	» » »
أيام وذكريات . . .	(» » . . . ١٩٦١)	» » »
أيام من عمري . . .	(» » . . . ١٩٦٢)	» » »
ليل له آخر . . .	(رواية في جزئين ١٩٦٤)	» » »
أقوى من الزمن . .	(مسرحية . . . ١٩٦٦)	» » »
نحن لا نزرع الشوك .	(رواية في جزئين ١٩٦٨)	» » »
لست وحيداً	(رواية ١٩٧٠)	» » »

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الله

إلى أحب من وفي

وأوفى من أحب .

إلى الحبيبة الأولى :

أم . يسا . و . اسماعيل .

برسيف السام



الصور مريشة الفنان الأستاذ

حسن محمد حسن

مقدمة

الطبعة الأولى

جلست ذات مرة والمرحوم الأستاذ المازني ، في مسامرات الحبيب ، واذكر أن صاحب المجلة الأستاذ عمر عبد العزيز ، كان يعد العدد لإصدار عدد من المسامرات خاص بالقصة ، وأنه سأل الأستاذ المازني ، أن يكتب للمجلة قصة قصيرة

وقد أجاب الكاتب الكبير وقتذاك بأنه يكره كتابة القصة القصيرة ، ووجهه لي القول مداعباً بأنه يشفق عليّ من كتابة قصة كل أسبوع لأنه يعتبر القصة القصيرة عملية إجهاض ، وأن هذه القصة القصيرة المضغوطة المقضبة في بضع صفحات كان يمكن أن تستكمل نموها فتصبح قصة طويلة فائقة بذاتها ، وأنها لو تركت تنتضج وتستوى لأصبحت ثمرة شبيهة مغذية بدلاً من أن تقطف هكذا ، عجز ، وبدلاً من أن يجهض الكاتب نفسه فينزل القصة وهي ما زالت جثثاً .

ورغم أني لم أنفق مع الأستاذ المازني في رأيه تمام الاتفاق ، ورغم اعتراضى بأن القصة القصيرة شيء قائم بذاته ، وأنها رغم صغرهما وانكماشهما مخلوق مستكمل النمو ، وثمره تامة النتيج . . . ورغم اعتراضى هذا . . . أشعر في كثير من الأحيان بمدى ما في قول المازني من الصحة . . . فإن الجهد الذي أبذله في كتابة قصة قصيرة ، مركزي في خلق الفكرة والجو ، لا في الاسترسال وسرد التفاصيل . . . فإن مجرد بداية القصة هو أشق ما فيها وأنى قد أستغرق يوماً كاملاً في كتابة الصفحة الأولى من القصة . . . وقد أجلس وأقوم . . . وأقوم

وأجلس ، وأمسك القلم فترة طويلة... ثم أترك الورق دون أن أكتب شيئاً .
فإذا ما كتبت الصفحة الأولى ودخلت في صميم القصة اندفع القلم يكتب بلا توقف
وملات الصفحة تلو الصفحة دون إحساس بأنى أفعل شيئاً ، ولا تصبح المدة
عندئذ في الكتابة بل في التوقف عن الكتابة .

فالمكان المخصص للقصة القصيرة في المجلة محدود ، ولا بد من ختامها بعد
عدد معين من الصفحات ... وهكذا أجد نفسى مضطراً إلى « قرملة » القلم ،
وإلى أن أنتزع نفسى من جو القصة وأختتمها في بضعة أسطر في الوقت الذى
أحس فيه أنه ليس أحب إلى من الاستمرار فى القصة .

ولذا فقد كنت دائماً شديد الحنين إلى أن أكتب قصة طويلة ... ولكن
الفرصة لم تتح لى ... فقد كانت الأعمال الكثيرة المتناقصة التى أخذت بها
نفسى تشغل كل وقى ... وكان من العسير أن أجد فسحة من الوقت أضيئها
فى كتابة القصة الطويلة .

وهكذا ظللت حتى حل الصيف الماضى ، صيف ١٩٤٩ ، وسافرت إلى
الإسكندرية بعد أن توقفت لدى بضع قصص قصيرة تريحنى من الكتابة بضعة
أسابيع ، وصحمت على أن أمضى هذه الأسابيع فى راحة تامة . وبدأت الراحة ،
وأنا مخلوق لم يتعود الراحة ، فوجدت الحنين إلى الكتابة يعاودنى ، ووجدتها
فرصة سانحة أستغلها لكتابة قصة طويلة .

ومضت بضعة أيام وأنا أحاول البداية حتى نجحت فيها . . . واندفعت
بعد ذلك فى الكتابة ، أعيش فى جو القصة وأرتع بين أبطالها .
وبدأت أتلقى اللوم عن حولى ... وقالوا لى لى فى أجازة ولست فى أشغال
شاقة ... وإن من الجنون أن أكتب عشر ساعات فى اليوم ... ولكنى

استمرت في الكتابة ، حتى أصابني الملل . وأنسكت في الجهد ، فكرمت الكتابة ،
وكرمت القصة ، وكرمت أبطالها ، وكرمت نفسي .

وحارلت أن أستعيد في ذهني ما كتب وأنا مجهد متعب ... فوجدتني
لم أكتب سوى مخافات ، ورأيت أن هذه القصة التي بذلت فيها كل هذا الجهد
مستكون أنها ما كتبت .

وتركت الكتابة ، وأخذت إلى الراحة .. وقلت لنفسي : إن كرهى للقصة
هو نتيجة الإفراط في الكتابة .

ومرّ يوم دون أن أكتب . . . ولكني لم أكّد أحس ببعض الراحة حتى
عادت الكتابة .

وأخيراً انتهيت من القصة بعد عشرين يوماً
أجل إن كتابتها لم تستغرق أكثر من عشرين يوماً .. فقد كان عليّ أن
أنهى بها قبل أن تنتهي الإجازة ... ويشغل كل وقتي بأعمال الدأية .

ولست أدري مدى نجاحي في كتابتها ، ولا مداها من الجودة أو السخف .
فلقد تركتها بعد كتابتها ، فلم أقرأها إلا مرة واحدة في بروقات التصحيح قبل
الطبع ... ولقد شعرت في هذه المرة أنني قد أحبتها وأحببت أبطالها .

وإني لأجد في رضائي عنها أول ثمن ألقاه على ما بذلت فيها من جهد ...
أما بقية الثمن فهو رضاكم أتم .. فإن دفعتموه فيها وبعثت
ولاً ... فكما في إعجابي بها ورضائي عنها ، وأعاني الله عنكم وعن رضاكم
وإعجابكم ... إني قد كتبتها أولاً لنفسي . ثم لكم .
والسلام عليكم ورحمة الله .

يوسف الباعى

مقدمة

الطبعة الثانية

كنت في مقدمة الطبعة الأولى قلقاً على مصير الكتاب بين الفراء وقلت
إني حصلت على بعض ثمن مجهودي فيه وهو إعجابي أنا به ، ثم تمنيت أن أحصل
على بقية الثمن وهو إعجابهم به .

وأكون ناكراً للجميل إذا لم أعترف بأنّي تلقيت الثمن مضاعفاً ... وأن
القرءاء كانوا كرماء معي إلى أبعد حدود الكرم ... بل إلى أبعد مما أشعر أنّي
أستحق .

وقد تعود بعض الكتاب أن يرصعوا كتبهم بأقوال التقدير والمدح من
ذوى الحبيثية من الصحافة ورجال الأدب .. ولكنني أشعر أنّ فقير في هذه
المرصعات ... لست أدري لماذا ؟ قد يكون السبب هو أنّي لا أكتب أدباً ...
أو يكون لأن رجال الأدب لا يقرأون الأدب .

على أية حال .. لقد أغثنائي الله عن تقدير ذوى الحبيثية بتقدير القارئ .
المعزى المجهول ... التقدير النخلص الحار ، الخالي من النفاق والرياء ، الذي
لا يرجو ثمناً ولا يطلب رداً .

ورغم أنّي كنت أكره نشر هذه المرصعات ، ورغم أنّي كنت أعيب على
الكتاب أن يقدموا كتبهم بمدح في أنفسهم ... إلا أنّي أشعر هذه المرة برغبة
في المغامرة بنشر تقدير مجهول ترك في نفسي أبلغ الأثر .

دق التلفون في منتصف ذات ليلة ... وأنا أظن في بيت عظور على أهله

التجول بعد التاسعة ... وعظرو عليهم اليقظة بعد العاشرة ... وذب التيفون في منتصف الليل بعنى لديهم بآ بكارثة .. لم يكد الجرس يذب حتى هبوا جميعاً مذعورين من نومهم ... وكان أسبقنا إلى التيفون الحاقدة بصلوحة ، ووقفت نصيح في الجامعة :

— آلو ... آلو .

دون أن يجيبها أحد .

وعدا إلى مضاجعنا بين السخط على الإزعاج الطارىء والمخلة على السلامة من نتائجها المحتملة .

ولكننا لم نكد نصع رؤوسنا على الوسائد حتى عاد الجرس يذب .. فهبنا ثانية . وكان أولنا وصولاً إلا التيفون هو عمى ... ولكنه لم يفز من الطالب بإجابة .

وعدا إلى الفراش لنهب مرة ثالثة ون هذه المرة كنت أنا المجيب قلت :

— آلو ... آلو .

وأق إلى الصوت وجلأ عاتقاً ماعماً متسائلاً في ارتباك :

— الأستاذ يوسف الباعى ؟

وأخذت . ولكنى لا أملك سوى أن أجيب :

— أيوه يا فتى .

وأذك أهل البيت من ردى أن الطالب قد تحدث أخيراً ... وكما سبق القول لم يكن أحد منهم يتوقع من مكالة في منتصف الليل ... إلا أن يكون نياً وفاة .

وهكذا وفقت ممسكاً بالتليفون ، ومن حولى حامى مخمفاً ، وزوجتى فاعرة

قاما ، وحقا في فراشها لا تستطيع النهوض وتصيح في شبه ولولة .

— مين مات ؟

ومن الناحية الأخرى في التيفون أتى الحديث الناعم الوجع يقول :

— أنا معجبة بكتاب قريتهواك ... وعازيه أبلغك إنجاني .

وأذعني قولها ... وأذعاني أكثر منه صبيحة زوجتي متسائلة في ذهنها .

وقد فقد صرعا :

— حد جراه حاجه ؟

وأبعثت الساعة عن في وطماقتها بقول :

— لا . .

— أمالي إيه ١٩ مين يتسكلم ؟

ولم أجد بداً لطماقتهم على أن أحداً لم يمت من أن أقول الحقيقة فأجيبها

والساعة بعينة عن في :

— دي واحدة معجبة .

وصاحت زوجتي غير مصدقة :

— مني ممكن ... انت بتكذب .

وكان تكتنيتها لي معقولا ، ما ياني نقل أنا السوء قد عودتهم الكذب ..

فقد سبق في موقف مشابه لهذا أن أنبت في التليمون عن أخبار وفاة فانكرتها

عليهم حتى الصباح حتى أجبنهم المماجاة وحزن انيل وسهره .

وعلى ذلك فقد أيقنوا من قول أن المتحدث معجبة هو من باب الكذب

والإخفاء أخبار الوفاة ، وأصرروا جميعا على أن المتحدث يلغني عن وفاة

عزيز لدينا

وراحت أؤكد :

— قولتكم واحده معجبه .

وعاد الإنكار :

— مثير ممكن ... انت بتكذب .

وصفت ذرعاً ... ولم أجد من وسيلة للتأكيد خيراً من أن أعطي الساعه

لزوجتي لتسمع بنفسها حديث المعجبه .

ولكن المعجبه لم تحب ، وأحيراً لم تجد بداً من إعادة الساعه إلى موضعها .

وعدنا إلى الفراش ... ولكننا لم سكند نغمض أعيننا حتى دق التليفون

مرة رابعة ، وفي هذه المره أمسكت زوجتي الساعه ... ودون أن تقول : آلو .

ودون أن يجيبها أحد .. انهات في حلق بالسباب على المتحدثه .

وأخذت منها الساعه ... وقلت لها مهديتا :

— ما فيش داعي للتثيمه ... لأنها لو كانت بتعاكس فالتثيمه حاططها

تتمد ونفضل تعاكس طول الليل ... سبها لي أنا أكلها بالذوق .

وأمسكت بالساعه وقلت في صوت هادي :

— آلو ...

وأجابني الصوت الرقيق معاتبا :

— برصه دا يصح أنتم التثيمه دي كلها ؟

— وبرصه يصح إنك تطلي واحد في نص الليل عكازت قوليها

إنك معجبه ؟

— أنا متأسفة ... أنا أصلي لسه غلصه الكاب تلوقت ، ومقدرتش

أحوش نفسي ... إمتي أقدر أكلبك ؟

— في أى وقت في النهار ... أو ابعث جواب زى كل اللي يبعثوا .

— أبه على فين ؟

— على البيت ... هل المكتب ... على المجلة ... زى ماتحي .

ثم أمليتها العنوان .

ولم تعجب زوجتي بالطبع تلك الطريقة المترفة في الحديث ... ولا أعجبا
أن أطلب منها الكتابة وأعطيها العنوان .

وبعد يومين وصلني الخطاب التالي .

عزيزي

« تحياتي وإعجابي الذي لا حد له ولو أنك لا تعرفني ، ولا أظن أنك ،
« تهتم بمعرفتي إلا بمقدار ما يكون بين كاتب وقاري . له ، لذلك اسمع لي أن ،
« أخفي عنك شخصيتي ، إنما أكتب إليك معتذرة عما كان مني ليلة أول ،
« كلمتك في التليفون ، وحبتي أنني كنت متدعة إلى البحث عنك وسماع ،
« صورك بموارحي وشعوري وبأى ثمن بعد أن انتهيت من قراءة ،
« قصتك (إلى راحلة) ، ولعل لك بعض الذنب في ذلك إذ أنك أخرجتني ،
« عن وعي ، وأفقدتني كل سيطرة على نفسي ، وبالرغم من كثرة الأصوات ،
« التي توالى في الرد علي فقد هدأت قلبي إلى معرفتك ، ولو لم يكن لك بي ،
« سابق معرفة ، فقد كان لإبداعك ما أخذ بجميع قلبي ، وأشعري ،
« وأن هذا ليس بالخيال ، وإنما هو صادر عن الواقع ، وعن الشعور ،
« الصادق الرقيق ، وأنه ترجمة بارعة صادقة لأجل ما يمكن أن يخفق به قلب ،
« رقيق نياض العاطفة ، حتى أنني لم أفكر في الوقت وفيما صادفته في محاولتي ،
« أن أكلمك ، فقد كنت في نشوة من سروري ولفتي ودموعي ، ولعل تلك »

« التي وذت عني وأعادتنى إلى الواقع . لم تحس بما شعرت به أثناء قراءتك »
 « وإلا لالتصت لى عذراً أنا التي تعيش حياتها في مقبرة من شعاع حاطي »
 « بدلاً كياني وبتير وجدائي ، وقد وجدته ولو في صفحة من كتاب ، ولكن »
 « وصفك لسور معسكر الحرس ، والحقول التي خلف السراي ، والساقية »
 « المهجورة من كياني وأعادتنى إلى الخيال والذكرى ، فكل هذا هو مرتع »
 « طعوني ومبعث إحساسي ، وقبلة قلبي ، ومطمع آمالي ، ولكني أرى أني »
 « قد أظلت عليك .. لا تظن أني تأملت لما سمعت فقد كنت رنة الأسف التي »
 « ظهرت من نبرات صوتك . لقد كانت أكثر عما أوجو وإلا لما سمعت نفسي »

« . . . »

١٣ ديسمبر سنة ١٩٥٠

وعند ما انتهيت من قراءة الخطاب حملته إلى زوجتي وقلت لها :
 — أظنك بعد قراءته ستقرئين على الرفق التي حدثتني به ... وأظنك
 ستجدينها لا تسحق ما منحتها من سباب ؟

ولم أعرف عن القارئة المجهولة سوى الخطاب المجهول والمحادثة في
 منتصف الليل .

ولاني أحس منهما خير عزاء عن تقدير ذوي الحيليات من أهل الصحافة والأدب
 شكرأ لها ... ولكل قارئ مجهول ... وقارئة مجهولة .. إنهم يملكونني
 بالثقة والاعتزاز ويجعلونني لأعياً بتقدير المشاهير والكبار .
 إنني أكتب لهم ... وهم الذين يجعلونني أطبع من كتيبي الطبعة الثانية ..
 وهم الذين سيجعلونني أطبع الثالثة والرابعة بإذن الله .
 إنني أحب قرأني ... وأشعر أن قرأني يحبونني .
 والسلام عليكم ورحمة الله .

برسيف السباهي

تطلب جميع طوعاتنا

من وكالاتنا

مكتب التتبع	بغداد . ت ٣٥٨٨
دار المعارف	اسكندرية ت ٢٣٥٨٨
المكتبة الحارثي	بيروت ت ٢٤٥٠٣
دار النقطة العربية	دمشق ت ١٢٣٦٤
« الكتاب » دار البيضاء	مراكش ت ٧٧ - ٩٠٠
مكتبة النهضة	الحرارة ت ٩٩ - ٣٩٨
« النهضة السودانية »	الخرطوم ت
دار كردفان	الأبيض ت ٢٨٤
المكتبة الأدبية	تونس
مكتبة الشامة	حمة
« هراي »	الحجاز



ملحده



قد عزمت على الرحيل .

الى

وماذا يدعوني إلى البقاء في دنياكم تلك ، بعد
أن أنحيت في غنى عنها وعن كل ما بها . . وبعد أن ضعت كل
إحساس بأن هناك ما يربطني بها وبشدتي إليها ؟
ما أسهل الرحيل . . خطوة واحدة أخطوها فأمرق هذا
الخيوط الرامى الذى علفت به حياتنا . . وأطلق هاربة إلى حيث
لا تتناولون على بالستكم ، تاركة لكم جيقة تنلق لساتكم
فيأية غنى .

أذكروا محاسن موتاكم . .

أتراكم تذكرون لى محاسن ؟ . . أما الروحة الحلوة الخائنة
الفارة مع عشيقها . . الراكلة بقدميها كل فليل ، المحسنة
كل قيد .

أى محاسن لى بعد هذا ؟

هل يمكن أن يلتصق لى أحدكم عذراً . . سوى الطيش
والترق ، وطاعة الشيطان ؟

لشد ما أكره أن أخرج من الحياة مظلومة

- إلى لم أحس قط بحاجتى إليكم . . لقد كان :

كلما أغنى عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشد تباينا

وأنا أحس أني ميتة .. ميتة ، وكان يجب ، والامر كذلك ،
أن يشتد إحساسي بالغنى عنكم .. ولكنني مع ذلك أحس
محنين شديد يدفعني إلى الكتابة ، وإلى أن أقول شيئاً لكم أيها
الاحميون الذين قد بت في غنى عنهم !

أى دافع أحق ذلك الذى يدعني الكتابة ؟ . أما المخططة
المهتمة ، المشتتة الفكر ، الغاربة الذهن !

أنا الغريقة اللاهثة الأنفاس ، المكروبة الصدر ، المثقلة
بالأحزان .. الباكية حتى جفت منها المساقى ، ودعيت
الأجفان .

أما أجلس وأكتب إليكم .. ليه ؟ .. وسط هذا الخطام
والرقاد ، والحشم ، وأنا على قاب قوسين أو أدنى من الموت ،
أجلس في هدوء وأمسك القلم ، وأكتب على الورق .. كأنى
أعيش أبداً .

لقد كان يجب أن يكون آخر ما أفكر فيه هو الكتابة .
كان يجب أن أبكى ، وأن أمرق الشعر ، وأنظم الحدود
وأصرخ وأولول ، وأعدو في الطريق مستغيثة صرعى .

ولكنني مع ذلك أجلس في هدوء وأكتب .. كأن الامر
لا يعني .. أو كأنى لست أنا .

أجل .. إنى لم أعد أنا .. لقد بت امرأة أخرى فاقدة

الحس متبلدة المشاعر .. لقد تكسرت مني المصال على
النصال .. لقد فقدت القدرة على الألم .. لقد أصبحت جسداً
هائداً .. أما ما بقي من إحساس ، فهو ما يسمونه « خلاوة
الروح » أو ترويح الذبيح .

ولكن لم أكتب ؟ لم لا أخرج في صمت ؟ لم لا أعجل
بالرحيل ؟ فاستريح !

ألمى الرغبة في رفع العيب بالاعتراف ؟ .. أم هي التوبة
والاعتذار واستجداء الرحمة .

ولكن أى اعتراف وأى توبة ؟ .. الاعتراف بالذنب
والتوبة منه ؟

إنى ما أسست قط بأنى مذنبه .. وما شعرت أنى أقيمت
أسراً إذ أؤلف فلا سكرأ .. بل لقد قضيت أياى أقاوم
وأنايرم ، وأحرم نفسى الاستمتاع بالحياة .. حتى أفلت
منى الزمام فى النهاية من فرط المقاومة .. فاندفعت إلى هذا
المصير ..

أنا لست مذنبه .. إنما المذنب هو القدر الذى عقد لى
الطريق .. وقلب لى الأوضاع ، ودبر لى الأمور .. - أو
على الأصح - أساء التدبير .. بحيث أضحي لا مفر لى من

فلك المأساة والانتهاى إلى مثل هذا الدمار .
أترانى إذاً أكتب لأعترف بذنب القدر ؟
أى سخرية هذه ؟ . هو يذنب فى حقنا ، ونحن لا نملك
إلا الاعتراف بذنبه .

على أية حال ، وأياً كان صاحب الذنب فىنا .. فإنى أحس
من الكتابة براحة المعترف ، وهنوء النائب المقر .
ذلك هو الحافز لى على الكتابة .. اعتراف محتضر ،
ينبى أن يلقى عن أكتافه — قبل الرحيل — عنا أثقل كاهله
ووزراً أفض ظهره .. اعتراف صريح على .. لا إلى كاهن
فى خطوة .. بل إلى الناس جميعاً .

ولم الكاهن ؟ وعلامَ الخطوة ؟ .. أنا لا أحجل من
اعترافى .. حتى أهس به وجلة حائفة .. بل أطلقه بملء فى
لأعلن ببراءتى ، ولأصبح بكم : أنى مظلومة .. مظلومة فى
الدنيا وفى الآخرة .. مظلومة حية وميتة .

أما لا أخجل من اعترافى .. فإنى أجد فيه دفاعاً عن
نفسى وعن سواى من المظلومين الذين انطوت صدورهم على
أسرارهم ، والذين طوتهم عجلة القدر فراحوا صحتها واتهموا
بالذنب ولا ذنب لهم .. وأجد فيه درساً يعلمكم أن تلتمسوا

العاذير للناس ، وألا ترموهم بالخطيئة . . دون أن تعرفوا
خبيثتهم . . فرب واحد منكم ربما القدر بنفس التجربة لما كان
خيراً منهم .

إني لا أخجل من اعترافي بل أطلقه بلاء في . . صائحة
بكم : هاأنذا ، وماكم قصتي :

هاكم قصة الزوجة الخائنة الغادرة . . قصة المرأة التي قد
تلعنونها كلما مرت بمحاطركم ، والتي قد تتخطون منها لأنفسكم
عظة وعبرة تتندرون بها حيناً وتضربون بها المثل أحياناً .

هاكم قصتي . . قصة - أفسم لكم - إنها ستثير فيكم كامن
شجنكم ، وتهيج مشاعركم ، وتسيل مدامعكم وتندى ما فيكم .
أم تروني واهمة ، لا تكاد قصتي يزيد على قصة كل عاشق
أضنى الهوى فؤاده ، وأحرق الحب قلبه . . وأن الوم يأبى
إلا أن يحسنه لي ويرى أنى شيء جديد في عالم العشاق ،
وإني - في المصاب والبأساء - نسيج وحدي .

من منالم يعشق ؟ من منالم يذوق طعم الهوى . . حلوه
وصابه ؟ من منالم تنسج متعته ويعضنه عذابه ؟ من من
لم يسكره نسيجه ويفرقه عجايبه ؟

كلما عشاق . . وكلنا ريش في مهب ريح الحب العاصفة
العاتية . . لاسطان لنا على أنفسنا ، ولا سيطرة لنا على قلوبنا

إلا بقدر ما تسيطر الريشة على نفسها في مهب الريح ..
لا يفرّسكم من البعض جود أوقوة ، ولا يخذعنكم منهم
ادعاء بالسيطرة على النفس وبالسخرية من الحب ، أو أنهم
فوق سلطان الهوى .

لا يخذعنكم منهم هذا فهو قول هراء ، وكلام سيلهب
هباء ، ولو كانت قلوبهم من حجارة ، ومهما الهوى ..
للات وسرى فيها النبض وجاشت بالحياة .

لا يفرّسكم زعم هذا البعض .. سلوفى أنا عنهم ، فقد
كنت واحدة منهم .. كنت ساخرة من الحب .. ملحدة به
منكرة وجوده وسلطاناه .

أجل .. هذا هو ما كنت ، عندما جلست إليه ذات
مرة ، وجرى الحديث بيننا عن الحب ، قلت له ، وأما أقلب
شفتى في سخرية :

— حب .. إنه مصاب الدين لا لإرادة لهم ، وداء أشبه
بالخمر والميسر .. يقبل عليه الناس للهو وتسلية .. ثم يزمن
بهم فيدسر حياتهم ، ويقضى عليهم .. أو هو كالجنود يمتطيه
الإنسان طائماً مختاراً لينزله به برمة .. فيجمع به ويورده
موارد العطب .

وتملكه الدهش فقد رأى في .. على حد قوله وقتذاك .

فتاة ، حلوة مرحة ، لطيفة ، كأنها الزهرة كلها الندى ،
وطلع عليها النهار ، واستدارت بوجهها المشرق لتواجه فجراً
جديداً أو شمساً ساطعة تستمد من ضوئها نوراً ودقاً ، وسألتني
لم أكفر بالحب ، وهو مثل الحرارة التي تبعث فيها النضرة
والنضج ، والنسيم الذي يحمل عطرها فيجعله يتضوّع وبهروح
ويسكر القلوب وبشمل الأفتدة .

وصحكت ، وقلت له : هذه أوامم الشراء ، واتهمته بأنه
خيالي ، كثير القراءة ، تنضح قراءته على أفكاره فتبديح حلوة
معسولة ليست من الواقع المرفى شيء ، وأن على الإنسان
من هذه الحياة أن يتصرف بعقله لا بقلبه . وأن يتبع مصلحته
ولا يتبع هواه .

قلت له هذا وأنا مؤمنة به أشد الإيمان .. فقد كنت
مادية التفكير .. مادية النزعة .. علبى الوسط الذي نشأت
فيه والتجارب التي مرت بي أن أمقت الحب ، وأن أفر منه
فرار السليم من لأجرب ، وأن أنصوره شيئاً مفزعاً مروّعاً
يجب على الإنسان أن يحذره ويتجنبه فما أودى بالمرء إلى
التهلكة غيره ومادماً حياته سواه .

كيف لا وقد نشأت فوجدت شيطان الحب قد عصفت
بكل ما حولي ، ووجدته فرّق بين أنى وأنى .. فما عشت

معهما قط سويًا ، وما أحسست أبدًا بنعيم الاستقرار .

نشأت في كنف أبي .. أب صارم قد لدغ من جحر
الهوى مرة .. فاقم الأبلدغ مرة ثانية ، وركز كل جهده
ليشغني على طبيعته الجامدة وتفكيره العملي المادى ويقتل
في نفسي كل ميل للعاطفة أو الرقة والخيال .

لا أريد أن أندفع فأبش أحداث للماضى البعيد ، ولكن
يبدولى أنه لا بد أن أسترخص تلك الفترة العابرة .. فترة
الطفولة المكبوتة الحادة العارمة .. إذ يبدولى أنها السبب
في كل ما حدث ، وأن ذلك الكبت في مشاعري وأنا طفلة
والمبالغة في الحزم والشدّة في تربيتي ، قد أنتج نتيجة عكسية
وسبب لي الانطلاق من أول نفرة بدت في حياتي .. وأنه
ككل فعل كان لا بد له من رد مساره ، ومضاده في الاتجاه .
منذ أن وعيت الحياة وهم يلتقونني أن أمي ميتة ، ولقد
كان ذلك منهم منتهى الغباء .. فما كنت أعدم عندما شئت ،
وبدأت التفكير ، من يذكر لي الحقيقة كاملة ، وبيني أن أمي
على قيد الحياة ، وأن ثيل الهوى قد جرفها فهجرت أبي ،
وتزوجت برجل آخر .

وكرهت أمي .. من فرط ما بنوا في نفسي كرهها ، ولأن
كنت بترتي الجمادة ، وخلق الجاف ، الذي عودني عليه أبي

أرى فيها امرأة حمقاء ، امرأة مجنونة طائشة .

لم أك أعرف وجهة نظرها ، ولا الظروف التي اضطرتها
إلى هجر أبي ، ولا الإغراء الذي وقعت تحت وطأته . بل لم
أحاول قط أن أفكر في أنها يمكن أن تكون معذورة ،
وأنى لو وضعت مكانها لفعلت فعلتها . . بل كل ما كنت أقول
عنها لنفسى : إنها امرأة خائنة غادرة . . تماماً كما تقولون عني ،
وما حاولت أن ألتبس لها المعاذير . . كما لم تحاولوا أن تفعلوا .
ولى عنذر هناك يمكن أن يكون لامرأة تزلزل بقدمها
ذلك القصر المنيف والعمدة السابغة والهناء المقيم ، وتترك
رجلاً مثل أبي وقوراً جاداً محترماً . . قد يكون خلواً من
المشاعر والرفقة . . ولكن مالها وله ؟ لم لا تتمتع بأخني
والراحة والاستقرار ؟ لم لا تدعه في حاله ، وتمتع بمالها ؟
كيف هتأ لديها : أنا وأخني ، فهجرتنا فيما هجرت ، وضربت بنا
عرض الحائط ١٤

ذلك كان تفكيري تجاهها وقتذاك . . صورة أخرى
لتفكير أبي وأمه التي تكفلت بي بعد طلاق أبي .
ويبدو لي الآن . . أن أمي قد تكون معذورة في فعلتها ،
وأنه لو أتبع لها أن تسجل مشاعرها واعترافها كما أفعل ، فإني
أجزم . . أني كنت مبرئتها ، وإن كنت مقتنعة بدفاعها . .

تلمأ كما سترثوني وتقنعون بدفاعي .. أم ترائي واهمة فيكم ،
محنة الظن مكم ؟

ما أغباننا وأستغفنا .. نجلس مستريحين هائنين ، ماعى
البال ، قريرى الآعين ، وتتخذ من أنفسنا قصاة على غيرنا ،
العارئين فى العباب ، المحروقين بالشواطى .. لنقول ببساطة :
هذا أذنب ، وهذا أجرم .. ما كان يجب أن يفعل ذلك ،
وما كان يجب عليه أن يغرق أو يحرق .

ما أشبهنا بالقضاة الذين جلسوا لمحاكمة الربان الذى
غرق سفينته فحكموا عليه بالإعدام بعد مداولة سبعة أيام
عرفوا خلالها ما كان يجب أن يعمله الربان حتى لا تغرق سفينته ،
وآجابه الربان فى دهش : حقيقة هذا ما كان يجب أن أعله ،
ولكنكم لم تعرفوه إلا بعد مداولة سبعة أيام فى حجرة هادئة .
أما أما فما كان أسمى سوى ثوان معدودات فى روعة عاتية .
كلنا نفعل كما فعل القضاة .. لاندكر لأصحاب الخطايا
ظروفهم الموهجاء . ولا مناعرهم المرفقة ، وأحاسيسهم التى
تسوقهم — إلى ما نسميه خطايا — سوق غراتب الإيل .

ما الخطايا ؟ . أمى شىء ملوس محدد ؟ أم هى مسائل
نسبية .. تتغير تبعاً لتغير مشاعرنا واختلاف وجهة أبطارنا ؟
إنى عندما ارتكبت ما تسمونه خطيئة .. كنت واثقة

وأنا في الظروف المحيطة بي أنها ليست من الخطيئة في شيء . . .
وأن ما فعلت هو خير ما يجب أن أفعله وأنه حق في الحياة
وأؤكد لكم أن كل مخلوق سواي . . . ما كان يفعل سوى
ما فعلت .

وما دام الأمر كذلك . . . فلم نسميه خطيئة ؟
وهكذا لا أشك أن أي قد اتخذت الطريق الأكثر
ملاءمة لها ، والذي بدا لنا وقتذاك . . . انحرافاً عن الطريق
السوي ، انحراف بالنسبة لنا . . . أما لما فاشك أنه كان سوياً .
لعلها لم تتم بسعادة مثالية ، ولكن من قال : إن الطريق
السوي . . . أو أي طريق في الحياة يعطي سعادة مثالية ؟
كثيرون جداً لم يرتكبوا ما نسميه خطيئة . ومع ذلك فما
كانوا أسعد حالاً . . . لقد كان لطريقهم السوي . . . متاعبه
الخاصة ، التي لا تقل بحال عن متاعب الطريق المنحرف .
أي مثلاً . . . الرجل الجاد ، النموذجي الصارم . . . كان
إنساناً شقياً . . . شقياً بجهده ونموذجيته وصراته . . . شقياً في
ونفسه وبأمراته المهاجرة .

ويدولي أنه قد جعلني موضع تجربته ، وأنه قد صمم
على أن يجعل مني مخلوقة أخرى غير أي . . . مخلوقة مثله . . .
لا أشك ، ولا أشعر ، ولا أحب . . . ولا أريد ما أحب

— على النقيض — لقد كان يحرم على كل ما أحب ..
ويعطيني كل ما لا أرغب .

ولم أكن ألعب كما يلعب الأطفال .. بل كنت أجلس
معه وجنتي تعلبي — على حد قوله — شيئاً مفيداً مافماً
وهكذا نشأت جامدة الحس .. مادية التفكير .. كاذبة
بالعواطف .. هازئة بالحس .. لا أرى فيه — كما قلت —
سوى داء عضال يقتلك بإرادة الإنسان ، ويسلبه رشده ،
ويحرمه القدرة على التفكير السليم وعلى التمييز بين ما يجب
وما لا يجب ، وتبين ما حرّم عليه وما أحلّ له .

كنت أرى فيه داء يصيب الإنسان فيجعله يندفع
بلا تفكير ولا روية .. كأنه فذيفة لا يستطيع شيء أن يغير
اتجاهها حتى تذهب إلى مستقر لها .

وهل لا يعتبر داء .. ذلك الذي يصيب الإنسان فيجعله
يأتي بكل موهبة شاذة مستغرب ؟ ! يصيب الملوكة فيركلون من
أجبه عروشهم .. يصيب الآباء فيفسدهم أبناءهم ، ويصيب
الأزواج فيلفظون من أجبه زوجاتهم ، ويقوضون حياتهم .
أي داء يمكن أن يصيب الإنسان شر من هذا ؟ وأي سمادة
يمكن أن يمتنع بها إنسان تكون له القدرة على أن يبأى
بنفسه عنه ، ويعيش بمنجاة منه ؟



میلاد میر



هذه هي الأفكار التي تملأ رأسي وقتذاك، والتي
كانت طبيعتها في نفسي الحياة التي نشأت عليها ولقيتها
إيماي العواصف التي عصفت بأبي وأمي .

كنت متشعبة بها ، ولم تسكن لي تجارب في الحياة بعد . .
فلقد كنت ما زلت في مستهلها . . فتاة في دور المراهقة . . أو
كما قال صاحبي : زهرة في كدها لم تتفتح بعد . . فحاولت أن أتخذ
من تجارب من سبقوني عظة ودرساً ، فلا أتأفها وقموا فيه .
وبدأت التجربة الأولى . . رافعة الرأس ، آية النفس ،
جامدة الحس . . وقفت أنظر إلى الصائد وهو ينصب الشباك
حولى في تحد وثقة وسخرية .

لم يكن الصائد غريباً عليّ ، ولم أكن أتصور قط أن يكون
هو صائدي . . فقد تعودت أن أراه دائماً ، دون أن تحتاج في
نفسى عاطفة أو تتحرك جارحة ، فاكنت أرى فيه أكثر من
صبي ، وما كنت أضمر له أى نوع من المشاعر . . لا بعض
ولا حب ، ولا مجرد إحساس بوجوده .

كان ابن خالتي . . ولم يكن بين عائلتنا أى ود أو تقارب ،
بل كان بيننا شبه عداوة ، أو عداوة مستترة . . لست أدري
منشأها بالضبط ، وإن كنت أرجح أن علتها حسد من جانب

عائلته ، وترفع من جانب عائلي .

كانت أمي وأمه أختان اختلف حظهما في الحياة . . فقد تزوجت أمه موطفاً عادياً . . عاجله الموت وابنه ما زال في المهد . . وأخفت الأم وحدها تكافح الحياة وايس لها من سد لتربية ابنها سوى معاش ضئيل القدر .

وتزوجت أمي - ن أبي ، وهو مقاول في مستهل عمله . . أقبلت عليه الأيام ، ففتحته سعة في الرزق واتعمشت أعماله ، وتضخم ثروته . . حتى أضحي في فترة قصيرة من كبار المقاولين المعروفة أسماؤهم .

ولم يكن بين الأختين - أمي وأمه - من التحاب والمودة ما يجب أن يكون بين الأخوات . . ويعلم الله من كانت منهما السبب في ذلك ، قد تكون أمه بانظراتها وأحزانها وحرمانها وحاجاتها دون أن تجد من يمد إليها يداً ، وقد تكون أمي بتقصيرها وأمانيتها وتباعدتها . . أو قد تكون لاهضي ولا تلك ، بل يكون أبي بحفافه وقسوته وصرامته وتقديره ورفضه أن يمد يد المعونة إلى الأم الأرملة والولد اليتيم . . وتجاهلها كأنهما لا يمتان إلينا بصلة قرى . .

قد يكون أي من هذه الأسباب هو علة القطيعة ولناظر ، أو قد تكون كلها متجمعة . على أية حال لقد كانت نتيجتها

هوة كبيرة بين العائتين ، وازدادت الهوة عمقاً .. بفصل
أبي عن أبي ؛ وانقطاع كل صلة بيننا وبينهم .. لاصلة
وأمية .. هي صداقة أخى لابن خالتي .. صداقة ناتجة عن
زمالة في الدراسة وتقارب في السن .

تلك هي الصلة الوحيدة بيننا وبينهم .. الصلة التي لولاها
لما أحسست أن لي ابن خالة .. ولما وقع عليه بصرى قط .
كما نسكن في . حداثق القبة . في شارع . ولي العهد . .
في إحدى الفيلات المطلة على المزارع ، وكان أحمد - ابن خالتي -
يزورنا في فترات متباعدة : في أيام الجمع أو العطلات ليقضي
اليوم بطوله مع أخى . على ، يلعبان في المزارع أو يلهيان
بصيد الأسماك .

ولم أكن خلال زيارته المتقطعة لنا في صباه أبصر له
وجهاً إلا عند حضوره ، فقد كان ياتي على - لوصافى -
تجبة مقتضية عابرة ، ولم أكن في لثامه أقل جفافاً ولا بروداً ،
فقد كنت بطيئتي باردة جافة .. ثم يحتفي بعدها في حجرة
أخى ، حتى ينطلقا سريعاً إلى المزارع .

تلك كانت علاقته بنا في صباه .. مجرد صديق لأخى ..
ما رأيت فيه ما بلغت النظر إلا ذلك الرفع والإباء والكبرياء

الناجح عما يسمونه الإحساس بالنقص . . فما من شك هناك
أن نشأته كانت أقل كثيراً من مستوى نشأتنا ، فما استطاع
كفاح أمه في تربيته إلا أن يهيء له حياة متواضعة ، لا تكاد
يحصل منها إلا على الضرورات القصوى كالطعام والتعليم . .
أما ما عدا ذلك من كاليات العيش الذي كنا نرغم فيه فقد
حرّم عليه ،

لم يكن هناك وجه للمقارنة بين مسكنه الذي كان يقطنه
مع أمه في شارع دلبغا شبراء وبين قصرنا المنيف ذي الحديقة
العناء والجراج والعربة الفخمة ، والخدم والحشم ، والطبايح .
ولم أكن أما لأفكر في ذلك الفارق أو أقيم له ورماً أو أجعله
باعثاً على نفورى منه أو إقلال من قدره . . لولا شيء واحد
هو تلك ، الفخة الكدابة ، التي كان يبدو بها ، وتلك الكبرياء
وذلك الترفع الذي كان يلقاها به . . فقد جعلني أبادله بفخة
بنفخة . . وكبرياء بكبرياء . . حتى أضحي ينسا ما يشبه التحدى
الصامت . . واستكثر كل منا على الآخر — بلا أى سبب —
تلك التحية الصامتة التي يلقاها بها في الفترات المتباعدة التي كنا
نتقابل فيها . . وانتهى الأمر بيننا إلى التحامل التام . . كأن
كلا لا يعرف صاحبه .

ولم أعر أمره اهتماماً يذكر ، فقد كنا لانكاد نلتقي إلا

لئلاً . . ولم يكن له في ذاكرتي إذا ما غاب أي موقع . . ومع
ذلك فقد ضايقني هذا الإصرار منه على تجاهلي ، أو على الأصح
بإداتي الجاهل والإسكار ، وأحسست منه بخدش لكبريائي .
بهكذا ظلت العلاقة بيننا ونحن لم تعد بعد دور الصيا . .
نختار العقد الثاني من عمرنا . . وكان الفارق بيننا لا يزيد على
الثلاث سنوات . . وكان هو في مرحلة التعليم الثانوي ، وأنا
في دراستي الابتدائية .

ونجح هو وأخني في البكالوريا ، ودخل أخني كلية الهندسة
وعملت معه أن ، أحمد ، التحق بالكلية الحربية فقد عاينته
مهارته في لعبة الكرة على القبول بلا وساطة .
ومرّت الأيام بعد ذلك ، وأنا لا أسمع عنه شيئاً ، ولا
أرى له وجهاً . . واختفى تماماً من محيط حياتي . . ولم يعد بي
من ساحة إلى تجاهله أو إنكاره فقد نسيته تماماً .

ومضى عامان كثيرهما من الأعوام لم يحدث خلاهما في حياتي
جديد ، اللهم إلا منح أبي رتبة الباشوية عقب تبرعه بمبلغ ضخم
لأحد المشروعات الخيرية ، ولو أن ذلك لم يحدث بالنسبة لي
تخييراً يذكر . . فقد استمر أبي هو هو بنفس الجند ونفس
الصرامة ، ونفس الإصرار على الحزم في تربيته . . وإن كانت
قد زادت في حياتنا بعض المظاهر التي تستلزمها رتبة الباشوية .

وفي ذات يوم قبيل المروب .. يوم صيف من أيام
يوليو وأستطيع أن أحده بالضبط بالثلاثاء الخامس من الشهر
عام ١٩٣٧ .. ولست من غواة تذكر التواريخ ، ولكن هذا
اليوم بالذات أعتبره في حياتي يوماً خطيراً .. يوم بدء
التجربة .. يوم اشتعال الشرر والنهب العاطفة .. يوم ميلاد
جديده .

وكنت أجلس يومذاك في شرفة رحيبة كأنه بالدور
الأول بها درج منسع بفضي إلى الحديقة ، وقد رصت
في أركانها أصص الزرع الأخضر من فوجير وأسبرجس ،
وتسلقت على أعينها المدادات المزهرة .. وتسلك أشعة
الشمس الغاربة أرجوانية دامية من خلال المنسلقات فصيقت
الشرفة باللون الأحمر .

ولم يكن أحب إلي نفسي من أن أخلو بها في تلك الشرفة
النجيبة فأشرد بذهني في عالم جميل من الأوهام ، وأطرح عن
نفسي أحزانها وأعجابه .. وأنطلق بها حرّة من قيود المنلاية
التي أعيش فيها والصرامة التي أحاط بها .

وسمعت وقع أقدام في مر الحديقة تقترب من الشرفة
لم أعبا بها كثيراً .. فما توقعت أن تحمل إليّ سوى أحد
الخدم ، أو الطباخ ، أو سواهم من أتباع الدار يسألوني عن

التواضع من الأمور . . . وتوقفت الأقدام ، ولم أكلف نفسي
مشقة رفع بصري عن كتاب كنت أثبت في صفحاته عيني ،
وقلت للقادم منسائلة دون أن أنظر :

— هيه ! .

ووصل إلى أذني صوت غريب يتمم معتدلاً :
— أنا آسف . . . لم أفسد قط أن أقطع عليك وحدتك
أو أسب لك إزعاجاً .

ورفعت بصري لأنين صاحب الصوت ، فأصابني من
مראה دهش وعجب لقد وجدته ، أحمد . . . الصبي المتكبر
« ذا اللبنة الكدابة » . . . وقد وقف أمامي في حلة رسمية
أنيقة كشفت عن اعتدال قوام ، ورشاقة قد ، وقد أحاط
الحزام الجلدي العريض بوسطه ، فأظهر ضيق خصره واتساع
صدره ، وبدت البدلة لامعة الأزوار محكمة على جسده كأنها
قطعة منه . . . ولاح لي وجهه وقد لوّحت الشمس لحولت
بياضه إلى سمرة حمراء ، واستقام طربوشه على حينه ، وافتقر
ثغره عن ابتسامة أبدت أسنانه بيضاء مشطومة .

تلك كانت الصورة الخاطفة التي التقطتها عياني له . .
ووجدت الدهش والمفاجأة ينسياني ما كان بيننا من تجاهل
وتحذ ، وهنفت به مريحة :

— أحمد . . . أهلاً وسهلاً . . . تفضل .

وصعد الدرجات مقرباً مني ، وقال وهو يمد يده :

— أكرر أسفي إذا كنت قد أزعجتك . . لقد حضرت

لزيادة د على ، .

وكرهت منه هذا الحديد . . ولكني حمدت الله أن
أزال سابق نفخته وكبريائه . . وأن جعله يكف عن ترفعه
حتى لا يضطرنني إلى معاملته بأشل والعودة إلى سابق تجاهلي
له ، وترفني عنه .

وأدركت من مظهره أنه قد تحسن كثيراً ، وأن
العالمين قد جعلوا منه مخلوقاً متزماً . . وأصاعت منه ذلك
الإحساس بالقص الذي كان يجعله يصر على سخافة
الكبرياء ، ووجدت أنه قد أضحي أكثر رقة في الحديث ،
ولباقة في التصرف .

ولم تستغرق مني تلك الملاحظات سوى ثوان معدودات
أجبهته على أثرها :

— أعتقد أن د على ، سيحصر بعد برهة . . وتستطيع
بالطبع أن تنتظره . . إذا كان الانتظار لا يثقل عليك .
ويبدولي أن من الخير أن أعترف صراحة — مادمت
قد سميت كتابتي هذه في بادئ الأمر اعترافاً — بكل خلجاتي

نفسى . . وأن أذكر ما وراء أفعالى . . فالإنسان غالباً
يقول شيئاً وفق نفسه شيء آخر .

لم يكن فى قولى أن « على » سيحضر بعد برهة ، وسؤالى
إياه أن ينتظره . . شيء غير طيبى . . ولكن الشيء غير
الطيبى كان فى قرارة نفسى . . فإنى لم أكن أعلم أن « على »
سيحضر بعد برهة . . أو على الأصح كنت أعلم أنه لن يحضر
بعد برهة . . فهو لم يتعمّد قط أن يسكون فى الدار فى هذا
الوقت .

ما الذى دفعنى إذأ إلى هذه الكذبة النافقة ؟
أمر واحد . . لا يمكن أن يكون هناك دافع سواه .
وهو رغبتي فى استبقائه ، وفى الجلوس معه ، والتحدث إليه .
كيف حدث هذا ؟ . وكيف انقلب تحاهلى له وإعراضى
عنه . . إلى رغبة فى مسامحته ؟

أهو ذلك التعبير الذى أصابه ؟ . أهى البيلة العسكرية
الأنيقة ، والقوام المشقوق ، والوجه الوسيم ؟
ولكن هذا لا يعتبر تغييراً بمعنى الكلمة ، فوجهه هو هو ،
وقوامه قد يكون اعتدل وتما بعض الشيء . . ولكن لم
يتقلب الانقلاب الذى يوازى انقلاب مشاعرى .
أم ترى التغير حدث فى نفسى أما ، وأنى أنا التى ترعرعت

وأصبحت أنظر إلى الحياة وإلى سائر الناس نظرة تختلف
جد الاختلاف عن نظرتي وأنا في العاشرة أو الثانية عشرة .
أعتقد أن كليهما صحيح ، وأن التغير المزروح في نفسي
ومعه قد سبب ذلك الانقلاب في مشاعري . . وكما أستطيع
أن أجزم — بنظرة المرأة الفاحصة الناقية — قد سبب أيضاً
انقلاباً في مشاعره .

أجل . . لا أشك . . أنني قد أحدثت في نفسي الأثر الذي
أحدثته في نفسي ، وأنه رأى أن العالمين اللذين لم يرني حلالهم
قد جعلوا من تلك النصيحة الحيلة العجباء البارزة عظام الظهر
والترقوة . . الرفيعة الساقين . . فتاه أخرى . . بارزة الصدر ،
مكتنزة الردفين . . بمثلثة الساقين . . لقد رأى الثمرة الفجة قد
نضجت ، والزهرة في البرعم الأخضر قد تفتحت وتلوّنت
وتضوّع عيورها .
خلاصة القول . . أما افتراقنا : صبي وصبيه ، والنقينا :
شاب وشابة .

• • •

وجلس في الشرفة بجواري ، ورن حولنا صمت سيبه
جاء عقد ألسنتنا . . ونفضت عن نفسي الحياء . . فما وجدت
هناك ما يبرره . . إذ كنت أحول أن أفهم نفسي ذلك أن

باردة الحص ، جامدة الشاعر .. وأنه لا ضمير على من
الجنس الآخر .

واعترضت لنفسي عن استبقائه فأني لم أفعل إلا ما تقتضيه
المجاملة وراجب القرابة (كأن القرابة قد نشأت بيننا فجاء) .
ونظرت إليه الحص حلتة .. وثبتت عيني على علامة
معدنية في ، ياقته ، تمثل جندياً يمتطي حصاناً ، وقلت منسائلة
محارة خلق موضوع للحديث :

— علام قدل هذه العلامة ؟

— على السواري .

— أمت في السواري إذا ؟

— أجل .. لقد التحقت به عقب أن نخرجت .. منذ

ما يقرب من شهر .

— أتركب الخيل ؟

وحقق في ضاحكا وأجاب :

— لا أفعل غير ذلك .. لأنه لا يوجد عندما حمير ،

— لطيف ركوب الخيل .. كم أود لو تعلمته ، ولكنني

أخشى الاقتراب من الحصان .

— أستطيع أن أعليك إذا شئت .. المسألة لا تستدعي

إلا كثرة مران .. وليس هناك ما يخيف في الحصان ..

- إنه مخلوق مهذب ما لم نسيء معاملته . . .
- كل مخلوق مهذب ما لم نسيء معاملته .
- ابن آدم . . لا . . ألم تسمعي قول الشاعر :
- « إذا أنت أكرمت اللئيم نمرّداً » .
- لقد ذكرتني بالشعر . . لقد سمعت من أخى أنك تقرض الشعر ، وأنت رسام ماهر ، فما الذى حولك إلى هذا الاتجاه العسكرى ؟
- وأى خير فى ذلك . . هل حرّم على الضباط قرض الشعر والرسم .
- ظننت أنك ستدرس فى الفنون أو الآداب حتى تخصص فى أحدهما .
- هذه أشياء لا يحسن التخصص فيها . . فى لا تؤكل عبثاً . . إنى لا أستطيع أن أرتزق من الشعر أو من الرسم ولكنى أستطيع أن أمتع بهما كهواية .
- وهل أنت سعيد بمهنتك الجديدة ؟
- جداً . . رغم أنها شاقة فى بادئ الأمر . . وخاصة خلال فرقة الركبانية . . التى تتعلم فيها فن الركوب . . نحن نركب أحياناً أربع ساعات متوالية .
- أربع ساعات ؟! على فكرة . . ألم تقع عن الحصان ؟

- كثيرآ . . ألم يقولوا : لا يقع إلا الشاطر .
- وأنت شاطر ؟
- عندما أقع فقط .
- وانطلقت ضاحكة . . ثم عدت أسأله :
- وكيف تمضي أوقات فراغك ؟
- في « الميس » مع الرفاق ، أو في السينما .
- وحده ؟
- أحياناً وحدي .
- والأحيان الأخرى ؟
- مع رفيق .
- من أى نوع ؟
- يختلف النوع حسب الظروف .
- إنني أعرف أن الضباط « أشقياء » . . ولا بد أنه قد
- أصابتك منهم عدوى « الشقاوة » .
- عدوى خفيفة جداً . . لا تزيد أعراضها عن الصداقة
- البريئة .
- لا أعتقد في الصداقة بين رجل وامرأة .
- ولم ؟
- ليس في هذا الجيل . وليس في هذا البلد . . نحن

لم تتعود بعد أن يصادق الفتي فتاة صداقة بريئة لا كثير
الأقارب .. إن طبيعتنا الرجعية لا تهضم تلك الصداقة .

— إنما الأعمال بالنيات ، وما دمت واثقا أن صداقتي
بريئة .. فلا يهمني ما يقوله الناس .

— ولكن الصداقة قد تتطور .

— إلى ماذا ؟

— إلى حب .

— ليسكن .. ماذا في ذلك ؟

ثم اندفعت أقصص إليه رأي في الحب وأعلن له إلخاى به :
— إنى لا أؤمن بالحب .

وتدرج بنا الحديث من موضوع إلى آخر .. وكانت
الشمس قد غربت .. وتسلل الطلام حولنا دون أن نشعر ،
ووجدته ينظر إلى الساعة في يده .. ثم يقول :

— الساعة السابعة والنصف .. لقد مضى على وجودى
هنا ساعة .. وأعتقد أن ، على ، قد يتأخر أكثر من ذلك فقد
يكون ذهب إلى السينما .

ولم أكن أتوقع قط أما أمضينا فى الحديث ساعة ..
فقد مضت الساعة كليل 'إرق' .. وقد كنت لو استطعت أن
أستقيسه ساعة أخرى .. ولكنى كرهت لنفسى أن تتلقى

بمتعة .. وأن تنزلق - وهي الجملة الباردة الكافرة
بالمشاعر - في أول تجربة .. وعزمت على أن أجرب
لإرادتي التي أجهد أبى نفسه في تقويتها وتربيتها .. وأن أصد
نفسى عن الفتى ، وأنت ما ادعيت في أول الأمر من أن
ما فعلت معه لم يكن سوى جملة وواجب قرابة .

هذا هو السبب الأول الذى جعلنى لا ألح في استبقائه ،
أما السبب الآخر ، وهو الأهم ، فهو خوفى من أن يحضر
أنى وقد كان ميعاد عودته فيجئنى جالسة معه .

قد يقول قائل : وماذا في ذلك ؟ .. وأى عيب في أن
أجلس مع ابن خالتي ؟

ولست أشك في أنه لم يكن هناك عيب ، وأن أبى رغم
صرامته وقسوته ، لو رأى جالسة معه لما أثار ذلك في نفسه
أى إحساس بتبرم أو غضب ، فلما أظنه يحرم على الجلوس
مع ابن خالتي ، المعروف بهدوته وحسن خلقه ، وما أظنه
يجد في ذلك إثمًا أو جرماً ، ومع ذلك فقد كنت أكره أن
يرانى في جلستى هذه ، لأنى كنت أحس في باطنى - رغم براءة
الجلسة - أنى قد فعلت إثمًا .. وكنت أبا أدرى الناس
بذلك .. أدرى من أى مخلوق لسبب واحد ، لا يمكن أن
يذكره سوى .. وهو أنى أحسست بمتعة في الجلوس إليه .

لقد سبب إحساسي بالمتعة .. الشعور بالوزر . لأنه كان
يجب عليّ أن أحرم نفسي هذه المتعة .
ووجدتني أمد يدي إليه محبة وأنا أنظر إليه فاحصة من
أعلى إلى أسفل ، ومن أسفل إلى أعلى .
وأصابه شيء من الارتباك وتسلل :
— أبي شيء لا يعجبك ؟
— بدلتك .. وفرط أناقتك .. حتى لنبدو أنك لست
ضابطاً حقيقياً .

— لست ضابطاً حقيقياً ؟ ماذا أكون إذا ؟
— مثل .

وكنيت أقصد بقولي مجرد المزاح .. ولكن بدا لي أنه
قد حمل قولي محل الجد .. فقد لمحت في وجهه علامة ضيق ،
وهممت بأن أعتذر له وأرسل صيغه ، ولكن سمعت صوت
عربة تقف بالباب ، ثم سمعت صوت أبي مقيلاً .. فلم تكن
هناك فرصة للاعتذار .

وحياهم أبي وهناء بالترحال تهته مقتضبة .. ثم ودّعنا
وولي وجهه شطر الخارج وأخذ يقطع أرض الحديقة بقدميه
في مهبته العسكرية .

وسرت وأبي إلى داخل الدار ، وبعد برهة حضر أخى ،

وجلسنا للعشاء ، وأبأته أن ، أحمد ، أتى لزيارته .
 وبدأ عليه الاهتمام وسألني فرحاً :
 — أحمد .. ابن خالتي ! ! لم لم ينتظر ؟
 ونظرت إلى أبي ، والسرّة الثأية وجدتني أكذب على
 غير إرادة ، وأجبت قائلة :
 — كان على مجل .. فلم يشأ أن ينتظر .
 — لاشك أنك أسأت استقباله كعادتك .. أنت باردة .
 — أكنت تريدني أن آخذه ، بالحضن ؟ .
 — يجب عليك أن تتعلّى الترحيب بالناس .. أنت لم
 تتردى صغيرة .
 — من قال لك أني لم أرحّب به ؟
 — أنا أعرف طبعك .. جافة باردة .
 وكان أخي دائماً يهمني بأنني إنسان بلا شعور ، وكان
 لا يفتأ يبدى قهره بي وبأبي وبجميعنا الجافة ، ولم يكن
 يتورّع عن إعلان كرمه لنا . وعن تمني اليوم الذي يفارق
 فيه الدار .
 ونظر إليه أبي فطرة صارمة وقال له :
 — ليس لك بها شأن .. عليك نفسك .. أنت غير
 مسؤول عن تهيئها .

ومضت فترة صمت .. ثم سألتني أخى :

— هل كان يرتدى بدلته العسكرية ؟

وأجبت باقتضاب وبغير اهتمام :

— أجل !

— كيف كان يبدو بها ؟

لا أدرى .

— كيف ! ألم تريه ؟

— لا أدرى .

— وقحة .. باردة .

ثم نهض أخى عن المائدة وهو يرميني بنظرة غيظ .

وذهبت إلى الفراش ليلئذاك .. ولست أريد أن أmeen

في المبالغة أو أكون روائية الحديث ، فأرغم أنى قد شغفت

به منذ تلك الليلة حباً ، وأنى قد بت صريخة هواه .. أو أننى

لم أنم من فرط التفكير فيه .. لم يحدث لى بالطبع شىء من

هذا ، وإن كنت لا أستطيع أن أكر أن حقى لم ينقصنا

بمجرد أن رقدت فى الفراش .. لا لتفكيرى فيه ..

بل لنهى نفسى عن التفكير فيه ، ولإبعاد صورته عن

خيلتى .. ولأردد لنفسى أنه لا شىء ، وأن سواء من

الرجال لا شىء ، وأنى أستطيع بإرادتى وصلابى أن أجعل

بين وبينهم جداراً سميكاً يقيني عدوانهم .

لم يكن ما أصابني تلك الليلة حب . ولكنه كان مبادئ .
استيقاظ للقلب . . تماماً كما يفتح المرء عينيه في الصباح أول
مرة ثم يتأهب ويتقلب في الفراش . ثم يغمضهما مرة أخرى
ويروح في غفلة قصيرة يستيقظ بعدها لينهض من الفراش ،
وبدأ عمله .

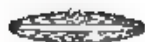
لقد أصاب القلب إذ ذاك . . ما يمكن أن يسمى أول
رعشة . . أو أول هزة . . نفضت عنه ذلك السبات العميق
المغروق فيه . . وأزالت عنه تلك الأتربة السمكية من الحزم
والصرامة والكبت والتريسة التي قد تراكت فوقه . . .
وطرقت قيود الجلود التي كبلته ، وشققت مسخور الجليد التي
أحاطت به .

وأغضت عيني ، وأنا قلقة حائرة . . بين شدة الإحساس
الجديد ، وخوف الخطر المجهول الذي كست أتوهمه وراه . .
كانت بي رغبة في الاستزادة منه وخشية من عواقبه .

لقد بت وأنا أنلّف على زيارة أخرى ، وعلى حديث
أطول . . وتمنيت لو استطعت أن أعتمر له ، وأن أزيل

عن وجهه ذلك الضيق الذى سببته له ، وفى الوقت نفسه كنت
أرجو ألا أراه . . وأصم إن رأيته أن أعود إلى سابق تجهلى
أنا . .

لقد تمت فى اليوم الخامس من يوليو سنة ١٩٢٧ ، وأنا
أحس أن نافوس القلب يدق إبهاناً باقتراب الخطر ، أو
إبهاناً بميلاد جديد . . ميلاد عاطفة . . ميلاد قلب .





البقية تأتي



فاقوس القلب إذأماً بالخطر . . ولكنه لم يكن
دو خطراً عاجلاً ، فقد خفت الدقات وسكت الرين
وعاد إلى القلب سكوتة الخيم . . وأعقب رجفته استغراق
في السبات عميق ، وعاد إلى سابق عهده من الجفاف والبرود .
لم تتح لنا الظروف لقاء عاجلاً . . يواصل إيقاظ القلب
ولا يدعه يتناوب ويبتطلى ، ثم يعزو ويستغرق في سباته ،
فقد سافرنا في اليوم التالي إلى الإسكندرية ، ومرت بي صيف
كثيره من سابقه راكد ساكن . . كأتى فيه من فرط تشابه
أيامه وتكرر أعماله موظفة حكومية . . ففي الساعة العاشرة
أكون ، وجدتي ، قد اتخذنا مجلساً في الكايين ، ويكون أخى
قد ارتدى المايوه وانطلق إلى البحر .

وتمر بنا الساعات متاقلة في الحديث ، أو في عمل وتريكو ،
أو في استقبال بعض العجائز من صديقات جدتي أو
الفتيات من زميلاتي ، حتى إذا حانت الساعة الثانية حضر أبى
نيمكت ربع ساعة أو نصف ساعة ثم يعود بنا إلى البيت للغداء
وبعد الظهر إما أن نذهب إلى سينا ، أو نستريح على
الكورنيش .

كانت الحياة تسير بي هادئة طبيعية مثل . . وكنت رغم

إحساسى بالفراغ والركود ، ورغم تجربى بها أحياناً .. أحس
إعجاباً لصمودى أمام نظرات الشباب من صحاب وغير صحاب
وترففى عن الآعين المخذقة ، والأعاديث المعجبة ، وأحسد
قلبي لأنه لم يذل ، ولم يلهف ، ولم يحزن ، وتساميت تماماً ما كان
من أمر محرّكة الأول ، وموقفه من سبائه ، وقارع النواقيس
في حناياه ، وموقد الشموع في رحابه .. تناسيته تماماً وحمدت
للأيام هذه المنحة من النسيان .

وعدنا إلى القاهرة في أواخر سبتمبر بعد ثلاثة أشهر ،
واسقر بنا المقام في دارنا وقد خلا ذهى منه .. ولم أعد
أتوقع منه أية زيارة ، بل ولا أنتظرها .

وفي ذات يوم كنت وجدت في محلى شيكورييل ، نبتاع
بعض الحاجيات عندما التفت هناك فجأئى — والدته —
ولم نك قد التفتنا قبل ذلك بأعوام .

وتصالحنا ، ووجدتها تنظر إلى فى دهش وتقول :

— ما شاء الله .. لقد كبرت ما عابده ، وأضحيت

عروسة ..

وأصابنى شيء من الارتباك ، وخاصة أنى وجدت بعض
رواد المحل يتلفتون إلى ويحسدون فى بتطفل .. كأنما
أرادوا أن يتأكدوا حقيقة أنى قد أصبحت عروسة ..

ولم أجد ما أدارى به حياى سوى أن أتكلم فقلت لها
فجرد رغبتي في أن أقول شيئاً :
— كيف حال أحمد ؟

— بخير . . الحمد لله . . لقد أضفى هو الآخر رجلاً .
— لقد رأيته في حلقه الجديدة .
— أعرف ذلك . . فقد أبلغني أنه كان في زيارتكم ،
وأنه جلس معك مدة طويلة .

وتدخلت جدتي في الحديث قائلة :
— كيف . . لاني لم أنصره . . لم لم تخبريني أيتها الماكرة ؟
وأجبتها في تلقف :
— لقد حضر لزيارة « علي » ولما لم يحده مكث ينتظره
وأظن أنك كنت ليلتذاك في زيارة عمي « زكي بك » .
ووجدتها توجه الحديث إلى خالتي :
— يجب أن تدعيه لزيارتنا ، لقد كان دائماً صديق « علي » .
وأجابت خالتي :

— وما زال صديقه . . إنه يحبه كإخيه . . ولكن
« واخذ علي خاطره » من عايده .
وتساءلت في دهش :
— مي أنا ؟

- أجل .. لقد قال لي إنك قلت له إنه كالمثلين ..
وقد صمم أن يكف عن زيارتكم منذ ذلك اليوم .
- لقد كنت أمزح .. إنني آسفة جداً .. أرجوك
يا .. نت ، أن تعتذري له عني .. إنني لم أقصد أن أغضبه أبداً .
وقالت جدتي مؤذنة بإنهاء الحديث هامة بالانصراف :
- دائماً لسانك طويل ، وكلامك فارغ .
ثم ودعنا عاتني ، وانصرف كل منا في طريقه .
وعدنا إلى البيت وأنا أحس في القلب ذنبية ضعيفة ..
ورجفة خافتة .

وفي اليوم التالي - قبيل العصر - وكنت مضطجعة على
الأريكة في الدور العلوي ، سمعت جرس الباب يدق وفتح
الخادم الباب ، وسمعت خليطاً من صوته وصوت آخر ..
جعلني - برغبي - أنهض واقفة ، وأتجه بحركة لا إرادية ..
إلى المرأة لأطمئن على شكل .. وأصف شعرى بقدر
ما أستطيع من السرعة ، وأمر بأصابعي على حاجي لأرهبهما
وأعيد الشعيرات الخارجة إلى مكانها .

ووجدت أني بهذا العمل السريع الذي فعلته بلا تفكير ،
قد أعددت نفسي للقاءه ، كأنني جزمت أنه قد حضر للقاء أنا .
لا لقاء أخى .. مع أني - فيما مضى - لم أحاول مرة واحدة

أب أعى بفاته . . فقد كنت اعتبره في غير دائرة
الاختصاص ، وكنت غالباً أتبع عن طريقه حتى لا أكلف
نفسى مشقة تحيته والترحيب به .

وسمعت صوته يتصاعد إلى من أسفل وهو يقول للخادم:
— سيدك د على ، موجود؟

— لا ياسيدي . . لقد خرج منذ نصف ساعة .

— ألا تعرف متى يعود؟

— لا أعرف بالضبط . . ولكنه تعود ألا تاتي

إلا في المساء .

ومضت فترة صمت قصيرة ثم سمعته يقول :

— حسناً . . أخبره أنني قد أتيت لزيارته .

وبدا لي أنه يهم بالانصراف . . فتملكني الصيق ، ولكني

سمعت الخادم يرد قائلاً :

— سيدتي د عايدة ، موجودة ، أريد أن أُنَبِّها بحضورك؟

وحضت للخادم قوله ، وانتظرت الإجابة ، وأما أرمف

السمع وبدأى منهمكتان في تصفيف شعري ، وعيناي

مثبتان في المرأة .

وبعد فترة تردد سمعته يجيب :

— لا . . لا داعي . . إنها سلاي م

وهالم أجد بدأ من ترك المرأة ، والإسراع إلى أسفل .
وأما أسأل الخادم بصوت عال كأتى لا أعرف من الزمر :

— من بالباب . . يا ابراهيم ؟

— سيدى ، أحمد بك . .

— دعه يتفضل !

وارتفع صوت أحمد يهينى :

— إزيك يا عايده !

— أهلا وسهلا .

وهبطت إليه ومددت يدي أصافه .

ولأول مرة فى حياتى أشعر أن أصافه الأيدى متعة ،
ولتلاص الأصابع لثة ، وتبين لى أن الأحساد ابشرية
موصل جيد للحرارة الكهربية . . فقد سرى لى من مس
يده تيسار أحدث فى جسدى رجفة وفى قلبى خفقة ،
ووجدتني أصطرب وأرنبك رغم كل ما بذلت من جهد
لكى أتمالك وأبدو طبيعية

وجلس على أحد المقاعد وطلبت منه أن يجلس ،

ونظر إلى وجهى وقال مبتحيا :

— يبدو عليك استمرار البحر ! !

— السمرة تعجيك ، أم الياض ؟

- حسن في كل عين من تودا
- عدنا إلى الشعر .. ألم تسك الخيل ، إياه ؟
- بل شجعتني عليه .. إنها أشبه متلازمة .. الخيل واليد والشعر .
- والهوى ، وليلى ١٩
- مالي من ليل .. الآن على الأقل !
- وبعد ذاك ؟
- من يدرى !
- وتذكرت غضبه لإساءتي إليه بتشديده بالممثلين فقلت له :
- لقد نسيت أن أعذر لك !
- علام ١١
- على ما يدرني في المرة السابقة .. لأنني ما فعلت به سوى المزاح .. أرجو ألا تكون غاضباً مني !
- أنا أغضب منك ؟ - حاشا لله !
- إذا لم قلت لوالدتك إنك لا تزورنا بسبي ؟
- أبا قلت هذا ؟
- قلت ما يشبه هذا .. قلت إنك تحب أخي . وإنه صديقك الدائم .. ثم قلت إنني أمي - إليك .
- وأطرق برأسه برهة ، ثم رفع إلى بصره ، وانهم قائلان :

— الواقع أنى لم أتعود منك سوى المعاملة الجافة ،
والبرود والتجاهل . . أتكرين ذلك ؟
— لا أسكره ، ولكن سبب .
— أى سبب ؟
— سيك أنت .
— أنا ؟

— أجل . . لقد كنت أعطيك واحدة بواحدة ، والبادئ
أظلم . . لقد كنت دائماً البادى . بالكبرياء والفخمة والتجاهل ،
فقايت معاملتك هذه بالمثل .

— هذه مسألة يصعب حلها . . من كان منا البادى
بالتجاهل ، . . تماماً كسالة البيضة والفرخة . . أيها وجد
فيل الآخر ، وإيهما تنج عن الآخر . على أنى أعتقد أن خير
طريقة لحل المسألة هو أن نكف سويًا عن تلك المعاملة ،
ومن جانبي أنا . . سأكف عنها ولولم يكنى أنت ،
وسأعتقد لك عن كل مامضى من نهضة وكبرياء وتجاهل ،
وسأبدأ عهداً جديداً من التواضع . . ما أريك ؟

— حسناً ، وأنا سأبادلك عهداً بعهدي ، ووعداً بوعدي .
— اتفقنا . . دعينا تصافح على ميثاقنا الجديد . . ميثاق
حسن المعاملة .

وضحكك مقهقه ، ومددت يدي لمصاحته .. وسرى بيننا
 نفس التيار الذي سرى أول مرة .
 وصمت برهة ثم سألتني :
 — أما زلت تريد أن تقبلي ركوب الخيل ؟
 — ليقني أستطيع .
 — ولم لا .. سأحضر إليك بالحصان ذات مرة ،
 وسأخرج بك للتنزه بين المزارع .
 . وإذا وقعت ؟
 — تركبين مرة أخرى .. إذا استمر الحصان في مكانه ،
 وإذا جمع تعودين سيراً على الأقدام .
 — وإذا كسرت ساقى ؟
 — يبقى لك ساق ثانية
 . وإذا قذف بي في التربة ؟
 — تفرقين إذا كنت لا تجيدين الساحة ، وتغل ثيابك
 وتصابين بالبرد إذا كنت تعرفينها .
 — ماشاء الله .. أهذا هو ميثاق حسن المعاملة ؟ من منا
 البادى . بنقضه .. كسرت ساقى ، وقتلتني غرقاً . أهذه معاملة ؟
 — هذه معاملة الخيل .. لبست مسؤلاً عنها .
 — دعنا من الخيل ، الآن .. خبيرتي كيف تقبلي

وقت .. هل ما زلت تتعلم فن الركوب .. أم صرت راكياً
هنا .. أم فناناً راكياً ؟

— كليهما .. لقد انتهت فرقة الركبدارية ، وأخضيت
خناطاً قديماً مشلولاً ، وتسببت ببلوك ، وأخضيت قائداً
لأربعين جندياً ، وأربعين حصاناً .. ما رأيك ؟
— كثير عليك .. ماذا تفعل بكل هذا ؟
— إذا لم تكن عن السخريه .. سأبطل الحديث .
وصحكت وأمناته أنى لا أسحر بل أستكثرها حقيقة ...
وقلت وأنا مسترسلة في الضحك :

— لو كنت مكانك وسلبوني أربعين حصاناً لاعتبرتها
كارثة ، وقررت هاربة حشبة أن يرخصنى ، أحدها .. أو
« يعرضنى » آخر . حدثنى ماذا تفعل هذا البلوك الذى تقوده ؟
— أدرب الجنود ، وأتولى رعايتهم والعناية بهم ، وأنا
مسؤول كذلك عن نظافة الخيل ، وطعامها ، وروحها ،
وتدريبها .

— كان الله فى عزمك .
— عدنا إلى السخريه !
— هذه سخريه ؟ . أنا أطلب من الله أن يعينك على
الأربعين حصاناً .. كيف تقوم لها بكل ما ذكرت ؟

— استيقظ حوالى السادسة .. وأكون فى الإسطنبول
 الساعة السادسة والنصف .. فأتهم على الجنود والخيـل ..
 وأناكد أن واحداً منها لم يضع .
 — واحد يضع ؟ كيف ؟
 — لقد سمعت أن الطوبجية سرقوا ذات مرة بعلاً من
 السورى .. ومن ذلك اليوم ، وأشد ما أخشاه أن يسرقوا
 منى حصاناً أو عسكرياً .
 — وبعد أن تتمم عليها ؟
 — نبدأ التفتيش على نطافة الخيل والسروج والجنود ،
 ثم نصطف للتأبور .. وفى الساعة السابعة نتحرك إلى الخانات
 وهى أرض مفروشة بالقش نتخذها ميـداً للتدريب ..
 فإذا ما انتهى التأبور عدنا إلى الككنات لسقى الخيل
 وإطعامها .. ثم تناول طعام الإفطار ، وتبدأ بعد ذلك عملية
 الطومار .. وهى تنظيف الخيل .. وهى أثقل عملية
 تصادفنى فى يومى وأشدّها مللاً .. فبأنى أدرع فيها الإسـطبل
 ما يقرب من المائة مرة ، وأسرح فى كل شئ .. وأقرض
 الشعر ، وأؤلف القصص .. ويبدولى أن دهرأ فـد فـات ،
 ثم أنظر إلى الساعة فإذا بها لم تتجاوز نصف الساعة .

لست أدري ما يدفعني الآن إلى تذكر تلك التفاصيل
التافهة .. ولكن يبدو لي أن في تذكرها إطفاء لحرقة نفسي
وتهدئة للوعة قلبي .. إنني أستطيع الآن أن أذكر أقواله كلمة
كلمة .. أستطيع أن أذكر كيف كانت تلك الأحاديث التي قد
تبدو لكم تافهة بئس .. ذات وقع لذيذ في مسمعي .. كنت
أصغى إليها باهتمام عجيب .. شاعرة أنني قد بيت أمت إلى دنياه
بصلة وثيقة ، وأن عالم الخيل والجنود ، والطومار ، وده حياة
الميس ، ونوادير الضباط وأعمال السككات قد أصبحت أشياء
هامة لدى ، كما هي هامة لديه .

كنت أحب حديثه عن نفسه .. مدعية لنفسي أنني أحب
الحديث .. كمجرد حديث .. وأن هذا لا يعني قط أنني مهتمة
بمصاحب الحديث .

كنت أدعي هذا ، وأنا أعلم في قرارة نفسي أنني كاذبة ،
فما خطر ببالي من قبل .. وقد أمتصت على قيد الحياة
سبعة عشر عاماً .. أن أهتم بالخيال .. أو بالضباط .. أو
بالجنود ، بل ما فكرت لحظة أن هناك شيئاً يسمى السوارى ،
بل كنت أعرف أن هناك جنوداً وصافطاً .. ولا أكاد أفرق
بين ضابط البوليس والحيش .

وغل يحدثني ذلك اليوم دون أن يمل من الحديث ، أو
أمل من الإنصات . . حتى سمعت صوت « جدتي » تناديني
بأن أصعد لأرتداء ملابس استعداداً للخروج ، فقد كسا على
اتفاق بأن أذهب في زيارة إحدى العائلات الصديقة .

ونميت أن تذهب وحدها ، ولكنني لم أكن من الجنون
بحيث أحاول أن أدعي أي سبب للتخلف ، فقد كنت أكره
أن أضع نفسي موضع الشكوك . . لا أمام الناس فحسب
بل أمام نفسي .

وعندما سمع هو صوت « جدتي » تهباً للانصراف ،
واستأذني في أن يصعد لتحية « جدتي » . . فصعدنا سوياً .

وكانت « جدتي » مخلوقة طيبة ، حلت في حياتي محل الأم ،
ولم أكن أجدها فيها عيباً إلا شدة شبهها بابنتها - أبي - من ناحية
التريبة والآداب والكرامة ، وغير ذلك مما أثقلوا عليّ به .

ولقيته « جدتي » بالترحاب . . . ترحاب العجائز الذي
لا يخلو من الربت والسمة ، ودعوة الله أن يحرسه ويحفظه
من العين .

وتقبل « أحمد » دعواتها بالشكر وبمض الخجل . . ثم
ودعنا وانصرف بعد أن دعت « جدتي » إلى تكرار الزيارة

غامة وأن عمله ليس بعيداً عن البيت .

وخرجت مع جدتي ، فييل الغروب . . وقد تملكى
إحساس بالسعادة لا أدرى كنهه ولا علته .

كنت أحس بثورة خفية . . كنت على حال من الطرب
والسرور تدفعني إلى حب الناس كلهم وحب الدنيا بأجمعها .

كنت مبالغة إلى المرح والفناء . . كنت أشعر برضى عن
كل شيء ، وعند ما عدت إلى الدار وتناولت العشاء وذهبت
إلى النوم أحسست برغبة تدفعني إلى الحلوس في الشرفة وإلى
أن أفكر كثيراً .

وأحسنت وأنا أحقق في النجوم بحنين إلى شيء مجهول
وبدأ لي كائن شيء ناقص . . مارال له بقية . . هنا أو هناك ،
وأن أنلف على بقيتي . . وبدأ لي أنها تحوم حولي ، أو
أحوم حولها . . وأنها تتوق إليّ كما أتوق إليها ، وأن كلامنا
سيظل يلهث في الحياة ويتخبط حتى يلتقي . . فنصبح شيئاً تاماً
كاملاً ، قائماً بذاته .

ولم أحاول أن أحدد لنفسى على أى شكل خلقت بقيتي
وعلى أى صورة كوّنت . . ولا حاولت أن أقرب بها من
الحقيقة فأجسدها على هيئة معينة ، وألبسها لمخلاق بالذات ،

فقد كنت أجب عن ذلك . . كنت أفضل أن أبقى هائمة . .
وأن أقول لنفسي إن هذه أوهام وأحلام . . على أن أعترف
لها بأنني . . بساطة . . أسمى إلى الحب ، وأن هذه البقية
التي أتوق إليها . . إنسان حي كائن . . أشعر به يقترب من محيط
حياتي ، ويترك باب قلبي .

كنت أكره أن أعترف حتى لنفسي . . أن رجلاً ، أو
على وجه أدق ، أن . أحمد . . قد بدأ يتخطى نفسه في نفسي
مركزاً ممتازاً . . وأني ككل أنثى أوشك أن أتردى في هاوية
الحب . . إن لم أكن قد تردت فعلاً . . وأن كل تلك المساعة
التي حصنت بها ، والمبادئ التي لقيتها . . قد تهاوت عند أول
هجمة من هجمات الحب .

وذهبت إلى الفراش ورأسي خليط من الأفكار ونفسي
مزيج من المشاعر . . حنين ، وخوف ، وتمن ، وانتظار ،
وكان كل ذلك قد أحيط بهالة من السعادة والإحساس بأن
أحدنا أوشك أن تقع في حياتي ، وبأنني رغم كل ما أدعيه
من السخريّة من الحب . . والإلحاد به . . ورغم جهود حسي ،
وبرود مشاعري . . قد تردت في الهاوية . . وأني مهما
ادعيت ومهما زعمت فقد وقعت في الشرك ، وبت أنظف على
حضور . أحمد . . وأنشرف إلى رؤيته .

كيف لا ، وأما إن قد قاومت تفكيري فيه في بقطتي
 هاجمني طيفه في نومي ، فلم يدع لي حلاً واحداً أخلو فيه بنفسي
 دون أن يشاركني فيه .
 قاتل الله الأحلام ، لقد هزمتي شر هزيمة . ، لقد كنت
 أراء وأحبه في كل حلم .





امنیہ میری شریکہ



أحمد ، يتردد بعد ذلك على دارنا في فترات
أخبر متقاربة . . وكان حضوره طبعاً . . لزيارة أخى ،
أو على الأقل هذا ما كان يبدو في الظاهر وإن كنت يا حساس
المرأة قد استطعت أن أجزم أنى وحدى كنت مقصده .

ولم تح لنا فرصة لقاء طويل ، إذ كان يجد أخى في كل
مرة باقى إلينا ، وكان إما أن يمكننا معاً أو يخرجنا سوباً . .
ولم أك أعدم في كل مرة سيباً يررلى أن أدخل حجرة أخى
وأن أسلم عليه وأتحدث معه حديثاً سطحياً عابراً .

وفي ذات يوم ، في أواخر أكتوبر ، اتفقت مع جدتى
على أن أصطحبها إلى إحدى دور السينما حيث كان يعرض
فيلم مصرى ، وارتدينا ملابسنا استعداداً للخروج ، ووقفنا
بالباب . . وعندنا كنا نهم بركوب العربة لخت ، أحمد ،
مقبلاً علينا .

وبعدما اقترب منا حيانا وقال متسائلاً :

— على موجود ، ؟

وأحسست برغبة تصدى عن الذهاب إلى السينما وتمنيت
أنى لو أجلتها إلى يوم آخر . . فقد كان الوقت مناسباً للتمتع
بجلسة لطيفة . . ولكن لم تكن هناك وسيلة للنكوص .

وأجبتة :

— لقد خرج منذ برهة .

ونظر إلى .. وقد بدا عليه أسف ظاهر لم يستطع أن
محفيه .. أسف لأنه لم يجد أخى ، وأسف أشد لأنى لست باقية
فى البيت .

ولم يملك سوى أن يحببها .. وبهمّ بالمسير .. ولكن
« جدتى » دعت إلى أن نوصله بالعربة إلى حيث يريد .
وركب بحوارى ، وسألته « جدتى » :
— إلى أين ؟

— ليس لى مقصد معين ، ربما ذهبت إلى السبنا .
— إذا تذهب معنا ، إننا ذاهبان لمشاهدة فيلم
(الشيطان شاطر) .. هل رأيته ؟

وأحسّت أن الأمور قد تطوّرت فى غضة عين إلى
خير ما أشتى .. لأنه لاشك سيصحبنا إلى السبنا .. وأنى
أوشك أن أجلس بحواره ثلاث ساعات .. وتمنيت أن يقول
إنه لم يره وكان هو عند حسن ظنى ، فأجلب سريعا :
— لا .. لم أره .. ولكنى سمعت أنه من خير الأفلام .
لأنهم يقولون إنه مضحك جداً .

— كذا قالت لى عابده ، ولهذا أصرّت على أن تذهبنى

لمشاهدته .. أما لا أحب السينما .. ولكن عند ما يكون الفيلم
مضحكاً تصبح محتملة .

وانسابت بنا العربة في شارع الملك ، ثم شارع الملك
فازلى ، وتملكنى إحساس عجيب بالسعادة والرضا عن
جلستى بجواره .. وأحذت أرقبه بطرف خفى .. ولم تخف عليه
نظراتى فسألتى مازحاً :

— أما زلت تربى كالممثلين .. مفرطاً فى الإثارة ..
مفرطاً فى الجدة ؟

ومضكت وأجبت :

— لا .. لقد بدا عليك القدم .. وأوشكت البدة أن
تبل .. بعد شهر ستصبح كالساعة .

وتدخلت جدتى ناهرة إياى :

— يا بنت .. كفى عن قلة الأدب .

وأجاب هو ضاحكاً :

— دعها .. فسأعرف كيف أعنيها الأدب .. إن يسا

ميثاق حسن معاملة .. والشتائم فى عرفها من حسن المعاملة .

ووصلنا إلى السينما ونظرت إلى واجهتها فإذا بى إعلماً
عن فيلم جديد ، وإذا بالفيلم الذى أتيانا لرؤيته قد انتهى عرضه .
وكان الفيلم اعروض أجنياً .. وتملكنى خوف

من أن تنكص ، جدتي ، عن الدخول .. وقت لها :
- لقد انتهى عرض الفيلم .. والفيلم الجديد أجني ..
ما رأيك بانيته ؟
- فيلم أجني ؟ أنا لا أفهم من هذه الأفلام شيئا .. كان
يجب عليك أن تتأكدي من برنامج العرض في الصحف .. حتى
لا تقطع المشوار ، بلا فائدة .
- ولكنه فيلم جيد جداً .. من أحسن الأفلام .
- أحسن الأفلام وأرذوها عندي سواء ، لأنني لا أفهم
كليهما .

- سأشرح لك .
- لا .. لا .. لا داعي لتعب القلب .
ومضت فترة صمت لم أستطع أن أخفي خلالها علامتي الضيق
على وجهي وأردفت ، جدتي ، قائلة :
- على أية حال .. يمكنك أن تدخليني السبيل مع
أحمد ، وسأذهب أنا لزيارة نفيسه همام ، ثم أعود إلى
البيت .
ولم أصدق أذني ، فقد وجدت أن لطروفي قد كرمت
معي إلى حد التمييز والسفاهة .. وأسرفت في سخاها إلى درجة
لم أتصورها قط .

أهكذا ينتهى الأمر بنا بمثل هذه السهولة إلى أن يدخل
رجلين سوياً ؟ لا .. لا .. هذا كثير !

وكان الواجب علىّ أن أبدي بعض التردد والممانعة ،
وأن أقول مثلاً : لا ضرورة اليوم للسبيل ، أو : لا يا بنه
سأعود معك ، أو أدعى أن : نفسي هائم ، قد أوحشتنى .
كان هذا الواجب علىّ ، وكانت تلك هى الأقوال
الطبيعية المنتظر منى قولها .. ولكنى خشيت أن يتقلب
الأمر فى اللحظة الأخيرة ، فتوافق جدتى ، على أن
أعود معها ولا يصيبنى غير الدم .. وعلى نعمها جنت
مراقش . .

وهكذا وجدت نفسى أقول ببساطة وكأنى أمثل لأمر
بحيرة عليه :
— أمرك يا بنه !

وهبطنا من العربة ، وأحسست يده تطبق على يدى
ليعودنى وسط احماير المتراصة أمام دار السبيل . . وتركنى
قليلاً ليلتاع التذاكر ، ثم دلفنا إلى الداخل .

وقادنا عامل المتقاعد ، ببطارينه ، وسط الظلة إلى مقاعدنا
وسرنا تتجسس طريقنا وهو يمسك يدى حتى استقرنا على

المقاعد ، وانتهى عرض « الجريدة » التي حضرنا في خلالها
وعرضت إشارة الفيلم القادم .

وقلت له وأما لشاهد الإشارة :

— الطاهر أنه فيلم مدعش !

— نراه سوياً .. إذا لم يكن لديك مانع .

— ولكن « جدتي » لا تحب الأفلام الأجنبية !

وخيل إلى أنه يتسم في خبث وهو يقول :

— وفيها إليه اذهب لزيارة نفسه هانم .. حفظها الله

وحلت فترة الاستراحة وأضئت الأنوار .. وأخذنا

نطلع إلى الوجوه المحطة بنا ، ووجدته يشير برأسه محيياً ،

وتلفت إلى حيث ينظر فوجدت سيدة وفئة في مثل سنى وشاباً

يبدو أنه أخوها .. فقد كانا متقاربين في الملاعب .

وعندما انتهى من تبادل التحيات والانسامات ، نظر إلى

وقال مفسراً :

— محمود عبد الرحيم وأخته « ابتسام » وأمه ..

جيراننا في المنزل .. والأم أعز صديقات أمي .. عائلة طيبة .

وأمرى نجهم كثيراً .

واستقرت نظرة أخرى إلى الصلة ، فاحصة إياها خصوصاً

سريعاً .. فوجدتها على كثير من الرجال .. وخاصة جمال
الوجه .. أما جسدها فقد بدا لي على قدر ما رأيت مما تلا
إلى السنة .

وقلت مسترسلة :

— الفتاة جميلة !

فأجاب بعدم اكتراث :

— بنت حلال .

وعدت أقول مازحة وفي شيء من السخرية :

— أراها تنظر إليك كثيراً ؟

ونظر إلى برأسه عذفاً كأنه يريد أن يعرف ما وراء

كلامي ثم قال وهو يتنسم :

— متأكدة ؟

— جيداً .. ويدولي كأن وجودي معك قد ضايقها !

— معها حق .. ألبست عروستي ، المقبلة ؟ على كل حال

سيزول ضيقها عندما تعلم أنك ابنة خاتني ، وأن ما يبس مجرد

قراية .. وأن وجودنا في السينا سويماً .. كان عفواً بلا سابق

موعد ولا تدبير .

ورغم ما كان في لهجته من مزاح .. ورغم تأكيد أنه

يرد على محاولتي إغاضته .. فإني أحسست من قوله بصحة خفي

حاولت أن أأوممه وأحضيه بأن أفرض على نفسي شعوراً
بعدم المبالاة .

وقلت له في لحظة حاولت جهدي أن تكون مازحة :

— لم كنت تشكر إذاً أن لك ليلتك ؟

— ليلتي شيء .. وعروسي شيء آخر .. هذه عروس

بالإكراه .. فقد اتفقت أمي وأما منذ ثمانية عشر عاماً ..

— أي منذ ولدت — أنها ستصبح زوجتي .. وأغلب الظن

أنهما قد قرآ الفاتحة و .. جزء عم ، بأكله .

— وماذا يمنع من أن تزوجها ؟

وعاد يحدق فيّ في غيظ :

— وماذا يجعلني أتزوجها ؟

— الذي جعل الناس كلهم يتزوجون .

— على أية حال .. أنا لا أعتبر صداقة أمي لامهاج

سبباً يجعلني أودى بنفسي إل تهلكة الزواج .

— أو تعتبر الزواج تهلكة ؟

— طبعاً !

— إذاً فلن تزوج ؟

.. إلا أمام عامل واحد .. ينهاى أمامه كل عزم .

— وهو ؟

— الحب .

— حب !!

قلتها بمنتهى السحرية والاستغفاف . وأجابنى ضاحكاً :

— آه .. لقد نسبت أنك من أعداء الحب .

وأطلقه نور السبيل إذناً ببدء الفيلم ، وهأت الضجة
التي كانت تسود المكان خلال الاستراحة ، والتي أتحت لنا
أن تبادل الحوار السابق .. ووجدنا أنفسنا — على غير
رغبة منا — قد اضطررنا إلى الصمت وإلى أن تنجبه بأبصارنا
إلى الشاشة.

وبدأ عرض الفيلم .. وحارلت أن أركز تفكيري
في الحوارات التي تتابع أعمى ، وفكيتي وحدث تفكيري
بتفرق بدداً ، وذهى بشرى فلا أكاد أله ، ولم أستطع أن
أنتقط من القصة المعروضة سوى مناظر متفرقة متباعدة
لا أعي لها معنى ولا أرى بينها رابطة .

كانت الأفكار تموج في ذهني وتختلط .. أحمد وعروسه
المقبلة .. ابتسام وأما وقراءة الفاتحة يمكن حفاً

أن يتزوجها ؟ لم لا ؟ ولكن ألم يقص إنه لا يحبها .. من
تكون لبلاه ؟ ألا يحتمل أن يتزوجها إرضاء لوالدته ؟
ألا يحتمل أن يحبها على مر الأيام ؟
ولكن مالي أنا ولهذا .. ليتزوجها .. أو ليتزوج سواها
من نساء الأرض .. ماذا أريد منه ؟ وأى حق لي عليه ؟
تباً لي من حمقاء ماجة !

وبدا بتلكني إحساس بأنه يسترق الطر إلى في الظلمة ،
وأنه هو الآخر لا يتبع حوادث الفيلم .
وتنيت لو أننا استطعنا الكلام وعادتنا الحديث ..
لكي أقول له - ولنفسى - رأيي في الحب ، وأعلن له أرى
جامعة العاطفة .. بيني وبين الحب جدار نحين يقيني شره
ويؤمنني عصفه .

وازداد بي القلق .. وحيل لي أنه لم يكن بأقل مني قلقاً ،
ووددت أن نعاد دار السينما ونستبدل بمجلسنا فيها جلسة
في الشرفة الخضراء المورقة الخضراء المزدهرة .. وكنت أعلم
أن القمر الليلة في تمامه ، وأنه يخلع على الشرفة سحراً عجيباً .
وفجأة وجدت قلبي يزول .. وذهني الشارد يستقر ،
وأفكاري المختلطة الصاخبة تهدأ وترتكز .. كل ذلك كان
مبعث حركة نافذة بسيطة .

كنت أجلس في أول الأمر وبدأى متشابكتان
في سحري ، ولكن حدث أن غيرت جلستى وملت
مسندة مرفقى اليمين - والأقرب له لأنه كان يجلس عن
يميني - إلى مسد الكرسي مادة ساعدي ، بأسطة كفى على
حافة المسند .

ومدّ هو يده - بقصد أو بغير قصد - ليستد كفه على
نفس المسند . . وشعرت بكفه توضع برفق فوق كفى . . ولم
أحرك ساكناً فقد أحسست بالتيار الخفى الممتع الذى سبى
أن أحسست به عند مصافحته . . ولكنه كان فى هذه المرة
أشد وأقوى ، كانت كفه أكثر دفئاً وحناناً ورقة .
وبدأ بيننا الحديث ، ليس بالشفاه ، ولكن بالأصابع
والأكف .

ولأنى لأكتب الآن ، وأنا امرأة ذات خبرة وتجربة ،
ذقت من كؤوس طوى أعذبها . . ومن متع الغرام ألذها
وأشهاها ، ولكنى أقسم أننى ما ذقت فى حياتى أمتع من
مناجاة يدينا ليلتناك .

أحسست بباطن يده يتحسس برفق وشغف ظاهري يدي
كما يتحسس البغيل أنف من يملك ، ليظهر على وجوده . .
أوكا يتحسس الأعشى العاشق وجه من يحب . . ثم بدأ يدفع

أصابه أسفن أصابعي فيتحسبها أصباً أصباً بمتهى ارقه
كأنما يحشى أن تذوب في يده ، أو تنفت بين أصابعه ، وبدا
في تحسه هذا كأنه غير مصدق أن هذه أصابع أو كأنه
لأول مرة يمسك أصابع .. أو كأنه قد أذهله أن يحد
بالكف خمسة أصابع ١١

وأحسست به — بعد ذلك البس المفرط في ارقه
والحنان — يحتوى كفى في يده . ثم يضغط عليها صمطاً
خفيفاً .. خفيفاً جداً . لا يكاد يحس ، وكأنني به يهتف من
أعماق قلبه ، أما أحبك ..

وبدا بعد ذلك دور العناق .. ولم لا أحميه عنفاً
وأما ما أحسست من العناق الحقيقي بأكثر منه متعة !
لقد تخال أصابعي بأصابعه فتشابكت أيدينا ، واستقرت
يدي في يده وأحسست راحة عجيبة .. كأنني قد استقررت
في أحضانه .

قد يبدو حديثي مضحكاً ، وقد يستعربه البعض وينكره
البعض الآخر متهمين إياي بالعتة أو الحنون ، ولكنني واثقة
تمام التة .. أن العشاق سيفهمونه .. العشاق الذين يرسلون
مناجاتهم مع الرياح ، ويتهايمون بذبذبة القلوب .. لا بد

أن يقدروا كيف تنفام الأكف وتتناجي الأيدي .

ووجدته يلتفت إلى في الطبة ويهمس :

— أراضية أنت عن الفيلم ؟

— نصف ونصف .

— ما رأيك في مغادرة السينما ؟

— إلى أين ؟

— إلى البيت . . نجلس في الشرفة ياها !

وصادف عرضه هوى في نفسى ، ولو أنى أوتيت شيئاً

من الشجاعة لكنت البادئة بعرضه .

وصمت برهة ثم همست به :

— هيا بنا .

وتهضنا عن مقاعدنا متسللين إلى الخارج ، وقد تملكنى

خجل شديد وأحسست أن الناس جميعاً يرقبوننا ، وحيل إلى

أن عينين معينتين بالذات تعقدان فينا . . هما عينا « البتسام » .

وخرجنا إلى الطريق ، وتلفت حوله يبحث عن « تكسى »

ولكننى كرهت أن أحمله أجره ، وأصررت على أن ركب

الأوتوبيس ، وسرنا في « شارع فزاد » حتى بلغنا تقاطعه

ب« شارع سليمان باشا » ثم اتجهنا إلى أوتوبيس ١٤ .

وحضر الأوتوبس بعد فترة قصيرة ، واتخذنا مجلسنا
متجاورين على مقعد واحد ، وكانت العربـة ـ على غير العادة ـ
تسكاد تكون غالية .

واستغرقنا في الحديث .. في حديث طويل لم يقطعه
غير الكسارى عندما حضر لإعطائنا التذكيرين .

ولست أدري .. من أين كان يأتي كل هذا الحديث
الذى لا ينضب له معين .. إني لم أك قط ثائرة .. بل كان
أكثر ما نعيه على جدتي ، هو ميل إلى الصمت وعجزى
عن مسامرتها والحديث معها ، ولكى كنت معه طلاقة
اللسان ، أستمري الحديث معه وأستعذب الإنصات إليه .

كنا تكلم وتكلم .. دون أن نحس مرة واحدة أننا
تشكف الكلام .. أو يعيننا موضوع الحديث .. ولم
نكن نعرف ما دمنا سوياً .. أن هناك شيئاً يسمى الملل
أو السآمة .. لأننا ما أحسنا بمرور الوقت .. فقد كان يمر
بنا كلح البرق .. كان عقرب الساعات يعدو في سيره ..
أما عقرب الدقائق فلم يكن له في زمتنا وجود .

وكان يجب أن نترك الأوتوبس قبل النهاية بمحطة ..
ولكننا لم نشعر إلا وقد وقفت العربـة في نهاية الخط .

وغادرت العربية .. وكانت المحطة الأخيرة قائمة قرب
الجامع ، المظل على « سراى القبة » والكائن في زاوية ينتهى
عنها شارع الملك ، وبتدى الشارع المؤدى إلى المطرية
المتدحذاء سور السراى البحرى ، والذي يقوم السراى
على أحد جوانبه ، وتقوم المزارع على الجانب الآخر ،
وتظلل أشجار البانسيانس الممتدة على الجانبين .

وكان عليا لى نذهب إلى البيت لأن نعود أدراسا من
« شارع الملك » ، ولكى رأيت قد توقف أمام الجامع برهة
لينظر إلى أشجار البانسيانس الممتدة في الطريق لزرعى ،
ونظر إلى ساعته ثم قال :

— الساعة الآن ما زالت الثالثة .. ما رأيك في التفرغ

في هذا الطريق ؟

ولو قال لى إنسان من قبل أنه يحتمل أن أسير مع شاب
— أيا كان — في مثل هذا الطريق وفي مثل هذه الساعة
من الليل .. لسببته واتهمته بالجنون .. فما كنت أجزؤ قط
على المكبر في مثل هذه المشية المشبوهة المسترقة ، وما كان
يخطر ببالى أن أسير في الطرقات وفي المزارع .. كما بهم
الحشاق المخاييل

ولكننى في تلك اللحظة .. والقمر يسطع نوره الهادى .
الربط على المزارع الممتدة ، والجوامع قد بدأ يبعث نطقاً
كأنه قد اغتسب ببور القمر .. والأشجار قد ترامت ضلالها
على الطريق .. فبدت قارعتة وكأنها سجاد منقوش ، والنسيم
يمرّك الأوراق فيبعث منها حفيفاً كأنه الأنفاس الناعمة .

وهو ١١ هو .. ذلك المخلوق الساحر العجيب .. الذى
فعلت بي مسة يده .. ما لا تقدر عليه عصا موسى .. الذى
جعلنى - أما الباردة الجامدة - أذوب .. وأتحلى .. كما
تذوب قطعة الجليد عندما يلتقى بها فى فوهة بركان .
كيف أقوم وقد استعان عني بنسيم الليل وضوء القمر
وممس الشجر ١١

وترددت برهة .. فقد مرّ بخاطرى .. ما يمكن أن يقوله
أى من أهل الدار : أبى أو جدى أو أخى .. لو عرفوا أبى
أسير مثل العشاق فى مشية شاعرية ؟

ولكننى خوف .. لا بما يمكن أن يفعلوه بي ، فما كنت
لأخاف إنساناً قط .. حتى أبى ، ولكننى كنت أخاف على
كبريائى أن تنحطم .. كان أنفى ما أنشأه وأكرمه .. هو
أن يقال عى إبنى عاشقة وأبى ترديت فى هاوية حب .. حتى

ولو كان حب الرجل الذي سيصبح لزوجاً .
وقمت لمسى إن البيت آمن عاقبة . . فإني في بيتي أستطيع
أن ألتزم ما شاءة حجة أدفع بها عن نفسي وصحة الحب . . فأدعي
أنه يحضر لأخي ، وحتى لو قال أحد إنه يحضر إليّ ، فإني
أستطيع أن أجيب : ما ذبي ؟ أيمكن أن أطرده ، أو أحرّم
عليه المحي ؟

كنت أقص أن أتحذ دائماً — ما دمت أوشك أن أتردى
في الهاوية — موقفاً سلبياً ، حتى أستطيع الاتصال بسهولة .
وهممت بأن أقول لا ، وأنه خير لنا أن نعود إلى
البيت .

ولكنني وجدته لم يستطع على ترددي صبراً ، فغذيني من
بدي قائلاً :

— هيا بنا . . هي أننا ما زلنا في السينا .
وسرت معه مترددة في بادية الأمر ، ولكنني تذكرت أن
جلسة الشرقة غير مضمونة ، إذ يحتمل أن يكون أخي قد عاد
مبكراً فيضطر أحمد إلى الجلوس معه .
وأمر آخر ، استطعت أن أقنع به نفسي — أو على
الأصح — أغالط به نفسي ، وليس أسهل على الإنسان من
مغالطة نفسه .

لقد قلت إن المسألة مسألتي أما أولاً وآخرأ ، وأني مادمت
واقفة من نفسي ، قادرة على كبح جماحها ، فلا خوف على
كبريائي ، وعلى مقاومتي .

إني لا أحب ، ولن أحب ، هذا مجرد ترويح عن النفس ،
وإن صحبة إنسان لطيف مهذب ، قريب ، لا يمكن أن تعني
أنني ترديت في هواه ، إنه مجرد أخ ، أو صديق .

أما التزّه في النسيم العليل ، وفي ضوء القمر ، فهذا شيء
طبيعي . . كيف يكون التزّه إذا ؟ في هجير الشمس وسمارة
الفيط ؟ أكل المتزّهون عشاق ؟

لا . لا . يجب أن أكف عن هذه الوسوسة ، وهذا
الخوف . . ويجب أن أكون أثبت جناسا ، وأشجع قلبا . .
لا يجب أن أفر من الحب ، بل يجب أن أواجهه وأقهره .

وهكذا - ككل المنافقين - تمكنت من إقناع نفسي
وظمأنة قلبي ، ولم أحاول أن أتسائل مثلا : لو كان أحى محل
أحمد ، أكنت أقدم على التزّه معه بنفس السرور . . وب نفس
المتعة ؟

وبدأنا السير في الطريق . وعاودنا الحديث ، حديثاً عاماً
حاداً عن مبادئ وآراء ووقائع . . ليس فيه أي أثر من
أحداث العشاق ومناجاتهم .

وبلغنا منتصف الطريق ، فلاح لنا بين المزارع شبح
ساقية قديمة ، وسور مهديم ، وشجرة توت ضخمة قائمة على
بقايا الساقية . . وبد منظرها في ضوء القمر . . أشبه بلوحة
زيتية من صنع فنان ماهر . . ووقفنا برهة نتأمل المنظر
الساحر - أو على الأصح - الذي أبدته لنا أوامنا ،
ساحراً .

وسألني في رقة :

- أنستريح قليلاً على السور بجوار الساقية ؟

ويبدولي أنى كنت في تلك الليلة قد نسيت لفظ لا . .
فقد أشرت برأسي بحية : « كما تشاء » .

واتجهنا يسارنا في الطريق الضيق بين المزارع ، ولم نسر
إلا مسافة قصيرة ، ثم بلغنا الساقية وجلسنا على حافة السور
مواجهين القمر .

وحتى في هذه الجلسة . . كنت مقنعة نفسي تماماً ، أن
المسألة ليست مسألة حب ، وأنى لم أشعر بعد بالحب .

أى حقاً منافقة كنت ؟ ماذا كنت أخل الحب ؟ طارق
يدق الباب ، ويسأل عني . . ثم يحسك بتلابيبي ، ويطبّق على
خنقي ، ويقول : « أنا الحب » ؟
أبكني . . لكي أتجنب الحب . . وأضحى غير عاشقة . .

ألا أتكلّم عن الحب ، وأن تكون كل الأحاديث بيننا
لا تحمل طابع المناجاة ؟ أيكفي أن يكف المسان عن أقوال
الحب ، حتى يفضي المرء غير عاشق ؟

لقد كان هذا هو مبدئي ، الذي أفنعت به نفسي لكي
أحارب الهوى .. كنت دائماً عفة اللسان ، عفة التصرف ..
إذ كان لساني ومطهرى هما أقصى ما أستطيع التحكّم فيهما ،
أما قلبي فقد كان فوق إرادتي .. كان جامعاً شاردأ ،
لا سلطان لي عليه .. كان نائراً على .. متمرداً على حكمي ،
مستقلاً تمام لاستقلال .. كنت في واد ، وهو في واد ..
كنت أجف من الحب ، ويعين فيه . أدعى الحمود والبرود ،
وهو يرقص طرباً بلا خجل ولا حياء . أحلس ثأته وقوراً
متألكة متماسكة ، وهو ينفو ويترنح . شوان في حبات الصدر
عريده ..

قلت له وقد استقر بنا المقام على حافة الساقية .. من
حولنا الخضر المرامية كأنها بحر يحرك السيم أمواجه :
— حدثني عن آمالك في المستقبل وأمايك .
وصمت برهة وأطرق برأسه مفكراً .. ثم انطلقت منه
ضحكة خائنة وأجاب :
— أمانى نوعان

كيف؟

— نوع قريب ، ونوع بعيد . . نوع مستطاع ، ونوع
فوق الطاقة . نوع في اليد ونوع على الشجرة ، أو على مدى
الجوراء . هل تعرفين قول الشاعر :

مَنْ إِنْ تَكُنْ حَفَاً تَكُنْ أَحْسَنَ إِلَى

وإلا فقد عشنا به زماً رغداً

إن أمياتي تجمع الوعين ، نوع آتاه وآمل أن يتحقق ،
ونوع آتاه لا يعيش به زماً رغداً ، ولا يصعب به ملل
و لطماء ، وأسرح فيه خلال نيب و الهرمدان ، وبصاحه .
ولم أنمأك الضحك وقلت له :

— هذه طريقة مدهشة .

— أجل و السرحان ، هو خير طريقة لكي لا نسمع

ما لا نودّ أن نسمعه .

— دعنا نستعرض أمايك . . حدثني أولاً عن الأمان

التي تعيش بها زماً رغداً .

— لا . لا . إنها أمان مضحكة ، ستجعل مني سحرة ،

إذا ما صرّحت لك بها .

— لا بد أن تقر لها لي .

— حسناً . . إنها ليست شيئاً كثيراً ، إنها تنتهي في دائماً

إلى أن أصبح أحد شخصين : شكسبير ، أم بابيون ، أقصى
النبوغ في الاتجاهين اللذين أسلكهما في الحياة ، أما عن طريق
الوصول ، فإنني أتخذ طريقاً ليس به قدرة غير معقولة بل أجعل
كل وثباته معقولة ، وأخلق لها الظروف والمسايات ، وأطّل
أرتفع بنفسى شيئاً فشيئاً حتى أجدني في النهاية قد صرت
— بمنتهى البساطة — أحد الرجلين الخالدين ، تلك هي المني
التي لن تتحقق ، والتي عشنا ، وسنعيش بهارناً وغداً .
— بقيت التي إن تكن حقاً . . . تكن أحسن المني .

ولم يتمالك الضحك وعاد يقول بكرر قولي :
— . . . تكن أحسن المني . . . لقد تعلّمت ترديد الفرس . .
وبعد قليل تتعلمين قرصه .

— من جاور الحداد كوى بناره . . هات أحسن المني !
— هذه هي المني المعقولة . . إني طالب من الله — على
حد قول سخات شهير — ولا يكثّر على الله . . فناة حلوة .
ونظرت إليه واستغرقت في الضحك وقلت مرعدة في مثل
لهجته :

— لا . . . بسيطة . . خليباً على الله . . ماذا تريد منها ؟
— أحبها . . .
— أيضاً بسيطة .

— ونجني ...

— ويحب نافتها بعيرك ؟

— لا .. لا .. لا ناقة لي فيها ولا جمل .. ألم أقل لك

إن شيطان الشجر قد أغواك .

— أهذه كل أمانيك ؟

— لا .. ليست كلها .. أريد من الفتاة أن تشاركني

حياتي .. وتكون مثلاً للزوجة .. تتوافق ميلنا ، وتتحد

مشاربنا ، وأن تعجب لي ابناً وابنة .. وتكون لها خير أم

وأن يرزقني الله عربة صغيرة حملتها نحن الأرضة ، وفلا

بجدقة غناء يلعب فيها الأطفال .

— لا .. لا .. أنت طماع .. يكفيك شقة ، ويلعب

الأطفال في المدرسة .. أو في المنزهات العامة .

— حسناً .. قبلت .. موافق يلرب .. تكفيني شقة ،

وعربة نصف عمر .

واستغرقنا في الضحك سوياً ، ولم يكن هناك أسهل علينا

من أن نستغرق في الضحك .. كان أي شيء — مهما نجح —

يستطيع اصحابها كسب .. فقد كنا نستمع للضحك من أنفسنا

الراضيتين ومن باطننا القدير .

وقلت له :

— هذه أمان متواضعه بسيطة : سيحققها الزمن لك
إن شاء الله.

ونظمت بقول خلصة .. فقد كنت أشعر أنه إنسان
ذو نفس طيبة ، وقلب جميل .. لم أسمعه قط يذم أحداً ..
أو يكره أحداً .. بل كنت أراه نموذجاً للصفاء .. صفاء
لذهن والقلب والروح .
وقلت مردفة :

— بل يبدو لي أنك تستطيع أن تحققها الآن شيئاً قديماً .
ماذا يبلغ مرتبك ؟

— إثني عشر جنياً .
— حسناً .. دعني أدبره لك .. يجب أن توفر نصفه
على الأقل كل شهر حتى تستطيع أن تهني مبلغاً من المال
يعينك على تحقيق أمانيك .
— إني فعلاً أحاول ذلك ، إني أقصد كل ما أستطيع
اقتصاده .

— متى تتوقع أن تترقى إلى الرتبة التالية ؟
— بعد ثلاث سنوات أكون ملازماً أول ، وبعد أربع
بحتمل أن أصير يوز باشي .. فإن الجيش الآن في زيادة ،
لأن المعاهدة تنص على أنه لا بد أن يكون لنا جيش قادر حتى
يستطيع أن يقوم بمهمة الدفاع بدل جيوش الاحتلال ..

وقد بدأ التوسع فعلاً .. فقد أضفى السوارى لا يقتصر على
آلاى الخيالة ، بل وضعت نواة لآلايين جديدين ميكانيكيين ؟
آلاى دبابات وآلاى سيارات .

ولكنى لم أقتنع بقوة .. وبدأنى مستقبله فى الجيش باهتاً
مطداً ليس به محال لبوغ ولا عبقرية .. ولم يكن لدى فكرة
محسة عن ضباط الجيش .. فقد كنت أراهم فارغى العقول
ملبى البطون .. ونخيلته بعد بضعة سنين ، وقد ترهل جسده
واتفخ كرشه من قلة العمل ، وتبدل ذهنه لعدم التفكير ..
ورجعت تفكيرى المظلم قد دفعنى إلى أن أقول له بأسف :

.. كم وددت لو اتجهت اتجهاً آخر .. كان خيراً لك أن
تدخل كلية الهندسة أو الفنون أو الآداب ، أى اتجاه آخر ،
كنت تجد فيه مجالاً لإظهار بوعك ، غير هذا العمل المعطل
للواهب .

ورأيت وجهه - لأول مرة - يتجهم ويعطوه احمرار ،
ومضت فترة بدا لى أنه يحاول أن تهدأ بها ثائرته وأحيراً قل :
.. لا أود قط أن تقول كلاماً كهذا .. انزعج منه
الصورة الخاطئة من ذهابك .. إلى أحب الجيش .. أحب
ضباطه وجنوده ، كما أحب أهلى ، لى أحسن وأمانى ، ليس ،
أو ، الشكيات ، بأنى يبنى وبين أحق .. لانسكون غيبة

ككل الأنبياء الذين يقولون ما فائدة هذا الجيش الساحل
 الذى لا يحارب؟ هل يظنون أنه مفروض على الجيش أن يحلق
 الحرب لكي لا يبقى عاطلاً؟ وأنه - إذا ما طان به السلم -
 يجب أن يحمل مهماته وأسلحته ويقول لهم سلام عليكم . أنا
 راجح أحارب . . . لم يعيرون الجيش والعب في الأمة ؟ إن
 هذا التحل من ذاك الوطأ ؟ أو هذا الجيش من تلك الأمة .
 أمة محتلة . . ينخر فيها سوس العاصب . . أمة بين شعبها الهزبل
 تحت وطأة البلهارسيا والانسكستوما وماء الترع و . . لبتار
 الحاف . . إن هذا الجدى من ذاك الشعب الهزبل المسكين .
 ولكننا بدأنا في الجيش عهداً جديداً ، كان الإنجليز
 يسيطرون عليه ويتولون قيادته ليضغطوه ويطبقوا عليه حتى
 يظل مكشأ . . أما اليوم فتصبح لنا دبابات ومدافع . . سنتعلم
 أشياء جديدة . . وسيفتح لنا المجال للدراسة والدخول في كلية
 أركان الحرب . . لن نكون قط عاطلين . . بل تؤكد ذلك أنه
 سيأتى اليوم الذى تعرف فيه الأمة مقدار ما عدمنا تسجدنا
 فقدم لها أرواحنا رخيصة في أكفنا . . انفسر بها ما تشاء . .
 أما لا أنصب لضباط ، ولكن تلك هى طبيعتي . . أحب البشر
 جميعاً . . ولكننى أحب المصريين - مهما كانوا - أكثر من
 جميع البشر ، وأحب المصريين ، ولكننى أحب لضباط أكثر

من جميع المصريين .. وأحب الضباط عامة ، ولكنني أحب
ضباط الفرسان أكثر من جميع الضباط .. تلك هي شيفي ،
أحب أمي وجيشي وملاحي .

وفعل في قوله فعل السحر .. فقد لمست فيه إخلاصاً
عجيباً طمس تلك الصورة المشوهة للضباط .. وبدلاً من كل
الضباط - مثله - مشرقى القدر ، رافعى الرأس ، بارزى الصدر ،
ملثوم النشاط والذكاء . وقلت له معذرة وأنا أبتسم :

- أما آسفة جداً .. لم أقصد بقول أية إساءة ، ومادمت
تحس للجيش مثل هذا الشعور ، وتكره لعمالك مثل هذا
الإخلاص ، فلا شك أنك ستكون إنساناً ناجحاً ، ولاشك
أن الله سيحقق لك أمانيك .. ويعطيك الزوجة والبنين ،
والفيلا والعربة .. بل من يدري .. ربما حقق أمانيك ..
التي نظمتها لن تتحقق والتي تتخذها مجرد تسلية .. من يدري ؟
ربما تصبح شكسبير .. أو نابليون !

- من فينا الطماع ؟ أما أم أنت ؟ لقد كنت تستكثرين
على الفيلا منذ برهة .

وعدنا إلى الضحك ، وتفهمت بجأه إلى الوقت ،
وخشيت أن يكون قد غافلنا كعادته . وسألته عن الساعة
فأجاب التاسعة .

ونهمضنا عائدين .. فطرق شتى الموضوعات . ضاحكين
تارة جادين أخرى .. وشرد في الذهن خلال العودة ، فتخيلت
نفسى إحدى أمانيه .. الفتاة الحلوة ، التي يريد أن يحبها وتحبه
وأن تنجب له بنين وبنات ، ويقطن وإياها فيلا ويركبان عربة .
وبدا لي أنه لو سألت القلب المرید المنتشى لقال : إن هذه هي
أمنية مشتركة بيني وبينه . وإني وحدي ، الفتاة التي رطبها من الله .
ووصلنا إلى البيت في نفس الموعد الذي كان يحتمل أن
نعود فيه من السينما لو بقينا فيها حتى النهاية .

ورقنا في الحديقة على باب الدار ، ومددت يدي إليه
مودعة .. وأحسست يده تضغط على يدي ضغطتها
الرفيعة الخفيفة ذات المعاني .. ثم رفعها ببطء شديد والتفت
حيناً ، وسمعت يمس همساً رقيقاً :
— أنسمحين ؟

واسترت يدي في طريقها إلى شفتيه .. ولم أكن أملك
إلا أن أسمع له .. ومست شفتيه طاهر يدي ، وأحسست
لأول مرة بلهيب أنفاسه .. وحيل إلى أنني لا أنف على قدمي
بل أسبح في الهواء ، وسحبت يدي بسرعة من يده ، ودلفت إلى
الداخل مسرعة كأنني هاربة من خطر يوشك أن يحدق في .
آه من حرقة الأنفاس ولهيب الشفاه ! ! ! .



عربيد ينقصر



الأيام التي تلت تلك الليلة . أيام نضال بين
كانت مبادئ القديمة ومشاعري الجديدة . كنت أحس
أنى أنزلق بسرعة إلى الهاوية ، وأنى أفكر فيه رغم أننى وأنى
لا أستطيع منع تلك اللمعة والغبطة عند ما يذق الجرس ،
وأسمع صوته من أسفل يسأل عن أخى أو عتى .

وبدأت مقاومتي تنهار شيئاً فشيئاً ، دون أن أدرى ،
حتى حدث ذات يوم ما جعلنى أفيق لفسى وأقرر تعزيز
الدفاع وتقوية المقاومة .

لم يكن ما حدث أكثر من كلمات عابرة قالتها جدتى ،
وبدأت فيها أنها تقصد للتليح إلى أن . أحمد . أصبح يكثر
من زيارتنا من أجل ، ولم أدر ماذا تقصد بالضبط ،
ولكننى صممت أن أتخذ خطوة تظهر برامتى ، وأن أعود
إلى سابق جودى وأعمل على قتل مشاعري .

وهكذا بدأت أغير من معاملتى له ، فلم أعد أنتحل
الأسباب لألقاه إذا ما جلس برفقة أخى ، بل لم أحاول أن
أهبط إليه عند ما كان يأتى ، فلا يجد أخى . وكنت أتركه
ينصرف دون أن ألقاه .

كنت أفعل هذا وأما أشبه بفقراء الهنود يعذبون أنفسهم

دون مبرد . كنت أحسن ، وهو يتحدث الخادم ويسأله عن
أخى فلا يجده وينصرف دون أن ألقاه ، كاني أرقد على
فراش من المسامير ، وأضع أقدامي فوق جسدي ، لا لاسبب
إلا لأعذب نفسي وأعلبها المقاومة .

وحدث ذات يوم عهد عودتي من المدرسة فيبل العصر
وقد حملتني عربة المدرسة الملأى برميقات من البنات ، أن
وقفت العربة أمام باب البيت ، وعندما هممت بالنزول وجدته
مقبلاً عليّ من ناحية المزارع وقد امتطى جواده .

كانت أول مرة أراه على جواد ، وكان عاوى الرأس
مرتدياً قميصاً أبيض ، وقد استقام جسده وبرز صدره ، وبدأ
كأنه بجواده وبزته من نبلاء البصور الوسطى .

واقترب مني وهو يتشم وأحسست أن أبصار الزميلات
قد سلطت عليّ . . . وتخلت ما يمكن أن ألقاه من الستم من
تشنيع . وتريقة ، واتهامات . وصورلى الوهم . أو الرغبة
الحقيقية . أنا لا شك سئيدو أمام من كالعشاق ، وأنى سناً
وعشيقى الفارس . موضع أحاديثهن .

ولم أشعر إلا وأنا أحول بصرى عنه وأنجاهه ،
انغذت طريق إلى الداخل دون أن ألقى إليه بكلمة أو نحية .
ودفعنى حب الاستطلاع لأن أنلفت خلقى فتوحلت جميع

الزميلات «لا استثناء يلوحن له بالتحية ويتضمن له ،
ووجدته يرد عليهن بالتحية مبتسما . . واختفيت داخل الدار
وأغلقت الباب ورائي .

دخلت الدار وأنا غاضبة حزينة . . فقد أحست لأول
مرة بالغيرة وكرهت نفسي لأنني كنت السب في كل ما حدث .
علام كل هذا التعذيب . . والخوف ؟ ولم أسكرته
وتجاهلته وتجهمت له ؟ ما ذنبه ؟ وماذا فعل ؟ وما ذنبي أنا
أفعل بنفسى كل هذا ؟

وقضيت ليلى قلقة مسعدة . . شاردة الذهن . . مضطربة
معدبة من فرط ما أجهدتى المقاومة .

وفي اليوم التالى علمت أن المشرفة التي كانت تصاحبنا في
عربة المدرسة قد شككت الزميلات إلى الناطرة . . وأن
الزميلات جميعاً - بلا استثناء - قد اعتذرن عما أتته من
تحيات له وابتناسات بأنه . . قريبهن !

وعندما عدت إلى البيت وجدته يجلس مع أخي . . وحيد
ببساطة كأن لم يحدث منى شئ . . وفصصت عليه ضاحكة . .
ما حدث للزميلات وقلت له إن يتهن فتات حبيبات تصلح
أية واحدة منهن لتحقيق آماله .

ولقد أبأني بعد ذلك أن أحدثي هذا عن زميلاتي قد

صدمه وخيب آماله .. فقد كان حائراً في سبب تحولى عنه
واقفاني عليه .. وكان يتلف على أن يعرف ما إذا كنت
أحبه أو لا أحبه .

هذا الإقبال منى .. وترك يدي له في السينما .. والسير معه
في الليس .. والجلوس على حافة الساقية .. ألا يحزم كل هنا
بأني أحبه ؟

ولكن هذا التجاهل والإعراض وعدم الالتفات على لقائه
ألا يحزم أيضاً بأني لا أعيره اهتماماً وأنه عندي غير
ذو موضوع ؟

وأخيراً .. هذه الطريقة الباردة التي ملقيت بها تحيته
للفتيات . وقولي إن بين فتيات جيلات يصلحن له .. كيف
أقول ذلك .. إذا كنت أحب ؟ أهنالك حب بلا خيرة ؟
وهكذا - كما قال لي بعد ذلك - حطمت آماله .. وضيعت
أمانيه .. وعادت إلى حجرته بالمليس يائساً ملثاعاً .

يا لحناقي !! علام كنت أعذب نفسي وأعذبها ؟
ولم يكن هو - من ناحية عزة النفس - قد تغير عما كان
وهو صبي .. وبدأ لي أن كرامته وكبرياه أعز عليه من حبه ،
فقد بدأ يحزني هجرأ بهجر وإعراضاً يعارض .. فكيف عن
زيارتنا تماماً . ومرت بي أيام ضيق كنت أخلو فيها إلى نفسي

في الشرفة فأحس بعبء يجثم على صدرى .. وينصر قلبي ..
فلي الحزين الملتاع .. المفرق في يؤسه ويأسه .. المعن في
وحشته ووحشته .

واستيقظت ذات صباح وأما أشعر بتأقل في الرأس ..
وهبوط في الجسد .. ولم أجد في نفسي القلعة على انهوض
للذهاب إلى المدرسة .. فاستمرت راقدة في الفراش .
وقيل الظهر أحسست برجفة تسرى في بدنى .. وخيل
إلى أن حرارة تشع من جسدى ووضعت مقياس الحرارة
في فمى فإذا بها مرتفعة ارتفاعاً يخشى منه .
وتملكنتى قشعريرة .. وأخذ بدنى يرتجف كأنى في قر
ضربة وسألهم أن يدفعون ويدفونى بالأغطية .
وظفروا ما بي أغلوزا .. وتناولت بضعة أسبرينات .
كانت تفلح في تهدئة الحرارة مؤقتاً .. ولكنها لا تلبث حتى
ترتفع مرة ثانية .

وفي المساء حضر الطبيب وفحصنى ثم مز رأسه .. وقال
إنه لابد من تحليل الدم .

واستمرت الحى تلهب الجسد طول الليل وأخذت الرعشة
تسائنى .. وإحساس بالزمهرير يشتد .. رغم أن لبردم يكنى
قد بدأ بعدد .. فقد كنا على ما أذكر في منتصف نوفمبر .

وقيل الفجر شعرت بالحرارة تهدأ... والرجفة تزول .
واستغرقت في نوم هادئ استيقظت منه وأما أحسن بأني
قد أبليت مما بي .

وجلس في فراشي هادئة الحرارة . . منتظمة الأنفاس ،
بلا رعشة ولا تشعيرة . . وإن كنت أحس أن جسدي مارال
متعباً مكثوداً .

وأنت ، جدتي ، فضمتني إليها في حنان . . ووضعت يدها
على رأسي قائلة :

— الحمد لله . . أنت اليوم أحسن كثيراً . . إنها كما قلت
انفلونزا . . ألم أقل لك لا تجلسي في الشرفة . . فقد برد
الجو ولم يعد صيفاً ؟

ومضت ووعدها ألا أعود إلى الجلوس فيها بعد ذلك . .
وأقبل عليّ أبي وأخني ليطمئنا عليّ . . وقال أبي في طمأنينة
لصلامة :

— لا تتركي الفراش حتى نطمئن إلى نتيجة التحليل .
وأجابت جدتي :

— ليس بها شيء إن شاء الله . . لقد كانت انفلونزا
خفيفة وزالت عنها .

— على أي حال ، يجب أن تستريح في الفراش .

وتناولت إبطاً خفيفاً ، وجلست في الفراش الهو
القراءة ، ولكنى لم أقرأ ، بل كانت القراءة عندي مجرد
ثبيت عيني على الصفحات ، أما الذهن فلم يكن يعنى شيئاً ، لقد
كان منطلقاً في بيداء أوهامه .

لم تكن حتى اللمبة الماضية قد تركت لي سبيلاً إلى التفكير
فيه إلا في لحظات خاطفة . ولكنى لم أكد أحسن بالهدوء
وأحلد إلى الراحة ، حتى وجدتني لا أستطيع أن أفعل شيئاً إلا
التفكير فيه .

قمت نفسي : إني يجب أن أحمد الله على هذه القطيعة ،
وأن أحاول أن أقتلع مشاعري نهائياً ، وأن أستمز في قسوتي
مع هذا القلب العريس حتى ينسى ، وحتى يعود الوحدة
والوحشة مرة أخرى .

كنت أقول : إن ، أحمد ، — ما دمت أنوى الاحتفاظ
بحرية مشاعري — هو أول إنسان يجب الاستعاضة عنه ، لأنه
صائدي وسحائي ، وهو لا أحد سواه الذي سيبدد وثاقي ويلقي
بي إلى هاوية الحب .

هذا ما كنت أقوله لنفسي ، وأحاول أن أقنعها به ،
ولكنني كنت أسمع الإجابة تأتي من باطني ، كأن القلب يتخف
في حلق وغيط : أي وثاق وأية هاوية ؟ أنت منافقة كاذبة . .

اعترفى بأن تلك الهاوية هي الحياة الحقة الضرة المزدهرة . .
لاعترفى بأن لوثاق قد شدك من اليبداء المقفرة حيث الفراغ
والدم وألقى بك إلى الرياض المورقة الظليلة . ماذا نخشون من
الحب ؟ حب إنسان فورم الخلق جميل القلب . أمناك خير منه
تختارينه زوجاً ؟ أعار عليك أن تحبي زوجك المقبل ؟

ويدولى أن إعراضه وهجره وطول الفرة وشدة الحنين
قد أصعفا مقاومتي ، فقد شعرت في حديث القلب لذة ومتعة
ووجدته منطقياً معقولاً ، لم يصعب عليّ الاقتناع به

وتنميت أن يأتي ، ويجلس بجوارى على الفراش ،
ويحدثني حديثه العذب الطلي فيقطع به وحشتي ويزيل سأمي .

وظهرت نتيجة التحليل فكانت سلبية ، واستيقظت في
اليوم التالي وأنا أحسن أن صحبة معافاة ، فصمت على الذهاب
إلى المدرسة .

وذبحت إلى المدرسة وقضيت معظم اليوم دون أن أشعر
بشيء . حتى أرسك اليوم أن ينتهي فإذا بأحسن جثة بالرجفة
تعاودني وبأن قديمي لا تقويان على حملي . وارتفعت على أحد
المقاعد كأني جثة هامدة .

وحملت إلى بيت حملا ، ووقدت في فراشي ، وأنا

أرتجف مقرورة ، وجسدى يلتهب من الحرارة .
وتلفتني جدتي ، فزعة ، مرتاعة ، وحضر الطبيب ففحصني
مرة أخرى . وقال بعد الفحص : إنه يشك كثيراً - رغم
سلبية التحليل - أنني مصابة بالمalaria ، وأمر بإعادة التحليل
وبالأعادر الفراش إلا بأمري ، وأن أتناول الأسبرين .
وبدأت أعالج من مرضي على أنه ملاريا ، وأثبت التحليل
للمرة الثانية .. أنني فعلاً مصابة بالمalaria .. وأخذت الحى
المنقطعة تعصف بنفسى وتذبل جسدى ، وأحسست والمرض
في أشده أنى قد أضيعت خطاها .

ولم تكن الآلام التى أعانها مجرد آلام جديدة ، فقد
بدأت أحس والمرض يتقاتل على آلاما نفسية خفية ، مشوها
شعورى أن أحمد لم يأت لمرضى ، ولم يفكر مرة واحدة في
زيارتى وأما طريحة الفراش .

قد يكون له العذر - في مبدأ الأمر - أن يرد على سوء
معاملتى بمنزلها وأن يحزنى صداً بصد وهجراً بهجر .
ولكن أيجوز له .. وأنا مريضة ، أهذى تحت سطوة
الدا .. أن يستمر في إعراسه .. ولا يفكر في الحضور
للاطمئنان على ، والسؤال عى ؟

ما الذى فعلت به .. حتى يقسو علىّ إلى هذا الحد ؟

ومتى ينوى السؤال عني؟ أبعد أن أموت؟
أهذا هو الحب؟ أترأى كان في حبه جاداً مخلصاً؟ أم أن
مافعله لم يكن سوى مجرد تسليية وتضييع وقت؟
وأحسست بالألم يعتصر قلبي، وأنا أحجب نفسي: أحل
لاشك أنه كان يلهو

ولكن من أدراني أنه يحبني؟ لأنه لم يقل قط أنه يحبني .
وبدأت أستعرض تصرفاته معي ، محاولة أن أستخلص
منه حقيقة مشاعره نحوي . أيجبني أم لايجبني؟

وهكذا تطور الأمر ، فبدلاً من حيرتي في حبه له .
وترجعتي بين أن أحبه .. أو لا أحبه .. أصبحت حائرة في حبه
لي .. هل يحبني .. أم لا يحبني؟

إني - بتطور - أسباب حيرتي - قد أصبحت أسد
جدلاً بأنني أحبه ، ولم يعد هذا الأمر - كما كان أولاً -
مبعث قلق وحيرتي .. بل لم أعد أفكر قط في أن أقاوم
حبه .. أو أتمسك بالمجود والبرود .. لقد ذك المرض
والوحدة والهجر مقاومتي دكاً عنيفاً ، وجعلها أثراً بعد عين
واتصرت القلب في معركة الأولى انتصاراً عنيفاً .. وبت ،
وأما طريقة الفرائش ، أتلهف على حضوره .. وصمت ألا
أحاول بعد ذلك تكرار إساءته ، بل أعتذر إليه وأؤبه على

قسوة ردة... وتتعاب وتتصافى وتبدأ معاً عهداً جديداً ،
عهداً يقوم على الحب العميق ، والإخلاص الأبدي .

ظللت أنتظره يوماً بعد يوم ، حتى تجاوزت حظورة
المرض ، وأوشكت أن أتأمل إلى الشفاء ، دون أن يحضر ،
وكنت في بعض الأحيان ، عندما يشتد لي الحزن ويمصف
بنفسي الضيق ، أوشك أن أسأله عنه ، أسأل جدتي أو أخي
وأصرخ فيهم : لم لم يحضر ؟ أين هو ؟

ولكني كنت أجن عن ذلك . . بل إنني لم أك أجسر
-ني على أن أكون بادرة بذكره ، خشية أن يؤثر الشكوك
حولني وخشية أن أنهم بأنهم يأتوا أهدأ .

وفي ذات يوم ، وقد أبللت من المرض ، وأضحييت في
دور النقاهة ، جلس أخي يتحدثني عن بعض ما رأى وما سمع
ويروي لي الأخبار لتسليتي ووجدته يقول في معرض الحديث :
- لقد قابلت ، أحمد ، اليوم ، أمام سينما رويال ، وأبناؤه

بمرضك . ويبدو لي أنه لم يكن على علم من قبل ، فقد دهش
وأبدي أسفه واعتذاره لأنه لم يحضر لزيارتك للاصطحاب عليك
وقال لي : إنه لو لم يكن قد دعا بعض جيرانه إلى السبيل ، لعاد
معي وقدناك إلى البيت ، ولم يكذبهم حديثه حتى حضر مدعووه
وعرفني بهم : فتاة وأخوها ، كان زميلاً لنا في الثانوية ، يدعى
« محمود عبد الرحيم » .

— والفناء تدعى ابتسام ؟

— أجل .. أتعرفينها ؟

— رأيتها ذات مرة .. صرداء العينين ، فاحشة الشعر ،
مائلة إلى السمرة .

— أجل .. هي كذلك .

ونفض أخى تاركاً لى بساطة ، وكأنه لم يفعل شيئاً .

وأنى له أن يعرف أنه بقوله هذا الذى لم يتجاوز خبراً
بسيطاً تافهاً ، قد أشعل فى قلبى الملهوف نيراناً آكلة ؟
أنى له أن يعرف أنه قد أزل طبابة الأمان وألقى القبلة
فى وجهى وانصرف ؟

أنى له أن يعرف أنى كنت كوماً من وقود ينتظر الشر ،
وأنه - بحسن نية - قد أحدث الشر فى الوقود ، وولى الفرار ؟
أنى له أن يعرف حقيقة مشاعرى وأنا انى كثيراً ما أعلنت
قله ! كترانى بأحمد ، ولم أترك فرصة تمر ، حتى أطهر عدم
اهتمامى به ، وإقتالي من شأنه ، حتى أبني عن نفعى ما قد يكون
بعته فى نفوسهم نحوى .. دون أن أدري - من الغيبات .
لقد كنت أخشى أن أكون كالمرتب يكاد يقول خذوني ..
فكنت دائماً أقول : لا تأخذوني ، لا تأخذوني بشبهة الحب .
أنى لسكين أن يعرف أنه قد صرعى بقوله .. ليتفرق
بى قليلاً ؟

وتملكنتي ثورة جارفة، كأتى لم أكن بالأمن أتصل
من حبه، وأعلن برامتي منه .

لقد تناسبت كل ما كان من مقاومتي وتجاهلي ومبادئ
العقيدة عن الحب وم أعد أشعر سوى أزعاشقة مبهضة غيري .

أمعقول ألا يكون قد عرف بمرضى حتى الآن ؟
وهبه لم يكن قد عرف . . ألم يكن من الواجب عليه أن
يحضر إلى بمجرد أن وصل إليه الخبر ؟

أيصح أن يرحل بجيئه إلى لى يشاهد السينا ، ويتندر
عن زيارتي لمصاحبة لا بتسام ؟

أجل . . ابتسام . . هى علة قلبي ، والسوس الذى ينخر
فيه ، والجرح الذى يدميه .

لم يضائق نفسه بزيارة مريضة ؟ أليست مراقبة ابتسام
إلى سينما أمتع من زيارتي ؟

ومن يدري ؟ ربما كان يجلس الآن بجوارها وقد وضع
كفه على كفها ، وأخذ يناجيها بأصابعه كما فعل معي ؟
لشد ما كنت حقا مخدوعة مغرورة .

وفاض بنفسى الأسى ، وبث ليلتي بحومة القلب ، مقروحة
لجن ، مسهدة العيتين ، وقضيت ليلة أسود من ليالى المرض .
واستيقظت فى الصباح محطمة مهتمة ، وجلست فى الفراش

شاردة الدهن، غاربة البال، تسألني جدتي عما بي فأجيب لاشي..
ودقت الساعة العاشرة عندما سمعت جرس الباب يدق ،
وصل إليّ من أسفل صوت جعلني أنفض في فراشي ،
وأخذ قلبي يدق بعنف ، ويخفق بشدة .
لقد كان هو .
لقد أتى أخيراً .

ورغم كل ما اتباني من سخط وغيظ ، ورغم ما حاولت
أن أعد من وسائل الغضب والتجاهل وعدم الاكتراث ..
وجدت القلب قد نسي كل ما به من حزن وغضب ، وإذا به
قد خذلني ، وعفا عه وغفر . ومسه من صوته ما يشبه السحر
فصفق بين الضلوع ، وهما بين الحنايا .

وسمعته يسأل عني جدتي ويعتذر لـإليها في صوت آسف
بأنه لم يعرف قط أنني مريضة ، لأنه لم يتقابل مع ، علي ،
منذ مدة طويلة ، إذ كان علي سفر في مأمورية .
ورحبت به جدتي ، وصحبته إلى حجرتي ، وأقبل عليّ
وهو يتسم ، ومدّ يده لمصافحتي ، لحيتته بفتور .

وغادرتا جدتي ، وحملت لها في نفسي هذا التصرف ،
إلّا واقع أن مرضي أظهر لي لطفها عليّ وفرط حبا لي ، فقد
أرثني من التدليل ما كانت تصجم عنه محافة أي ، وبدا لي أن

صرامتها وحزمها كانا متصنعين متكلفين ، وأن ما أظهرته
ليس من طبيعتها بل كانت تفعل ما أمرها به أبي حتى لا تفسدني
بتدليلها .

دخلت معه في الحجرة وجلس على حافة فراشي ينظر إلى
صامتاً ، وكنت أبا أنظر إلى السقف وقد كسوت وجهي مسحة
خضيب ، ومضت فترة صمت طويلة ، قطعها بقوله في لوحة
حزينة وفي صوت خافت :
- أنا آسف جداً .

وأجبتته بقلّة أكرات دون أن أنظر إليه :
- علام ؟

- على مرضك وعلى عدم زيارتي لك في خلاله .
- ألم تكن على سفر ؟ . علام الأسف إذا ؟
- لم أكن على سفر ، هذا مجرد عذر .. وكان يجب أن
أحضر إليك حتى ولو لم تكوني مريضة .

وزادت لمبجى حدة وأنا أقول له بحدة فيه :
- وما الذي منعه من الحضور إذا ؟
- أنت .

- كيف ؟

- عودتك إلى سابق مجاهلك ، وسخافاتك الصبيانية .

كنت أحصر فلا «فيني» . لم أشك في أنك لا تودين حضوري
أو على الأقل لا بهبك حضوري . حكمت على نفسي بعدم
الحضور ، في الوقت الذي كنت أتمرق شوقاً إلى رؤيتك ،
ولكني مع ذلك لو عرفت بمرضك لما استطعت إلا الحضور
كما فعلت الآن . فقد حضرت ، رغم علمي أنك لا تودين
حضورى ، أو أن زيارتي لك لن تسرك .
— كان خيراً لك ألا تحضر ، فوفقك آئمن من أن تضيقه
في زيارتي .. إن السفينة أفضل .

— السفينة ١٤

وقلت بصوت ملوؤ المرارة :

— أجل .. السفينة .. وابتسام

— ابتسام ؟ .. ما لها ابتسام ؟

— ألم تكن معها في السفينة بالأمس ؟

— أجل .. لقد دعوتها هي وأغاثا رداً على دعوة

سابقة منهما .

— وما الذي جعلهما يدعوانك إلى السفينة ؟

— وماذا في ذلك .. ثم ماذا كان يوسعي أن أفعل ..

أرفض الدعوة ؟

ووجدت نفسي دون أن أشعر أصبح به بحدة وغضب :

— أجل .. ترفض الدهوة .

وبدت على وجهه دهشة استطعت أن ألمح بها ابتسامة خفية وقال :

— لو كنت أعلم أن ذهابي معهما إلى السينما سيغضبك لما ذهبت ، ولكن لم يخطر ببال قط أنني أتمتع بمركز في نفسك يؤهلني للغيرة . ألا تذكرين يوم أن أشرت لصديقك بالتحية فأنبأني أنت نفسك أن منهن فتيات جميلات يصلحن لأن يكن ليلاي ؟

— كان ذلك فيما مضى !

— والآن ؟

ونظرت إليه ثم خفضت بصرى وتشاغللت بالبحث بأصابعي في غطاء الفراش . وأحسست بأصابعه تنسل فتشأبك بأصابعي . وضغطت يده على بدي برق .. وعاديهنسي متسائلا :

— والآن ؟

— والآن أصبحت مخلوقة أخرى .. كنت أنلهف على حبيبتك وأنا تحت سطوة الداء .

— أنا آسف جداً .. لم ألم تنبئني من قبل ؟ لقد أضينيني ولوَّعت قلبي .. وعذبتني بالوساوس والشكوك .. لم فعلت كل هذا ؟

— كنت حقاً .. كان بي خوف وخشية .

— من ؟

— منك .. ومنهم .. ومن أقوالهم وسخريتهم .. إني أكره
أن يعرفوا .

— لن يعرف أحد .

وهكذا اعترف كلانا للآخر ، بأن يتنا ما لا يجب أن
يعرفه غيرنا ، أما ما هو هذا الشيء ، فذلك ما لم يحرق أحدا
على الإفصاح عنه .

وعاد يقول في همس حنون :

— أن تحبيني بعد ذلك ، ولن تنكحني عهدك ؟ أأدع
قلبي يهدأ ويطمئن ؟ أوافقك أنت من قلبك ، ومن مشاعرك ؟
— كل الثقة ، لن يكون في حياتي - إلى الأبد - سواك .

° ° °

كيف جرت على أن أقول كل هذا .. أنا الجامدة الباردة ،
الحية الخجول .. الساخرة من الحب .. الملحذة به .

يا للظروف التي تبدل النفوس وتغير الأحوال وتجبرنا
على أن نركل مبادئنا ، ونسحر من أقوالنا . وبيا للقلب الراتع
النشوان ، الثقل العريد ، لقد أخذ يهفو مترنحاً ويصفق طرباً .
كيف لا .. وقد انتصر على .. وهزمني - في أول جولة -
شر هزيمة .



فی عجیب سے القبل



ذلك الصباح بداية حبنا .. فقد كنت أشعر أنى
لم يكن بدأت الحب - رغم عدم اعتراق به لنفسى -
قبل ذلك بزمان طويل .. منذ أن جلست فى الشرفة أول مرة
بعد تخرجه .. ولكنه كان بداية الحب الصريح المتبادل ..
وبدأ به عهد وميثاق جعل كلا منا ملك صاحبه ومالكه ..
وجعلنا شريكين فى الأمانى .. متفقين فى الآمال والآراء
والرغبات ، وفرض على كل منا للآخر الواجبات ، ومنحه
الحقوق .

وأماح لنا دور النقاة فرصة ذهبية للقاء .. فلم ينب عن
ذهن جدنى وتجربتها أن أحمد ، خير وسيلة تساعد على نقاى
وتدخل السرور إلى قلبى .. فكانت تلح فى دعوته للحضور
وتلح فى بقاءه إذا ما حاول الانصراف ، وكان قلبى يفيض
بشكر لا أستطيع الإصاح عنه .. فقد كانت فى استدعائه
واستبقائه كأنها تتحدث بقبى لا بلسانى ، وتستجيب بداء
نفسى .. النداء الذى لم أكن أجسر على إعلانه .

ولم يكن أبى يلقى أحمد ، كثيراً ، فقد كان غالباً يحضر
فى فترة غيابه .. وفى المرات لنى كان يلقاه .. لم يكن يدولى
أن وجوده يضايقه ، فقد اعتاد ألا يرى فيه أكثر من طفل

لا خوف علىّ منه . . أو من بئرى . . ربما كان يتعاصى من
أجل مرضى .

وسمح لي بالخروج . . ولم تمنع جدتي في أن يصطحبني
أحمد ، في زواجات قصيرة بين المزارع ، وكان يأتي إلينا عقب
الغداء فيجدني في انتظاره . . وكان شهر ديسمبر قد حل .
وبدا الجو يميل إلى البرودة ، وأضحي السير في الشمس مستحبا
وتمتعاً ، فكنا نبدأ سيرنا في دائرة تبدأ من البيت إلى شارع
الملك ، إلى الجامع ، إلى الطريق الموازي للسراي . . والذي
سرنا فيه أول خطوات غرامنا . . حتى نبلغ الساقية القديمة ،
أو مكان اللقاء المختار ، فنجلس على حافة السور المهديم ، كما
جلسنا أول مرة ، متشابكي الأيدي ، قريرى الأعين ، داعى
الأنف ، نسبح من حيناً في عالم نسجت ألوانه من قوس
قزح . . ونرسم خطوط المستقبل ونشيد قصوره .
آية سعادة كانت تغمرنا وقتذاك ؟

لم يعيا الناس في تفسير السعادة . . وكيف يتساءلون
ما السعادة ؟ سلوني عنها . . فقد خبرتها رماً . . خبرتها هي . .
هي . . لا وهم ولا حلم . . سعادة نقية مضافة تتدفق من معين
لا يغضب ويبع لا يحف ، لم تعب قط في الحصول عليها ، ولم
تكف شيئاً ، فقد كانت تفيض من باطننا وتنبع من قلوبنا .

كنا ملون الكون وننمقه ونزركشه ونكلكه بزهور من
أوهامنا . . لم نر قط فيه شيئاً باهتاً ، أو مظلماً . . كنا نورق
الشجر وننضر الزهر . . كنا نبعث في أجماد حياة وفي الحياة
سحراً رائعاً .

أى سحر كان بالطريق الخالي والساقية المهجورة ؟
كم من خلى القلب مرّاً بالطريق فلم يحركه فيه جارية ولم
يثر به حساً . . طريق ليس به ما يميزه عن غيره من الطرق ،
يقوم على جابه سور ، وعلى الجانب الآخر مزارع ، وتقوم
الأشجار على حافته ، ليس به من سحر غارق أو معجزة كبرى .
انذهبوا إليه ، وأبثوني ، إذا كان بلغت نظركم فيه شيء !
والساقية المحطمة والسور المهدم . . خبروني من منكم
سحرته ساقية خربة ، أو توقف ليعن فيها بصره ؟
ومع ذلك فما زلت أذكر الطريق والساقية كأنها أشياء
غير كائنة في أرضنا هذه ، بل كأنها منشآت سماوية وماطر
علوية ، وكأنني بالطريق طريق الفردوس ، والساقية بابه ،
وعلى هذا العباس كما تبصر كل ما حولنا : نفس الروعة
ونفس السحر .

أيبيكم بعد ذلك تفسير السعادة ؟
ابحثوا عنها في طريق خال ، أو في ساقية مهجورة ،

في الماء ، أو في السماء .. فوق الرب أو في بطن الأرض ، فن
يصيكم إجماعها ، مادامت قلوبكم وطمى ونفوسكم صبة عاشقة .
ابحثوا أو لا تبحثوا فستبحث هي عنكم وتجتو صاغرة
تحت أقدامكم .

° ° °

وهكذا أخذنا نستر سعادتنا من الهواء .. من مجرد
الحديث والظر ، وتشابك الأصابع ، وتلامس الأيدي .
إذا تلافينا فكلنا أعيى .. وإذا اقترنا فكلنا تذكر .. حتى
حدث أول حادث إجماعى ، وذف أول قبلة .

لم يكن يخطر ببال قط أنني قد أقف ذلك لموقف أبدي
أقرأ عنه في القصص وأراه على الشاشة البيضاء ، وما كنت
أفكر قط أن الجرأة يمكن أن تصل إلى حد الإغراق
في نشوة قل ، بل كنت قانعة بما أماغه كل القناعة ، لا بدور
بمجلدى أن هناك في الحب شيئا أمتع مما حصصا عليه .

كانت مبادئ الأولى مارالت تتحكم في رأسي ، وكنت
مازلت أتيه خجولا ، لم تجر على إساق كلمة حب ، ولم يحول
قط أن تتناجى أو تفعل كما يفعل العشاق ، بل كانت كل
أحاديثنا جادة عن بيتنا المقبل ، وعن أولادنا ، وعن
المطبخ ، وعن الحديقة .

وحدثت بينما أول خلوة في الدار .. خلوة قصيرة ،
أتاحتها الظروف ولم أحاول أنا منعها .

كان ذلك يوم جمعة .. في يوم من أيام الشتاء . وكانت
الساعة تقرب من العاشرة ، وقد خرج أبي وأخي ، وذهبت
« جدي » لطبيب الأسنان ، وجلست في الدار وحيدة ..
وانهمك الخدم والطباخ في أعمالهم .

كنت أجلس متكاسلة في أشعة الشمس على مقعد مريح
(فوتيل) وقد أخذت أقلب صفحات إحدى المجلات عند ما
أحسست جفاة يدين توضعان على عبي رفق وكأني بصاحبهما
يهتف مازحاً .. من أنا ؟

ولم يتكلم صاحبهما .. خشية أن أعرفه من صوته . ولكني
لم أكن في حاجة إلى أية مساعدة للتعرف عليه .

لم أكن في حاجة إلى سماع صوته .. أو حتى من يده . فقد
كنت أعرفه بوحى قلبي .

وقلت له ضاحكة :

— ليتني تمنيت شيئاً أحسن !

— أحسن مني ؟ أمناك شيء أحسن مني ؟

— طبعاً !

— مثل ... ؟

- قطعة لادن ، أو برطمان مستردة . .
- أنه يحفظك . . ظننت نفسي ذا قيمة !
- وهل هذا يقلل من قيمتك ؟ أم لا تدرك مركز برطمان المستردة في نفسي !
- مركز ممتاز ؟
- جداً . . أموت فيه !!
- بعد الشر عنك وعن برطمان المستردة . . إنى لا أكن له إلا كل حب . . رغم أنه من عواذلى .
- عواذلك من هذا النوع كثيرون ؟
- وأنت أيضاً لك عواذلك من نفس النوع ، الحرقاء . .
- مثل . . ؟
- سلطة الطحينة ، والكشري أبو جبة بمية الدقة . .
- اتحبها كثير ؟
- جداً .
- إنى أحضج ، لقد جعلت لك عواذلى من نوع محترم ، ولكك هويت بى إلى أسفل سافلين . . إن المستردة أرقى كثير أ من مية الدقة . .
- مية الدقة ، من فضلك ، بفتح الدال ، لا تكونى

جاهلة حمقاء كأولاد الدوات .. يجب أن تكوني مددقة .
 إن .. مئة الدقة ، ستصبح في المستقبل من صميم عملك .. هي .
 والكشري أبو حبة .. لا بد أن تتعلمي صنعها من الآن ،
 وإلا اضطرت لأن آكل في المطاعم .
 — أتقدم المطاعم وكشري بحبة ؟
 — طبعاً .
 — مطاعم الشعب ؟
 — لا .. مطاعم الملوك والأمراء .
 — يجب أن تتعلم من الآن أن تحب ما أطهى لك .. لأن
 أطهى لك ما تحب .. فاهم ؟
 — أمرى إلى الله .. عين الرضا عن كل عيب كيلة .

وساد الصمت .. ووجدته ينظر إلى نظرة أحسبت منها
 بشيء من الاضطراب والارتباك ، وإن كان اضطراباً لسيذاً
 وارتباكاً متعاً .

وكنا نجلس على مقعدين متباعدين .

هل لكم أن تعذروني في محاولتي وضع تلك التفاصيل
 الثاقبة والمحاورات الصيانية التي لا أظنها إلا حدثت بين كل

عاشقين ؟ هل لكم أن تحتملوني بعض الشيء . وأما أنقل
عليكم بها ؟

احتملوني أرجوكم . . ف دفعني إلى ذكرها إلا إحسامي
بلغة من ذكرها ، ومتعة من اجتارها .. إنها ذخيرة التي أحيا
عليها . . إنها زادي في طريق مقفر أجذب .

إني أنجيل الحجره أمانى ، وقد امتدت بها الأريكة الطويلة
وتوسطتها المنضدة الزجاجية ، ووضعت عليها رهبة مملوءة
بزهرة القراوة البيضاء ، وفي ركن الغرفة منضدة أخرى مرتفعة
وضعت عليها آنية نحاسية وضع في داخلها أصيص من الفوجير
وعلى الحائط فوق الأريكة عكفت لوحة زينة تمثل راعي غنم
قد وقف أمام بئر .

وفي الجانب الآخر وضع مقعدان كبيران قريبان من
النافذة جلس هو على أحدهما وجلست أنا على الآخر .

قلت إن نظراته سببت لي ما سميت ارتباكا لذيذا . . فقد
كانت فطرة معجبة فاحصة حارة هني ، وروحتني أنهض على
أثرها لأغادر الحجره مدعية أني سأعطى بعض أوامر للخدم .
وأعطيت فعلا بعض أوامر للخدم ، ثم ذهبت إلى حجرتي
ووقفت أمام المرأة . . لقد كان هذا هو ما نهضت من أجله ،
وهو الرغبة في الاطمئنان على مظهرى . . عقب تلك النظرة

الفاحصة . لقد كنت أريد أن أرى كيف أبدوله .
وكنت أرتدى بلوزة من التريكو وكحلية اللون ، مقفلة
الياقة ، قصيرة الأكمام ، وجيب كاروهات من الصوف
الاسكتش .

وكنت بطبعي أميل إلى النحافة ، ولكن البلوزة
أظهرت صدري بحيث بدا بارزاً بشكل ملائي بقليل من
نخيل وكثير من طمأنينة ، فقد كنت أدرك بشعور المرأة
أن هاتين الكرّتين هما أمضى أسلحة المرأة ، وأشدّها فتكا ،
وبدا لي خصري ضيقاً وجسدي مستقيماً متناسقاً ، وكان
شعري مفروقاً من النصف ، وقد أحاطت حلّكاته بوجهي
فأظهرته مصبباً كما كان هو يقول لي . فقد كانت هذه الطريقة
في تصفيف شعري محببة إلى نفسي ، وعدت إليه وقد ملأت
مضى الثقة وأردت الجلوس ، ولكنني لاحظت أن المقعدين
قد ملاصقاً بعد أن كاه متباعدين ، ونظرت إليه نظرة متهمّة
متسائلة ، ولكنني وجدته متشاعلاً في قراءة المجلّة التي كنت
أقرأ فيها . . كأنه لم يفعل شيئاً ، وكان المقعدين قد تقاربا
من تلقائهما .

وابتسمت في خبيث ، ورأيت يرمقي نظرة متسلّطة من
طرف عينيه . . فلم يكن مني إلا أن أعدت مقعدي إلى مكانه

وجلست ، ولكن لم يستقر في المقام حتى وجدته قد قذف المجلة
وقفز من مكانه فاستقر بجانبى على مسند مقعدى ، وقال ضاحكاً :
— حسناً . أتأكل أنا . مادام مقعدك يأتى إلا صداً .
وقلت له مشيرة بأصبعى كأتى أزهر طفلاً صغيراً :
— كن عاقلاً ، رعد إلى مقعدك .

وهز رأسه بإصرار وعناد وأجاب :

— الوقت الذى أستطيع فيه أن أكون عاقلاً ، وقت غير
محدود ، لقد مضى على ثمان وعشرون عاماً كنت خلالها فى
تمام العقل ، ودارال فى العمر بعمى ، أستطيع أن أتمتع فيها بعقلي
كما أشاء . أما الآن فليس من العقل أبداً أن أكون عاقلاً . إن
العقل الآن شئ غير مستحب . يجب أن يتنحى عنا قليلاً ، يجب
أن يبطل عمله ، ويخلد إلى الراحة ، وإلا أضاع العمر سدى ..
لا . لا . لست مجنوناً حتى أوافق على أن أكون عاقلاً .

ولم أستطع أن أمنع نفسى من الضحك . ورفعت بصرى
إليه وحدثت وجهه بطل على وقد شاعت فيه ابتسامة مشرقة
ونظرة حالة تمنية ملائمة لنشوة ومتعة ، وأحسست يده تمس
رأسى فى رفق ، وأصابه تعب فى شعرى . فأصابتنى من مسه
ومن نظراته رجعة سرت فى جسدى .

لم يقل لى : لانى أحبك ، وخيراً فعل . فكلمة : أحبك ،

كنت أستغلها وأعتبرها بمجوعة مبتذلة ، وكنت أعتقد أن
أبغض ما يفعله محب لكى يعبر عن حبه لمن يحب هو قوله :
«أنا أحبك» .

لم يقل «إلى أحبك» ، ولكن عينيه وشفتيه وأصابه
وكل جراحة فيه ، كانت تنطق ضارخة «إلى أحبك» .
هذه أشياء تحس قبل أن تسمع ، فالمشاعر تسرى من
الفس إلى الفس كأنها شعاع مضى . إنها ليست فى حاجة إلى
أقوال تظهرها .

أطرقت برأسى وأنا أحس اضطراباً شديداً ، وعاد إلى
خوف القديم من الحب ، وعواقبه . . وصمت على ألا أترك
نفسى تزلق ، وأن أمتلك وأتملك ، وأن أقاوم كل متعة ،
وأن أدع زمام نفسى بغلت متى .

ورفعت بصرى مرة ثانية ، فوجدته ما زال يسلط على
من عينيه تلك النظرة الحادة التى تذيب نفسى وتتركنى على
وشك الانصهار أو التخلل .

كيف المقاومة؟ أأكسر وجهى مظهر الغضب وانفجور
وأمره بأن يعود إلى مقعده؟ لا أظنها طريقة مثلى ، لأنه إما أن
يفضبه شورى . وأنا لا أريد إغضابه ، وإما أن يزيد التمع
رغبة ، ولا أظنى لو زادت ديبته قيد أنملة ، أستطيع المقاومة .

إذا .. أدعى البرود ، وأريه أنى جامدة لا أثار .. فيصبيه
الفتور والحجل فتخمد عواطفه ، وأكون بذلك قد انتصرت؟
لا تضحكوا على ولا تسخرُوا مِنِّي .. فما خدع الإنسان
مثل نفسه . لقد كنت أحاول أن أحد لغسي فتوى أنال
بها ما حرّمته عليها ، وما أبرع الإنسان في إيجاد الفتوى
والمبررات وفي التلف والدوران .. لقد كنت أتلف على
ما أجمع منه .. كنت أريد وأختي .. فحاولت أن أفر من
الخطر لأعود إليه من طريق آخر .

أجل لقد صدمت على أن أبدى له الفتور وقلة الاكتراث ،
وأريه أنى متمالك عواطفى ، وأننى لا أقصد زماي بسهولة .

كنت لا أشك حقاً .. ألسنت إنسانة ١٩ وحاشقة ١٩

لنظر ماذا كانت النتيجة ؟

نظرت إليه وقلت له بهدوء :

— ثم ماذا ؟ ماذا بعد جلستك هذه ؟

ولم يجب . بل انحنى برأسه وهو ينظر إلى نظرتي الخنون
اللين ، وأحسست بلهجة أنفاسه يلفح وجهي ، وبشفتيه تقربان
من شفتي وتحمها مساً خفيفاً .

وتمالكت فسي ، وبقيت كما أنا ، لا أحرك ساكناً ،
وكان لم أحس به ولا بشفتيه ، وقلت له بمتى الحدود :

— لا فائدة .. إلى مخلوقة جامدة الإحساس .. بارده
المشاعر .. حير لك أن تقبل تمثالا من القليل .. فمن تحرك
في من المشاعر أكثر مما تحرك فيه .

ولم تصبه كلباني بفتور ، أو تراجع .. أو نطلي .. منه
الحرارة التي تشع من عييه ، أو للهب الذي كان يستمر في
أنفاسه .

ومن العجب .. أني لم أحس بخيبة أمل .. رغم أن هذا
كان فشلا دربعاً لخطي التي انتهجتا للمقاومة ، ولكني — كما
قلت لكم — كنت أخدع نفسي ، وعلم الله ماذا كان يمكن
أن أحس به من البرادة لو قد أصابه الزجاج والمتور هبلا .
ظلمت أقول له إنني لا أحس ولا أشعر .. وأن جامدة
باردة ، وظل هو يمس بشفتيه شفتي .. حتى أحسست كأن
الكلمات أخذت تذوب في فمي ، وأن صوتي بتلاشي رويداً
رويداً .. كأنما قد فقدت قدرتي على الطوق .. أو كآتي
قد حققت بمحدر .

ولم أنبس بكلمة .. بل وثاقف جفائي .. ولم أعد أشعر
إلا بشفتيه حارتي على شفتي .. وأنفاسه مختلطة بأنفاسي ،
وبلاوعي ، ولا إرادة .. وجدت ذراعي .. ذراعي أنا
— المخلوقة الباردة التي لا تحس — تحيطانه برفق ، ثم تضمانه

يكل ما ملكت قواي ، وأغمضت عيني .. وورحت في نشوة
ممتعة .. وحلم جميل .

وافترقت شفتانا برهة .. كي تنالك أنفاسنا .. ثم عادت
الشفتان إلى لقائهما أحر وأعف .. ومد يده وأخذ يتحلى
بأصابه شعري .. ويتجسس وجهي في حنان شديد .

وانقلنا إلى الأريكة وجلسنا في ناحية منها ، وجلست
بحواره مسندة رأسي إلى صدره . وبين لحظة وأخرى تلتقي
شفاهنا .. كأننا نهمان صاديان .. لا شبع من جوع ..
ولا نروى من ظمأ .





الطبقة الأولى

٧



ذلك الشتاء .. شتاء ١٩٣٨ .. أهنأ أيام حياتنا ،
سهرهم فقد هيا إلى المرض من الحرية والتراخي والتدليل ،
ما لم أمنحه من قبل .. وما كنت أحس أنني في أشد الحاجة
إليه .. بعد أن أصابني حميا الحب .. وأتملني نشوته .

ولقد حاولت جهدى — بعدما أعطيت من حرية نسبية —
ألا أندفع في استعلاها خشية أن أفصح نفسى .. وحاولت
كذلك أن أتمسك بأهداف الرزاة والتعقل ، وألا أظهر قط
أمام الأهل أنى أكن له إحساساً خاصاً .. أو أن أظهر
أن ما بيننا يتعدى صلة القرابة العادية .

ونجحت في ذلك إلى أبعد حدود النجاح .. فقد كنت
أنتع بقسرة عجيبة على السيطره على مشاعرى ، وعلى كبح
جراح نفسى .. وعلى تصنع الهدوء وقية الاكتراث .. حتى
أكون بمنأى عن الشكوك والأقوال .. وبقيت أحفظ
أمنهم بمجمود مطهرى وبرود مشاعرى .. ولم ير أحد من
أهلى فى دأحمد ، أكثر عما كان دائماً — ابن خالنى وصديق
أخى — اللهم إلا جدتى التى قد تكون أحست بميل إليه ..
ولكنها لم تر فى ذلك أمراً سكرأ .. فقد كانت تحب دأحمد ،
وتبس فيه نبل الخلق ، وطيبة القلب .. وكنت أحس أنها

تراه زوجاً ملائماً ، ولا تجد - من ناحيتها - مانعاً من
أن نصبح زوجين سعيدين .

وهكذا ظللنا على النهل من حبنا بأناة وروية .. نرشف
من منبعه رشفة رشفة .. ونحتس من كأسه قطرة قطرة ..
دون أن يشعر أحد بأن في الدار قيساً وليل .. وأن قيسهما
يستمران بيران الهوى ولهب الحب .

واستمرت الساقية المهجورة معبدنا المقدس .. فنحلس
اللحظات لكي نخرج إليه فنحلس فيه متشابكي الأيدي .. بسانينا
صمت ، وبحشائنا حنين ومتأجاة .

ومر الشتاء وأعقبه الربيع والصيف ، وانقضى على حبنا
عام أحسننا في خلاله أنه لم يعد لأحدنا غنى عن صاحبه ..
ولم أكن أتصور أنني أستطيع أن أتخذ سواه شريكاً لحياتي
إذ لم أكن أحس له مجرد حب ، بل كنت أشعر أن كلامنا
جزء متمم للآخر وأنه مني .. وأني منه .. وأما سكوت
وحدة واحدة لا يمكن فصلها .

وحل موعد سفرنا إلى المصيف بالأسكندرية . ولأول
مرة أحسست بكرة للأسكندرية ، فقد توقعت خلال الرحيل
فرقة طويلة ، لأنه لن يستطيع الحصول على أجازة طويلة ..

ولن يكون الذهاب إلى الاسكندرية بالمتبر له إلا في فترات
متقطعة خاطفة .

ورحلت إلى الاسكندرية ، وبنفس ضيق ، مجرد ضيق
لا أكثر ، فقد كانت شدة إيماني بحبنا ، وثقتي في مستقبلنا ،
تجعلني لا آبه كثيراً لمرقة مؤقته ، ولا أحزن لغيبه إلى اللقاء
مصيرها وميتها .

ونزلنا هذا الصيف في فيلا نعمة ، واستبدلنا بها كايبتنا
في شاطيء . وجليم ، أخرى في « سيدى بشر » ، فقد كان المال
يتدفق على أبي الاحساب ، وثروته تتضخم وأعماله تزايد .
وأحسست أننا بدأنا نندمج في وسط جديد . . الوسط
الاستقراطي الرقيق . . المتكبر المتعالى . . الملتوى اللسان ،
الناطق بغير الضاد .

ولا أكتمم القول أنى كنت أحس لهذا الوسط الجديد ،
من أهل السمو والرفعة والدولة والمعالى والشرف والوجاهة ،
كثيراً من الرهبة . . فقد بدا لي - رغم ثراء أبي - أنى شئ
أقل من هؤلاء ، وأن أصلى ونشأتى أخفض مستوى وأقل
شأناً . . مهما قيل عن ثرائنا الآن فإنى أحس أنى كنت من
الطبقة الوسطى ، ولم أنس قصد أن أبى كان مقاولاً دخل
محدود ، وأنه لا يحمل من الشهادات غير الفنون والصنائع ،

ولا أنسى كذلك أن ، جدتي ، فلاحه أصيلة .. ذات وشم
أخضرت في ظاهر يدها ، وأنها لا تعرف القراءة والكتابة ،
ولا تستطيع نطق الكثير من الألفاظ الشائع استعمالها .
حقيقة أن أبي قد أضحى بابا ، ولكنه بابا « بالدراع » ،
لا بالأصل ولا بالنشأ ، فما كان لنا عرافة أصل ، وما عرف
تاريخ عائتنا من قبل هذه الرتبة الرفيعة .

وحقيقة أنني ربيت تربية حسنة ، وأني لم أحس قط منذ
مولدي أي محرومة من شيء ، وأنا لا أفتبر محدثي نعمة ،
أو أثيراء حرب ، ولكنني مع ذلك لم أستطع أن أمتنع ذلك
الوهم الذي داخل نفسي وجعلني أشعر بالتضاؤل إلى جوارهم .
كيف لا ، وأنا أجد أن ثلاثة أرباع من حولي .. هم
هؤلاء الذين تنشر الصحف صورهم ، وتروي أخبارهم ..
وتقص سكناتهم وحركاتهم ، وتقول إن فلاناً لقي فلاناً ..
وإن فلاناً لعب الطاولة مع فلان .. وأن هذا شوهده يسير
بمحاور هذا .. كأنهم كواكب يتوقف على حركاتهم مصير
الكرة الأرضية .. وبقاء المعمورة .

لقد كان عملي في بادئ الأمر هو أن أجلس بمحاور ..
في ركن « الكاين » ، وأرغب الناس وأقص الوجوه المحيطة ،
محاولة التعرف عليها من صورها التي رأيتها ، ولم يكن يعملو

الامر من أن ألقى صاحبة لي في المدرسة أو أحد المقرئين لي
من الأصدقاء ، فأقطع الوقت بالحديث أو السير معهم .
وفي ذات يوم كان أبي يجلس معنا في « الكاين » ورأيت
ينفض من مكانه ويحني رجلا تبدو عليه سيما المهابة والعظمة ،
لم يكن وجهه غربياً عليّ ، وسميته يساديه بدولتك . . . ولم
ألبث بعد قليل فخص وتذكر أن عرفت فيه أحد أصحاب
الدولة السابقين .

وسأله أبي التفض بالجلوس . . . وتقدم الرجل إلى
« الكاين » ، ونهضت لتحيته . وجلس يسامر مع أبي ،
ويطرقون الحديث عن بعض الأعمال .
وعندما نهض « صاحب الدولة » للانصراف ربت على
كتفي وسألني ضاحكاً :
— لم تجلسين وحدك هنا ؟ ألم لا تأتين لزيارة « نونو »
و « سوسو » ؟

وقال أبي مبتسماً :
— إن شاء الله تزورهم يا باشا .
ولم أجد في قول أبي سوى مجرد رد ، ولم أحاول طبعاً
تنفيذه لأنني لم أكن أشعر بكثير طهفة على معرفة « نونو »
و « سوسو » ، فقد كان إحساسي بالتضاؤل إلى جوار هذه

الطبيعة .. تجعلني شديدة الفجور منهم ، وكنت إلى جانب هذا
متباعدة عن الناس .. أميل إلى الانطواء والوحدة بطبعي
وبطبيعة نشأتي وتربيتي .

ولكنني مع ذلك وجدت أن الظروف قد أرادت
أن تعرفني بهم ، وقررت أن ترج بهم في محبط حياتي .
فقد أنبأني أبي بعد بضعة أيام أنه قد دعا دولة زكي باشا ،
وعائلته ، إلى تناول الغداء معنا .

وبدأنا الاستعداد لاستقبالهم .. وقام البيت على قدم
وساق .. كأن حدثاً خطيراً يوشك أن يقع .. ولم أر أبي
يهتم بأمر قدر اهتمامه بهذه الزيارة الجليلة .

كنت أعرف أبي جيداً ، ولم أملك أن أهر كتنني وأنا
أنحرك في الدار غادية رائحة كأم العروس « فاضية مشغولة » .
وأقول لنفسي : أغلب ظني أن « صاحب الدولة » المتقاعد ،

يوشك أن يصبح « صاحب دولة » عاملاً .. إن أبي لا يضع
تعبه سدى ، أو من يدرى ؟ ربما كانت المسألة مجرد تشرف .

وقيل الساعة الثانية وقفت أمام باب الفيلا عربية فخمة
من أحدث طراز ، وخرج أبي لاستقبال الزائرين ، وسرت
وراءه أتتبع خطاه .

وبدأت ألخصهم وهم يجتازون الحديقة واحداً واحداً .

« دولة الباشا ، يتقدمهم . . بعصاه ومنظاره وطربوشه المائل
على أحد حاجبيه وتامته الفارعة ومنظره المهيب ، وبحواره
أنى ينسم بحياً ، وعلى يمينه شاب متأق أصفر الشعر ، أبيض
البشرة ، متورد الوجنتين ، أحمر الشفتين ، أميل إلى السمعة . .
وبحواره فتاة في مثل سى نحيفة الجسد ، طويلة القامة ، بها
شبه كبير من أيها لا يكاد يميزها عنه سوى بروز خفيف
في الصدر والردفين . . وأحمر الشفاه . . و« الفستان » طبعاً .
وقلت لنفسى :

— هذه لا شك إحدى الـلاثتين . . توتو أو سوسو . .

حرى لم تحضر الفتاة الثانية؟

واقربت منهم بحية . . ورد الأب نحبنى مرحباً ، وقام

بهمة التعريف بينى وبين ولده وابنته قائلاً :

— أهلاً وسهلاً منى ولزىل عابده .

ثم أشار إلى ابنه اللامع المتورد :

— ابنى . . توتو .

وإلى ابنته الطويلة انجيلة :

— بنتى . . سوسو .

إذا فـ« توتو » هو ابنه . . ذكر لا أنثى !

لست ما نعد عنى الاسم . ولكن معهم الحق . . فهو فى تأخه

« وحفظته ، أحق باسم «توتو» من غيره من أسماء الرجال .
وأجاب الشاب والفتاة على قول أبيهما بالحماء خفيفة
من رأسيهما . . ومسة من كفيهما لكنني الممدودة المفتوحة
وقالا في لهجة أرستقراطية :

— انشائي .

ثم قال « توتو » لأخته باللغة الفرنسية بلهجة رفيعة
لدقة الراء :

— يجب ألا تنسى دعوة الأنسة عابدة إلى حفلة
سان استفانو .

وأجابته أخته :

— طبعاً . . لا بد من دعوتها . . لقد أحضرت معي
تذكرة خصباً لها .

ودخلنا إلى حجرة الصالون وجلسنا برهة نتحدث ريثما
يستريح الضيوف ويشربون « شيئاً » .

ولم يكن أبي قد تمود الشرب . على الأقل في البيت .
ولكنه في هذا اليوم خرج عن مألوف عادته . . وأعد بضع
زجاجات من الويسكي احتفاء بالضيف العظيم .
ودخل أحد الخدم يحمل بضع كؤوس .

وشرب الباشا ، صاحب الدولة ، . . والباشا ، أبي ، . .

ولم أرى هذا عجبا ، ولكن العجب الذي أصابني كان عندما
رأيت الشاب والفتاة يشران بمنتهى البساطة ، . أمام أبهما
وأبي ، وكان المسألة ليس فيها مدعاة لتب أو خجل .

وسألني توتو بك : لم لا أشرب ؟

وأحسست أن أي تمسكه بالخرج ، وأنه يمني لو كنت
قابعة في غرتي دون أن أختلط هذين الأرستقراطيين .
وأجاب هو نيابة عني بأني لم أعود الشراب .
ولم تظل جلستنا في حجرة الاستقبال ، ثم نهضنا إلى
حجرة الطعام والتفطنا حول المائدة .

وتحدثت مع الفتى والفتاة . . وأقول الحق أني أصبت
بصدمة من حديثهما . . وأدهشني أن أجدهما على هذا القدر
من السخف والتفاهة ، وبدأت أحس بالتضاؤل الذي كنت
أحسه إلى جوار الطبقة الرفيعة يتبدد ويتطاير . . ويحل محله
إحساس بالكبرياء والتعظيم .

كان أول ماسألني : توتو بك ، هو قوله بالفرنسية :

— هل سمعت آخر تانجو ؟

وأجبت بالعربية وبني شبه أسف :

— لا . . إنني لم أسمعه .

— خسارة . . تانجو عظيم جداً .

— وما رأيك في أسطوانة «جيف مى يور ليس» ؟
وفهمت أنه يعنى بالعرية أغنية «إعطى شفتيك» . .
وهزئت رأسى وقلت بنفس اللهجة الأسفة :
— لم أسمعها أيضاً .

ورفع الفتى حاجبيه تعثراً من جهل المطلق وقال :
— عجيبة ! لم يخطر ببالى أن أحداً لم يسمعها . . لقد بيع
منها فى نيويورك وحدها نصف مليون أسطوانة . . وقال
«موريس شيفاليه» نفسه إنها أبداً ما سمع .
وتملكنى الحجل ، وخشيت أن يوجه إلى سؤالاً عن
أسطوانة أخرى . . أو «رومبا» حديثة . . يزيد بها جهلى ،
فأنا لم أسمع قط أسطوانة أفرنجية .
ولكنى وجسته يسألى سؤالاً أقل إحراجاً . . سؤالاً
أستطيع على الأقل الإجابة عنه :
— ما أحب الأدوار إليك ؟

وبلا إرادة ولا تفكير ، تذكرت أغنية «ردت الروح»
وتذكرت جلستنا على الساقية المهجورة . . و «أحمد» يمدن
الأغنية بصوته الخنون ونبراته الهادئة ، وتملكنى نشوة
وأجبت قائلاً :

— «ردت الروح» !

وكانت المناقشة بيننا تجري بطريقة عجيبة ، فهو يشكك
بالفرنسية ، وأنا أجيب بالعربية ، وكنت أستطيع بالطبع أن
أجيبه بالفرنسية ، ولكنني لم أكن أجدها داعياً ، مادام هو
يعرف العربية ، وأنا أعرف العربية كذلك .

ووجدته يردد قولي بلهجة أشبه بلهجة الإفريج عندما
ينطقون العربية ، واستمر يرددها ويتساءل :

— ردّت الروح . . ردّت الروح !

ثم التفت إلى أخته يسألها :

— كس کی سنا .

وهزت أخته كتفها وهي تزدرد الطعام فقد كانت مثله لم
سمع عن شيء اسمه « ردّت الروح » .

وأصابني نفس الخجل الذي أصابني من جهلي بآخر فأنجس ،
بدلي أن من العار أن أعرف « ردّت الروح » ، أو أذكرها
للعظام .

وقلت مفسرة حتى أداري خجلي :

— « ردّت الروح على المضني ملك » . إنها قصيدة من

روع ما نظم شوقي ولحن عبد الوهاب .

وانطلقت من صدر صاحبنا آهة تذكر ، وقال في لهجة

لا تغلر من الاستخفاف والاستهزاء :

— أغنية عربية ؟

وقلت وأما أخفض بصرى كأنى قد ارتكبت ذنباً :

— أجل ، أغنية عربية .

— لا.. لا.. إني أقصد أغنية من الأغاني المتعدية .. إني

لم أحاول قط أن أسمع أغنية عربية .

وأحسست بالغضب يغلي في عروقي وتمنيت أن أصفه

ولكن لم أرد أن أسبب لأبي كارثة ، وقلت له متسائلة بنفس

لهجته المستخفة :

— ولم ؟

— إن الموسيقى الشرقية تتوتر لها أعصابي .

— ألم تسمع لعبد الوهاب شيئاً ؟

وهزّ رأسه بالنفي .

فسألت مستفصرة :

— ولم تقرأ لشوقي ؟

واستمر يهزّ رأسه متبرّحاً من التهمة .

وعدت أسأل :

— ولا قرأت للنفلوطي ؟

وانطلق يقهقه كأن النكتة قد أسففته ، وأجاب في شيء

من السخرية والاستهزاء :

— منفلوطى ١٩ أما لم أسمع إلا عن «المان ، المنفلوطى .

وأجبت في كثير من النهم :

— الحمد لله . . إلك تعرف شيئاً مصرياً ، حتى ولو كان

«المان» . .

— أما أكره كل شىء مصرى . . هذا الشعب ما زال

شعباً بدائياً . . أمامه قرون حتى يصبح شعباً متديناً . . شعب

«القول المدمس ، والطعية» . .

ولو قال لى أحد غير هذا الأبله ، ذلك القول . . لكان

محتلاً . . ولتركته يذهب مع الريح . . ولما ترك فى نفسى

أثراً يذكر . . أما أن يقوله ابن صاحب دولة . . وإنسان

يحتمل جداً أن يصبح فى هذا الشعب المسكين ذا شأن

وذا خطر ، وقد يدفعه القدر المشوم إلى أن يتولى منصباً

من مناصب الدولة ، ويصبح إنساناً مسئولاً عن مصير هذه

الامة النعمة .

أما أن يقول هذا الكلام مثل هذا الإنسان . . وأن يكون

رأيه فى المصريين مثل هذا رأى . . وحديثه مثل هذه اللغة . .

فقد جعل دى يغلى فى عروقى .

أهذه أفكارهم عن أمهم ؟ . . أمثل هؤلاء الخنثيين من

أبناء الكبراء سبني مصر بجدها وتقيم سؤدها . . هؤلاء

الذين تثير أعصابهم الموسيقى الشرقية .. والذين لا يعرفون
من الدنيا إلا آخر رقصة ، وآخر أغنية « لموريس شغاليه ،
ولا يهتمون إلا بأحدث « موضة » للأزياء .

هؤلاء الذين يتحدثون عن الشعب المصري كأنهم ليسوا
منه .. الذين يتبرأون من « الفول والطعمية » كنهاسية أو معرة .
وتذكرت « أحمد » ، وتذكرت مصريته الحقة ، وتذكرت
« الكشري أبوجبة » ، و « مية الدقة » ، وتذكرت حماسه
للجيش .. وحماسه لمصر .. وتميت لو استطعت أن أجتر
أمامه وأقبل قلبيه .

هذا الرقيع الجالس بجوارى ، قد أعطاني نموذجاً للطبقة
العليا .. أستغفر الله .. بل الطبقة السفلى الرقيقة المدللة
ونظرت إليه ولم أدر ماذا أقول له .. أألعن أباه .. أعنى
« دونة أبيه » .. أم أتركه وأذهب إلى حجرى ؟

ولكن ماذا يقول أبى ؟ ليس أمامى سوى أن أمثل
لإرادة الله .. وأظل أستمع إلى آرائه الرقيقة المتعالية ، حتى
ينتهى من تناول الطعام .

ولم أستطيع إلا أن أفرح عن غيظى المكبوت .. بتصور
ماذا يمكن أن أضله فى تلك الطبقة السفلى .. أولاد الذوات
لو كان الأمر يدي .

وتصوّرت نفسى حاككة بأمرها في هذا لبلد .. وأنى
جمعت كل هؤلاء الرقاء المرمين المنعمين .. انتهى الألسن
الذين يربأون بأنفسهم أن ينزلقوا إلى هاوية الحديث باللغة
العربية .. والذين لا تشفق آذانهم سوى الموسيقى الغربية ،
ولا يحتمل مزاجهم الرقيق سوى « التانجو » و « الفالس » ..
والذين يتفخخرون بمسبة الشعب المصرى ويتبرأون منه ..
ويحطون من قدره ويسمونّه : شعب « النور » والطمعية » .

تصوّرت نفسى وقد جمعت هؤلاء الرقاء .. وشددت
وناقهم وألقيتهم عرابيا في أحله ميادين القاهرة .. وأمرت
بجلدهم كل واحد مائة جلدة « على الماشى » .. حتى أجعلهم
لا ينطقون بالضاد فحسب .. بل يتأوهون بالضاد .. وأعلمهم
إذا ما جلسوا فيما بينهم أن يتكلموا العربية .. ثم أضع في
أرجاء الميدان « ميكروفونات » لتذيع غناء « محمد العريق » ،
و « الشيخ محمد صبح » .. حتى أجعل مزاجهم يخشوش ..
وأنفسهم كل ما يعلون عن « وشمى حردبى » ..
و « جيف مى يورليس » ... وأجعلهم يشهدون بأعلى
أصواتهم « يا حلوه ياربه » و « يا عم دانا غريب » ...
و « يا نجف القوام » .

ثم أتركهم بعد ذلك يعبثون خمسة أيام على « العيش

الخاف ، . . حتى يشتهوا ، الفول والطعية ، .

وهكذا استطعت بتلك الأفكار والنصيرات أن أفرج
عن كربى وأن أسرح بعض الشيء فأتخلص من سماع هراء
ضيفنا وأخته .

وعدت أنظر إليه وهو يحدث أباه بالفرنسية فأحسست
بالرثاء له . . وعدت أقسام :

• ما ذنب هذا المسكين فيما أحصى عليه ؟ وما ذنبه في ذوقه
وأفكاره . . إن المسئول هو : صاحب الدولة ، نفسه .

المسئول الأول هم الآباء الذين ترفعون عن التربية
المصرية ويدفعون بأولادهم إلى المدارس الأجنبية .

المسئول هو : صاحب الدولة ، . . الذى لم يؤمن بتعليم
دولته ، وتربية دولته . . فلجأ إلى المدارس الفرنسية
والإنجليزية يستجديها تعليم أولاده وتربيتهم .

ما ذنب الأبناء المساكين وقد نشأوا نشأة أجنبية بحتة ؟
نشأوا في بلادهم ، وهم غرباء عنها . . فبذ نعومة أظفارهم
قد تولت أمرهم مربية أجنبية — وهذا لاشك من دواعي
نفرهم وخر ذويهم — فلما شبوا ألحقوا بالمدارس الأجنبية
ففضحت على عقولهم ، وصبغت نفوسهم . . وغبرت أذواقهم

ولوثت ألسكارهم ، فترفعوا عن أمنهم ، وتعالوا على شعبهم .
ما ذنبهم إذا كانوا لم يتلقوا من الثقافة العربية كفايتهم ؟
ما ذنبهم إذا كانوا لا يعرفون شيئاً عن الشيخ « محمد عبده » ، ولا
يعيزون بين « عبد العزيز البشري » و « خان الخليلي » ؟
ما ذنبهم إذا كان أهلهم نخورين بأجنبيتهن ؟ ما ذنبهم إذا
كانوا لا يجيدون الحديث بالعربية . . كما لا يجيدونه بالفرنسية
أو الإنجليزية ؟

ما ذنبهم إذا كان أبوفهم لم يحزنه أن يرأى كذلك ؟ . .
وعدت إلى نفسي مرة أخرى على صوت « توتو بك » ،
بقول لي :

— هل تعلمت الرقصة الجديدة ؟

— ولا انقديمة .

— أنت لا ترقصين ؟

— أجل .

كيف ؟ هذا أمر غير معقول !

— ولم لا !! إني لا أحب الرقص .

— لا تحبينه ؟ هذه مسألة من ضروريات الحياة . .

كلاكل والشرب . . كيف تعيشين بلا رقص . لا . لا . لا بد
أن أعلمك الرقص ، سأعتبر نفسي مستولاً عليك منذ الآن .

ولم أدر بماذا أجيبه .. ولكنني فضلت ألا أدخل معه في
مناقشة فقلت له :
— إن شاء الله .. سأحاول تعمله .

وانتهت تلك الزيارة على خير ، وتنفست الصعداء وأنا
أودع العائلة الأرستقراطية وأعدم — وأبي - برد الزيارة .
وبدأ لي بعد ذلك أنه لم يعد هناك مقر من توطيد العلاقة
بيننا ، وبدأ لي أيضاً أن أبي في علاقته الجديدة ، حائر قلق ،
فهو راغب فيها ، كاره لها .. راغب فيها لأنه يهدف من علاقته
بصاحب الدولة إلى غرض معين من ناحية العمل .. ولأنه
— كما كنت أتوهم من قبل — يرى هذه العلاقة منعة للفخر .
وكان كارهاً لها لخوفه على منها ، فقد أدرك مدى خطورتها
على ، وأفرعه من أولاده صاحب الدولة ، مسألة الرقص
والشرب .. وهو الذي .. طالما ضيق على الخناق .. وقسا
في تربيتي .

وكنيت واقفة أن أبي لن يسمح قط بما يقصد عليه تربيتي
وبما يضيع طول مجهوده معي ، ولو كنت أستطيع أن أحدثه
بصراحة لطبأت قلبه ، وأظهرت له مدى احتقاري لتلك
الطبقة الرفيعة ، ومدى نفوري منها ومن أسلوبها في الحياة

ولقلت له .. إن لدىّ درعاً يقيني غوائلها .. ويجعلني أصد
كل شرور الحياة ومفاسدها .. وهو حبي ، لأحمد .. وعزى
على الاقتران به .

ولكن .. هل أجسر أن أقول هذا ؟

ولم يجد أبى هناك وسيلة يمسك بها العصا من الوسط ..
فبقى على علاقته مع الأب .. ويحبنى شرور الأبناء .. إلا أن
يقصر علاقته على الرجل نفسه .. فيلبى دعوته وحده ويستند
عن عدم حضوري بالمرض .. وبلح إلى .. أنه لا يرغب في
أن أترقب هؤلاء الأولاد ، المفاسيد ..

ولم أكن في حاجة إلى نصحه بالطبع .. فقد كنت أنا
الراغبة فيه .. وقلت لنفسي : « بركة يا جامع .. وصمت
على أن تكون زيارتهم لنا .. هي أول وآخر علاقتي بهم ، وأن
أتهرب منهما قدر ما أستطيع .

واستطعت فعلاً .. أنت أتهرب منهما .. فقد جعلني
« توتو بك » (استطعت بعد ذلك .. أن أعرف .. أن اسمه
« تهاى » لأن أمه كانت تود لو كان بنناً .. فأطلقت عليه هذا
الإسم .. رحمة الله .. فقد استجاب الله دعاءها) .

أقول إن « توتو بك » جاءني بضع مرات يدعوني .

الذهاب معه إلى د سان استغاثو ، ، أو إلى زيارتهم .. ولكنى
كنت أعتذر دائماً بالمرض .

وذهبت ذات يوم إلى « الكاين » .. وجلست على إحدى
الأرائك .. أراقب الناس طوراً .. وأتشاغل بالقراءة طوراً
آخر .. وجأة وصل إلى أذنى .. صوت محدود ملحن ..
يصبح بى :

— بونجود عايده .

وتلفت .. فإذا به « توتو » .. وقد سار مع صاحب له
على شاكلته .. وقتين .. ترتدى كل منهما « مايو » من
الساتان .. قد شدَّ على الجسد وانحصر عن الساقين .. حتى بدت
الفتانان أشبه بالعاريتين .
وأجبت على تحيته بهدوء :

— بونجود يافندم .. إزاي سوسو ؟

وانطلق « يرطن » بالفرنسية .. رافعاً كل كلفة .. كأننا
أصدقاء العمر :

— لقد عثرت عليك أخيراً أيتها الهاربة :

— إني آسفة لأنى كنت مريضة فلم أستطع أن ألبى دعوتكم .

— لا .. لا .. أنت تلبينة مكسالة .. لقد أقسمت أن

أعليك الرقص . وما قد أمسكت بك فلن تفلقى من يدي .

والنفت إلى أصدقائه مستدركا :

— نسيت أن أعرّفكم ببعض . عابده هاتم . ابنة مصطفى
ماشاء عبد الرحمن . وصديق « برى » . . وأخته « ميمي » .
وصديقتهما « كاميليا » .

وأخبرت رأسي قاتلة :

— قشرفنا يا فتيم .

وتتم الباقي بعض كلمات بلغات مختلفة . . لم تكن بينها
العربية طبعاً .

وعاد « توتو » يندفع في هذره :

— ما رأيك في أن نبدأ الدرس من الآن ؟

وقدت في دهش متسائلة :

— درس ١٤ أي درس ١٤ ؟

— لا . . أنت تلميذة بليدة لن تفلح معك إلا الشدة .

ثم النفث إلى أصدقائه . . دافساً إليهم داخل السكاكين
صائحاً بهم :

— ادخلوا ! انتظروني برهة . خمس دقائق فقط . سأعود
إليكم حالا .

ودخل أصدقاؤه إلى « الكاين » . . ولم يسعى أمام الامر

الواقع إلا دعوتهم إلى الجلوس .. وبعد خمس دقائق عاد صاحبنا فعلا ، وقد حمل في يده حقيبة « جراموفون » ، وفي اليد الأخرى كيس اسطوانات .

وبلا كلمة واحدة وضع الميكروفون على المنضدة ، وبدأ في إدارته ، واقترب مني قائلا ببساطة :

— هيا .. سأعيلك الآن رقصة بسيطة « فوكس تروت » ، لن تأخذ منا سوى خمس دقائق .. فهي لا تزيد على أربع خطوات : واحد .. اثنين .. ثلاثة .. أربعة .. بسيطة جداً .. كأنك تسيرين .

وكنت أسمع إليه ، وأنا جالسة في مقعدى .. أنظر إليه فظرتى إلى إنسان مخبول .

وهمّ بابت يمسك يدي ، ولكنني نزعتها من يده .. وقلت له :

— أرجوك يا « توتو بك » ، إنى متعبة جداً لا أستطيع النهوض . لقد قلت لك إنى لا أحب الرقص ، ولا أريد أن أتعلله . فأرجوك ألا تضايقنى بالإلحاح .

وهكذا لم أجد ما يردعه عنى سوى « قلة الذوق » ، فقد جدته كما يقول : « يسوق الهباله على الشيطنة » .

وكنت أنتظر أن يهزج أو يحضب ولكنه لم يفعل ، بل

أجابني ضاحكا :

— لن أياس منك أيتها التليذة البليدة .

ثم نظر إلى رفاقه وقال :

— دعونا نرقص هذه الرقصة .

وعاد يوجه إلى القبول :

— يجب أن تستفيدي بالمراقبة .. انبهي خطواتنا ..

فهذا سيفيدك في التعليم .

وهكذا .. ما بين غصنة عين وانباهاها اقلب الكاين .

إلى « باللو » ووجدتني أحلس عن غير قصد مني - بل رغم أني -
في حلبة رقص .

وتملكني خجل شديد ، وغطاني أني لا أستطيع أن أفعل

شيئا لإيقافهم ، وأنى لا أجسر على طردهم .

ووجدت أن خير طريقة هو أن أعادر أبا الكاين ،

وأسير على الشاطئ - برهة ديثا ينتهون من محوهم ، وعصمت

بالهوش فعلا لمغادرة الكاين ، عندما وقع بصري بآفة على
الشخص الذي لم أكن أعتني شيئا كرؤيته .

رأيت ، أحمد ، مقبلا على الكاين ، ، وتملكني من

رؤيته فرحة لجائية .. كادت تدفعني لأن أجرى طرني .

أحضانه .. لولا مسكة من عقل .. ولولا نظرة غريبة
رأيتها في عينه .. نظرة جعلتني أذكر لك المنظر المحيط بي ،
المنظر الماجن والموسيقى الصاخبة والضججكات العريضة ..
التي ألقاها على القدر الساخر .. بلا أى سبب ، وفي اللحظة
المحكمة .. حتى أبدوا أمام أحمد ، - ظناً وعدواناً -
بما أنا أبعد الناس عنه ، وحتى يبدو له أني أشارك هؤلاء
المخبولين رقصهم ومجونهم .

ولعنت الظروف التي ألفت بذلك الحيوان الأرستقراطي
المهووس وأصحابه الحق إلى « لكابين » ، في تلك اللحظة غير
المناسبة ، ولم يسعني إلا أن أتقدم إلى « أحمد » بحية ، معللة
نفسى بأنى سأوضح له جلية الأمر ، وأخو من نفسه سوء النطق
الذي قد يعلق بذهنه .

ولم يلغى « أحمد » بالهفة والخماسة المنتظرين .. وقد صدمه
- كما توقعت - ذلك المضر الذي لم يكن يتوقعه قط ، وفعلت
به الوسوس والطنون فعلها في لمح البصر ، فأبصرت بوجهه
محفقناً بغيظ مكبوت ودهش واستياء ، وخيل لي أنه يقاوم
ثورة غضب تعصف بهلده .

وسألتني في برود :

— كيف حالك يا عابدة ١٦ وكيف حال عمي . . وبينه ؟
بدولي أنك مسرورة ؟

وتحملت بروده وسخريته . . واثقة أنه بعد دقائق
سينصرف الفتية السخفاء . . وأخلو به وأدضح له الأمر . .
وحنى لو لم ينصرفوا . . فبني أستطيع أن أسير به برهة
أوضح خلالها ما التبس عليه قبهه .

ولكن يبدولي أن الظروف قد أثبتت إلا أن تعقد الأمر
وتعمن في مضابقتي . . إذ ما كدت أجيب « أحمد » على تحيته
وأدعوه إلى الدخول إلى « الكاين » حتى لمحت أبي قادماً .

ولم أشك في أن المنظر الصائخب الراقص قد أساء أبي . .
ولكنه استطاع أن يكظم غيظه . . وسلم على « أحمد » وعلى
الفتية الراقصين الذين توقفوا عن الرقص لانهاء الأسطوانة .
وقال « توتو » محدثاً أبي بتمتعي البساطة :

— بونيجور عمي . . سأشكو لك عابدة . . إنها كسولة
جداً . . إنها أبداً تلبينة رأيتها إلى الآن :
وأجاب أبي متضحكا :

— لا . . لا . . سأقرض لك أذنهما ، حتى تكف
عن كسلها .

ونظر إلى .. ووجد أن خير طريقة ينهي بها ذلك
الصنخب ، ويصرف الفتية إلى حال سيلهم ، هو أن تنصرف
نحن .. فقال لي في عجة :

— هيا يا عابدة .. فإني متعجل .. إني أريد أن أتناول
الغداء سريعاً لآتي على موعد ،
وأجبه مطيعة أوامره ؛
— حالا .

وبدأت أجمع الوسائل من فوق الأرائك الخشبية المنبثة
في الكابين .. وأدخلت المقاعد .. ولم ير توتو ، بدأ
من أن يعلق الجراموفون ويحملة متيهاً للانصراف .. وسأله
أبي ليجرد الحديث :

— كيف حال دولة الباشا ؟

— متوعلك قليلاً .

— كيف ذلك ؟ لا بأس عليه .. سأزوره اليوم
لأطمئن عليه .

وأغلقت باب الكابين ، وانصرف الفتية مودعين ..
وسرت وأبي وأحمد متجهين إلى العربية .. وكان أحمد طول
الوقت صامتاً لا يتكلم ، وتميت لو استطعت أن أعجل بالشرح
له ، فقد كرهت أن أسب له حزماً لا أساس له ، ولكني

قلت انفسى .. إن على أن أنتظر حتى فصل إلى البيت ..
فلما شك أنه ستتاح لنا خلوة طويلة .. فأخى قد رحل إلى
مصر ، وحدثي راقدة .. وأبى إما أن يخرج أو ينام .

ودخل أبى العربة ، ودخلت وراءه وأنفست مكاناً
لأحمد حتى يجلس بجوارى .. متوقعة أنه لا بد أن يحضر
للغداء معنا ، ولكنى وجدته يرفع يده بالتحية مودعاً .

وأحسست بقلبي يغوص بين جنبي ، ولم يعد لي من أمل
سوى أن تحدث أنى فيجبره على المحيـة معنا ، فضلاً تكلم
أبى قائلاً :

— إلى أين يا أحمد ؟ ألا تاتي لتناول الغداء معنا ؟

وتمنيت أن يعقل وأن يتروى ولا يعن في غضبه ..
وأن يتيح لي فرصة الدفاع ، ولكى رأيت وجهه تكسوه
ابتسامة مصطنعة وقال لآنى :

.. أنا متأسف يا عمى .. إني على موعد مع صديق
قد دعاني لتناول الغداء .

وتمنيت لو استطعت أن أصبح به متوسلة .. أركب
يا أحمد .. أرجوك .. سأشرح لك كل شيء .. إني مظلومة .
ولكنى لم أجرو .. واكتفيت بنظرات متوسلة صامتة

أصوبها إليه ، ولكنه لم يحاول أن ينظر إلى ...
وتملكني اليأس .. لا سيما وأنى لم أتوقع من أبى أن يلج
في دعونه .. فقد كان قوله مجرد تأدية واجب .. أو كانت
دعوته ، عزومة مراكيه ..

ولكنه مع ذلك كذب على وعاد يقول لاحد :
— ألا تستطيع أن تعتذر له بالتليفون ؟
وبدا لي القول كأنه آخر خيط أتعلق به قبل أن أهوى ..
وتطلعت إلى أحمد متوسلة .

ولكنه أجاب ببساطة قتلنى :
— متأسف جداً يا عمى .. ليس لديه تليفون .
وكنت واثقة أن أحداً لم يدعه إلى الغداء .. وأنه قد
حضر خصيصاً لرؤيتى ، وكنت واثقة كذلك أنه لا يقل عني
لحظة على اللقاء ، وأنه قد لقي الأمرين في سبيل الحصول على
أجازة للحضور إلى ..

وكرهت أن يخلد كلانا .. بلا أى سبب ، وأن يعود
يانساً محزوناً .. ويتركنى شقية ملثاعة .. وأن تغلت من
أيدينا فرصة ذهبية كنا نوشك أن تتمتع بها سوياً بين
البحر والرمال .

وجاء قول أبى كأنه حكم على بالإعدام .

— السلام عليكم .. دعنا نراك يا أحمد .

وتحركت العربية .. وحاولت جهدى أن أقاوم نوبة من
البكاء كانت تعصف بي .. واختفى شبح أحمد .. ورأيت
الكباين والباس والبحر .. وسور الكورنيش ، تتواتر أمام
عيني في سرعة زائدة ، وقد ظللتها طبقة من دمع ترقق
في عيني .

لقد كنت في هذه الآونة أشبه بمحموم اعترته رجفة
ورعدة .. وكنت أستطيع أن أخمن ماذا ظن أحمد بي ..
إذا أبصرت علي مهباء كبرياته القديمة وصلفه وتعبه .
ليته يكف عن كبرياته قليلاً !

ليته تروى واقتصد في غضبه ! ! ليته ترك لي فرصة
للتسام ! !

إنه معذور .. فإني شك في أن ذلك المنظر الذي رآه
في الكاين ، يثير أهدأ الناس أعصاباً .
ولكن ما ذنبى ؟ وما ذنبه أيضاً ؟ !

لقد تملكى وقتذاك حزن مردوح ولوعة مضاعفة ..
لوعة من أجل نفسى الحرمان ، منه .. ولوعة أشد من أجله هو .
فإن حزنه لا شك حزن شديد . حزن يساوى حزنى عندما
أخبرنى أخى أنه شاهدته في السينما مع « ابتسام » .

وكرهت أن أجد نفسي عاجزة حيرى . . . والا أستطيع
أن أعيده إلىّ وأبدد أحزانه وأنهم خطأ ظنه . . . ولكنى لم
أكن أملك إلا الصمت والسكون . . . وإلا أن أتركه يذهب
بلوعته ويفرّتي في أشجاني .
إن شرماني الحب أن المحب يخلق لنفسه أحزاناً لا شبهة
لا وجود لها .





فان

٨



إلى البيت .. وجلسنا حول المائدة وأما شاردة
وصلنا .. تناول الطعام بطريقة آلية دون أن
أبتذوق له طعما .

وبدأ لي أن أتي لم يكن أقل من شروداً .. ولم أشك أن
هناك ما يشغل ذهنه .. واتينا من الطعام .. ونهض كلانا
في صمت .. وذهب إلى غرفته .. وذهبت إلى غرفتي ..
وارتيت على الفراش في ضيق ورأس .. وأخذت أستعرض
في ذهني كل ما حدث ، وأحسست بكره شديد لذلك الرقيق
المختل .. الذي سبب لي كل هذا الحزن .. ورأيت أن خير
ما أفعله هو أن أكتب لأحمد خطاباً أوضح فيه الأمر .

ونَهَضت من الفراش ، وخرجت من حجرتي أبحث عن
ورقة وقلم .. وزعت ورقة من كراسة لأبي فعمود أن يكتب
فيها بعض الحسابات ، وعثرت على قلم ملق في أحد الأدراج
وعدت بهما إلى حجرتي كأنني عثرت على صيد ثمين .

وجلست لأكتب .. وكانت تلك هي المرة الأولى التي
أحاول أن أكتب فيها لأحمد .. أو لفير أحمد .. فسا كتبت
من قبل سوى بضعة خطابات كانت تطلب مني جدتي أن
أكتبها لها لترسلها إلى بعض الأهلين بالبلد .

وأخنت أفكر . . ماذا أكتب له ١٤ وكيف أبدأ
رسائي ١٤ وشعرت أن المهمة ليست بالهينة . . وأني لن
أستطيع بكتاتي أن أقنعه بنفس السهولة التي أقنعه بها فيما
لو كنت أحدثه وجهاً لوجه .

ولم أدر ماذا أقول له : « عزيزي أحمد . . لا تعبر عن
حقيقة موقفه من نفسي . . حبيبي أحمد . . ثقيلة على النفس
وركيكة في الكتابة .

وأخذت أكتب وأشطب . . فكلما كتبت شيئاً وجدت
به ركاكة وضعفاً . . وخيل إلي أنه قد يزيد من غضبه .
آه . . لو انتظر .

آه لو أتاح لي الفرصة . . لكي أحدثه وأشرح له .
بل ما أظنني كنت في حاجة إلى الشرح والحديث . . فقد
كان يكفي أن تشابك أصابعنا ، ونلتقي أكفنا ، وننظر كل منا
في وجه الآخر . . حتى تنسى كل ما أحزننا ، ويغفر كل منا
للآخر كل ما أثار وسأوسه . . فقد كانت أعيننا أطلق بالحس
وأشرح للاخلاص من أفصح لسان .

وملت أخيراً من الكتابة والشطب ، ومزقت الورقة ،
وعدت إلى فراشي متعبة مكسودة . . يجب علي أن أنتظر
شهرًا آخر حتى نعود إلى القاهرة . . فلتقي وأشرح له .

أجل .. إن كبرياءه لن تسمح له بالحضور مرة أخرى
إلى الإسكندرية .. بل عندما أخشى أن نمنعه أيضاً من
الحضور إلى دارنا بالقاهرة .

ولكن لا .. إني لن أخشى ذلك .. لأنى أستطيع أن
أحدثه بالتليفون .. فاقدم سبق أن أعطاني الرقم وسألى أن
أحدثه فيه إذا احتجت إليه .

وأخذت أتقلب فى قلق .. ولكنى أحسست أن باب
الفرقة يفتح .. ورأيت أبى بنادينى :
— عايدته .

ونفضت من الفراش .. وتوقفت أمه سبماًنى عن شىء .
خاص به : علة دواء .. أو زجاجة أسيرين .. أو أى شىء
مما تعود أن يسألنى عنه .
وأجبه :

— نعم .
— تعالى .

وخرجت إلى الصالة .. ووجدته قد ارتدى ملابسه وبدا
عليه أنه يهيم بالخروج ، وقال :
— سأضطر أن أعود إلى القاهرة غداً .. فإن لدى بعض
الأعمال التى تستدعى وجردى فى القاهرة .

ولم يكن هناك أسهل على من أخن ما يحول بخاطره
قد كنت أدري الناس به .. وكنت دائماً أعرف ما ورا
حديثه .

وأدركت ببساطة .. مدى التأثير الذي أحدثه في نفسه
«توتريك» ورقصه ومجونه .. وعلت أن ما كان يشغل ذهنه
أثناء تناول الطعام هي هذه المسألة دون غيرها .. وأنه بات
يحبس من الفتى الرقيق بخطر يحيق بي .. من العسير صده أو
المخلاص منه .. وأن التفكير قد انتهى به إلى أن خير طريقة
للمخلاص هي العودة إلى القاهرة .
وعاد أبي يقول :

— لست أدري ما إذا كنت تودين البقاء .. أم تفضلين
العودة معي ؟ أنت .. وماتشائين .
وكنت أعلم أيضاً ما وراء قوله .. فما كان لي قط أن
أختار ما أريد .. أو أفعل ما أشاء .. بل كان عليّ أنه أفهم
قوله جيداً .. ثم أختار بعد ذلك ما يريد هو وما يشاء .
هل يعقل أن يتركني وحيدة في الإسكندرية .. لو أنني
قد شئت ؟ ولكنني مع ذلك لن أشاء .. فما أظن رغباتنا
توافقت في أية لحظة كما توافقت الآن .
إنه يريد أن أعود إلى القاهرة ، وأنا أشد منه لطفه على

العودة . لقد كنت أشعر أن معجزة قد حدثت وأن هودن قد عاد إلى
القاهرة نجدة من السباه .

لقد اتفقتنا في الرغبة ، واختلفنا في المقصد . هو يريد منى
العودة فراراً من . ابن صاحب الدولة ، وأنا أريد هاراً
من القرعة والبعد والأحزان .

وتبددت من نفسى اللوعة وتطايير الشجن ، وأحسست
بالسعادة تقعم بنفسى ، وأنا أفكر فى القاهرة وأستعرض فى
ذهنى جلستنا فى الشرفة ، ومسيرنا فى الطريق ، ونجوانا على حافة
الساقية ، ووجدتنى أقول له :
— أفضل السفر معك طبعاً .

ولم يكن بردى أى تعلق .

وقضيت ليلتى هاتئة ، فرحة مستبشرة ، وفى اليوم التالى
حزمتنا حثائبنا وعدنا جميعاً إلى القاهرة مبكرين شهراً عما
كان ينتظر أن نمكث فى الاسكندرية ، فقد كنا فى منتصف
أغسطس ، وكنا قد تمودنا مغادرة الاسكندرية فى منتصف
سبتمبر .

وصلنا إلى القاهرة ، ولم يكن هناك فرصة للحديث يوم
الوصول إذ لم يكن قد استقر بنا المقام بعد ، وكان البيت مازال
فى حالة اضطراب .

وفي اليوم التالي استيقظت وبى إحساس المقدم على أمر
خطير . . كنت أمدفح إليه دون رعى . . فلتد صممت على أن
أحدثه فى التليفون ، وكان بى شعور المعامرة ، فماتجرات من
قبل على أن أطلبه .

وانتظرت حتى انصرف أبى وأخى ، وانهمك الخدم فى
أعمالهم ، وكانت الساعة قد بلغت العاشرة . فحملت جهاز
التليفون إلى الطابق السفلى بعيداً عن مسمع جدى . ثم بدأت
أدير أرقام القرص .

ووضعت الساعة على أذنى وأصغيت ، فحملت إلى أذنى
شغل الخط . . فاعدتها إلى مكانها .

وبدا لى أن التليفون قد ركب رأسه وأصر على أن يمعن
فى متابعى وإثارتى . . فلقصد طلبت الرقم على ما يقرب من
عشر مرات وأنا أجده مشغولاً .

وكنيت أخشى أن تضيق الفرصة السانحة ، فرصة خلوى
البيت ، وكنيت أحس بارتباك شدد وغيظ أشد .

وأخيراً .. وأخيراً جداً ، سمعت الحرس يندق فى الساعة
وسمعت صوتاً يجيئنى :

— ألو .

— السوارى ؟

— أفندم .

— أستطيع أن أكلم أحمد أفندي عيد السلام .

— أيهما ؟

ولم يكن لدى أية فكرة أن هناك ، أحمد عيد السلام ،
مواه .. وأصايني الارتياك ولكنني استدركت قائلة :

— أريد الملازم ثاني أحمد أفندي عيد السلام .

— انتظري على الساعة حتى نبحث عنه .

وانتظرت طويلا ١٢ .. ربع ساعة دون أن يجيئني أحد ..
ووضعت الساعة .. وندرت بالصبر .. وعدت أطلد
الرقم مرة أخرى .. وحمدت الله .. أنني لم أجده السكة
مشغولة ..

وتكررت نفس المحادثة الأولى ، ولم أجده بدا من الرجاء
قائلة :

— أرجوك لا تتركني أنتظر على الساعة . إني أريده في
أمر هام .

— سنرسل في طلبه من الإسطنبول حالا .

وبعد برهة أجابني نفس الصوت :

— غير موجود يا أفندم .

— أرجوك بمجرد حضوره .. أن تخبره أن بيت خاله،
يريد في مسألة ضرورية .

ووضعت السماعة في يأس وصيق ، ولم تمض دقيقة واحدة
هن ما كنت أدير ظهري حتى دق التليفون ، ورفعت السماعة ،
فإذا بي أسمع صوته .. صوته هو الذي لا أميز من الأصوات
سواه .

وقال في لهجة لاتخلو من الجفاف والحدة :

— ألو .. أنا أحمد .

ولم أشك في أنه قد ميز صوتي ، ولكنني مع ذلك قلت له
بصوت أشبه بالهمس :

— أنا عايدة يا أحمد .

واستمر في حديثه قائلاً بفتضاب :

— نعم ؟

ولم أغضب لجفافه في الرد .. لأنني لم أكن أتوقع سوى
ذلك .. ولأنني كذلك كنت واثقة أن جفافه مصطنع .. وأنه
لاشك كلفه جهداً كبيراً .. وأن وراء برودة الكثير من
الدهش والكثير من الغبطة لحضورى المفاجئ .. ، ولحديث معه
أو هذا على الأقل ما حاولت أن أنزع به نفسي ، لكي أستقبل
لهجته الجافة .

- وأجبت في لهجة رجاء :
- أريد أن أحدثك .
- فيم ؟
- فيها حدث في « الكاين » .
- هذا الأمر لا يعني .
- لا تكن عنيداً .. دعني أشرح لك أولاً .. ثم اغضب كما تشاء .
- من قال لك .. إني غاضب ؟
- لأنك لم تذهب معنا إلى البيت .
- لقد قلت إني على موعد للعداء .
- إذا لماذا حضرت ؟ ! حضرت لكي تمتك بضع دقائق ؟
- لقد كنت ماراً بالمصادفة .
- أحمد .. أرجوك .. لا تمن في السخفة .. كي ما فعلت في الأسكندرية .
- ما فعلت أنا ؟ .. أنا الذي فعلت ؟
- أجل .. أنت الذي فعلت .. لم يكن همك ط ما يستدعي غضبك .
- أنا لست غاضباً

— إن في صوتك ما ينم عن غضبك .
وهنا سمعت صوت « جدى » تنادى من الطابق الأعلى
فاجتبا بآنى قادمة . ثم قلت لأحمد :
— أرجوك أن تحضر .. ليس لدى وقت للشرح في
التليفون .. إنى سأنتظرك .
ولم يجب على .. فعندت أسأل :
— هل مستحضر ؟
— سأحاول .

ووضعت الساعة مكانها ، وصعدت إلى جدى .
ولست لذكر فيما كانت تريدنى جدى .. أو لعلها طلبت
منى قضاء حاجة من حاجاتها النافهة التى لا تفرغ .
وكان رده سأحاول .. ودأ غير قاطع .. فقد يحضر وقد
لا يحضر .. بل أغيب الظن أنه ربما ركب رأسه واتبع كبريائه
وامتعر فى المجر .

واتابنى خليط من الفلق والعشيق . والامل والبهفة ..
وخطر لى أن أطلبه مرة أخرى .. وهبطت فعلا إلى الدور
الاسفل .. وأنا أشاور نفسى : أخاطبه أم لا أخاطبه ؟
لو خاطبه فقد يزداد عناداً وإصراراً .. ولو لم أخاطبه فقد
يمعن فى غضبه .

ثم ماذا أفعل سوى ذلك !! وهل من سبيل لإحضاره
غير مخاطبتي إياه ، ودعوته للحضور ؟
ودق جرس الباب ، وذهبت بنفسى لأرى من الطارق
فوجدته أمامى .

أجل . . وجدته هو . . الذى ادعى البرود وتمنع
الغضب . . لقد حضر إى بعد نصف دقائق . . كأنما قد
هبط من السماء بالبراشوت .

وكان يبدو أغبر مشعثاً ، يرتدى الحذاء الطويل ، وعليه
بنطلون وقيصر ، ولحيت عربية صغيرة تقف بباب الحديقة . .
أغلب ظنى أنه قد استعارها من أحد زملائه للحضور بها .
ونظرت إلى وجهه ، فوجدت عليه مسحة غضب
مصطعب ، ورغم أنى قد فتحت له الباب ، إلا أنه استمر يقف
خارجة ، وقال لى بلمحة حادة :

— ماذا تريدين ؟

— ادخل .

— ليس لى وقت .

— لا تكن طفلاً . . كف عن هذا العناد . . ادخل
وإلا أغلقت الباب .

ودخل يضرب الأرض بحديد كعب حذائه الضخم . .

ثم وقف في الصلاة واحتماً يديه في خصره وقال متحدياً :

— نعم

وابتسمت . . ثم شدته من يده وانجھنا إلى الشرفة وجلست قبالة .

والتقت عينانا ونحن صامتان فترة ليست بالقصيرة . . وأحسست بالهجوم كلها تذوب بين عينينا . . وأخذت سحابة الغضب تنقشع عن وجهه وبدأ رويداً . . ثم سمعت صوته يمس في حنان :

— لم فعلت هذا ؟ لم سمحت لنفسك بالبقاء وسط هؤلاء الرعاء ، وسط الموسيقى المألجة ، والرقص الخليع ؟
لني أرباً بعينيك أن تنظر إليهم .

— كنت مكرهة . . فلقد هجم هو ورفاقه على الكاين
واحتلوها احتلالاً حاطقاً . . فلم أستطع أن أطرده ، فهو ابن
زكي باشا ، صديق أبي ، ورئيس الوزراء السابق . . ولم
يكن في وسعي سوى أن أغادر الكاين . . وهمت فعلاً بأن
أغادره في اللحظة التي حضرت فيها أنت . . لقد حدثت
للسائلة كلها في بضعة دقائق . . كنت خلالها أشبه بالذهولة .

— وما مدى علاقتك بابن زكي باشا هذا ؟

— تقصد « نوتو » ؟

— اسمه . توقو . أليس له اسم غير هذا ؟

— له اسم شر من هذا . . . تهاني . .

— ماشاء الله ، وما الذى جعله يحدثك هكذا بلا كلفة ؟

— اسمع يا أحمد . لا تضيع وقتنا عبثاً . إني أسمع لك
بالغيرة ، فكل محب لا بد له أن يعار ، ولكنى لن أسمع لك
خط أن تعار من مثل هذا الإنسان النافه . إني أرى بك أن
تقارن به نفسك ، وأربأ بفسى . . أنت تقار على منه . .
إني لا أكن لأمثاله غير شعور واحد . . هو الاحتقار . .
هل فهمت ؟

ولم يتكلم . . بل رفع يدي إلى فمه ومسها بشفتيه في رفق
واستر ملصقها بهما ، وساد الصمت حتى بت أسمع صوت
أنفاسه تتلاحق وأحس بدقتها .

وضفطت على يده ، ووجدتني بلا تفكير أجذب يده
إلى في . . يده هو إلى في أنا . . ووضعت يدي في راحته
وأخذت أحركها يطمه . . مقبلة كفّه قبلات صامتة .
وسمعتهمهمس :

— إني آسف . !

— أما الأسفة !

— على أية حال، لقد أخذت ما أستحق من عقاب .. لقد مضى على يومان منذ أن لقينك في الإسكندرية وأنا أشبه بمحكوم صرخته حتى الغضب واليأس .

— يجب ألا يغضب أحدا من الآخر .. يجب أن نتق بأنفسنا إلى أبعد حدود الثقة ، فإرام أن نضيق العمر القصير في أحزان مختلفة .

— ما ظننت قط أنك تؤثرين في نفسى بهذا القدر .. وما ظننت أن لك في قلبى مثل هذا المقام .. لقد عدت بعد أن تركتك إلى المحطة .. وأخذت أول قطار عادى إلى القاهرة . لم أكن مدعواً على الغداء — كما زعمت — ولكن الغضب أطاش صوابى .. وصمت على أن أهجرك بعد أن أبصرتك في هذا الوسط الخالي وبين هؤلاء الرقعا .. وتركت العربدة تذهب بك .. وأنا أتحمّد على فراقك وأنصبر .. وكتمت السهم في كبدي .. فأواجه وأدما .. وملئت نفسى بالمرارة ، وكرهت الدنيا ومن عليها .. كيف تفعلين بي كل هذا ؟ إذا رضيت عنك رضيت عن الدنيا .. وإذا غضبت عليك رضيت عليها .

لقد جلست في القطار وأنا لا أحس بشيء مما حولى . وحاولت جهدى أن أبعد عنى الوسواس ، وأن ألتص لك

الأعذار .. ولكن شيطان الشك كان يثقل على ويكيل لك
التهمة ويحمو الأعذار .. ويصورك لي وقد انهمكت في الرقص
معهم ، ونسيتي وتطاييرت من رأسك ذكراي ، ونفقت العهد
والمواثيق .

لقد كرهت أن أخفي لديك مجرد ذكرى باهتة ، وأن
تمحو الفرقة القصيرة أترى من نفسك وتنفيك لبحرانا في
المنهد المقدس .. كنت أشعر أني أعتب نفسي .. وأحطم
قلبي .. ويزداد عذابى عندما أعود فأسمع نفسي بطهارتك ..
وبفرط إيمانك بي وبحبي .. أحس بأني قد طللتك .. وأني قد
ترككت تعذبين كما أعذب ، وألمك قد تكونين راقدة في
فراشك تبكين .

كنت أتمنى لو عاد بي القطار لكي أعود إليك وأجثو
تحت قدميك وأعتذر عن سوء ظني ، ولكني أعود مرة
أخرى فأذكر الموسيقى الراقصة وأذكر قول الفتى الماخن :
إملك تليعة مكساة ، وقول أليك : إنه سيقصر أذلك ..
وعدت إلى القاهرة وأنا أحمل هموم الدنيا وشكوكها .

وذهبت إلى الدار ، وإلى العمل ، وصحائي قد شبت
إلى التبر عزيزاً لدى ، وكنت أسير كأنى أحمل على ظهري
مائة عام من العذاب واليأس .. حتى أبتأى عامل التليفون أن

• بيت حالي قد طلبى .. وطلته أحاك في مبدأ الأمر .. إذ لم
يخطر ببال قط أمك قد عدت .. ولكن العامل أنبأني بأن سيدة
هى التى تكلمت .

وأدركت الفرص بيد مرتجفة .. فإذا بصوتك يجهنى ..
وإذا بنشوة تسرى فى رأسى فتلمى .. كنت أجيبك بنضب
دقلى بتراقص ثملا .. وقلب لك عند ما سألتنى المحذور أنى
سأحاوله .. ثم فغزت إلى أقرب عربة ، كما أنا ، تاركاً عملى دون
أن أستاذن فى الخروج .. غير عابى بشئ ولا مقدر لمسؤولية
لقد كنت أتمرقق شوقاً وأذوب وجداً .. كنت أريد أن
أراك وأخسر نصف عمرى .. أليس ذلك أهون من ألا أراك
ويذهب العمر كله سدى ؟





في انتظار المني



أنصت إلى أحمد . . وأنا أحس من حديثه بمتعة
هيست عجيبة . عوتصني عن سابق لوعتي بخير عوض ،
وجعلتني أستعذب الألم الذي أعقبه ذلك العتاب اللذيذ . فقد كان
حديثه يفيض رقة ويسيل عذوبة ، وكنت أحس منه بحرارة
الإخلاص ، وفرط الحنين .

وددت لو طالت جلستنا إلى ما لا نهاية ، ولكن اللحظات
مرت بنا حثيثات عجلى . لقد كانت لحظات عجيبة ركز فيها من
المتعة ما لو فرقناه على العمر جميعه لكانت العمر كله تمتعاً .
تمتبت وقتذاك لو وقف الزمن . . أو لو خرجنا عن نطاقه ففقد
سلطانه علينا ، وأصبحنا من الأشياء الخالدة مع الرمن كالجبال
والأنهار والكواكب والنجوم ، حتى لا نحين لنا فرقة ولا تحمل
منا نهاية .

ولكن الزمن لم يرحمنا . . بل دقت الساعة الواحدة . .
لتذكرنا بأننا ما زلنا بشراً ، وأما لم نصبح بعد كواكب
ولا نجوماً ، وأن على أن أتوقع عودتي ، وأن عليه أن يعود
إلى عمله ، ليعتذر عن غيبته المفاجئة .

لقد هبطت بنا دقة الساعة من سماء الأوهام إلى أرض

الواقع ، ونهضنا وقد صفت قلوبنا وسعدت بهوسنا ، وسألني
قبل أن ينصرف :

— أليس من الواجب أن أصعد للسلام على « بنه » ،
وترددت برهة فقد كنت أفضل أن ينصرف دون أن تعلم
جدي ، ولكنني سمعتها تاديني ، ولم أجد بداً من أن أصعد
ويصعد معي .

ولقيته جدي لقاء حاراً . « جعلني لا أندم على صعوده
لتجيتها ، وسألته :

— لم لم تحضر لزيارتنا في الإسكندرية ؟
— لم أستطع الحصول على أجازة طويلة .
— الحمد لله . إننا لم نتمكن هناك طويلاً . . . ما أنا أكره
الإسكندرية .

وخشيت أن يطول الحديث فأومأ لأحمد بإيماء خفيفة
برأسي حتى « أذن في الخروج .
وودعته جدي قائلة :

— لم لا تمكث لتتناول الغداء ؟
— عندي اليوم « نوبتية » ، ولا بد أن أعود إلى الشكات ،
لقد مررت بالدار مصادفة فوجدت النوافذ مفتوحة ، وأدركت
أنكم لابد قد عدتم حضرت لأقول لكم حمد الله على السلامة . .

وبدا لي أن الجدة العزيزة لم تتلع الكذبة بسهولة ، وإن
كانت قد وافقت عليها ، وخيل لي أنها تعلم كل ما بيننا ، وأنها
تعرف أني دعوته بالتليفون . على أية حال إنني لم أعد أخشاه
منذ مرضي . . فقد أفلعت عن نصائح أبي تماماً ، وضربت بها
عرض الحائط ، وتركت نفسي على بحيتها تغمري بالحنان
والدليل ، وأصحت بطريقة غير مبشرة عوياً لي على حب
« أحمد » ، ولم أشك في أنها تفرملي إليه ، لأنها هي نفسها
— كما سبق لي القول — كانت تميل إليه .

وانصرف « أحمد » ، وودعته حتى الباب ، وافقت معه
على موعد اللقاء القادم .

وعدت إلى « جدتي » فجلست معها استطاراً لأوبة أبي .
وكان « أحمد » موضوع حديثنا . قالت جدتي :

— أحمد . ولد طيب ، ومهادي . وابن حلال . ما رأيك
به يا عايدة ؟

ونظرت إليها نظرة فاحصة ، ولم أحاول أن أجيب قبل أن
أفهم ما وراء حديثها . ترى هل تستدرجني الجدة الماكرة ؟
وأحبها بقلة اكثرات متسانلة :

— من حيث ؟

— كل شيء .. ألا يعجبك ؟

- لا بأس به .
 - أنا شخصياً أجده خير من يصلح لك .
 - لي أنا ؟
 - أجل !
 - من أى ناحية ؟
 - ناحية الزواج .
 وأطرقت برأسى . . وتصنعت الاستخفاف . . وإن كان
 حديثه قد صادف هوى فى نفسى . . وأحسست منه بمتعة
 كبرى .
 وعادت جدنى تسأل :
 - ألا ترى أنه زوجاً صالحاً ؟
 - قد يكون . . ولكن الزواج لا يحطرنى ببال الآن . .
 إن وقته ما زال بعيداً .
 - لقد فضحت وأصبحت « ست بيت » . . لئلا تزوجت
 وأنا أصغر منك بخمسة أعوام على الأقل .
 - فى رمنك كان هذا معقولاً . أما الآن . . .
 ودق جرس الباب ، وسمعت صوت أبى : فكففتنا عز
 الحديث ، وهبطت إلى الطابق الأسفل .

• • •

مضت بعد ذلك بضعة أيام قل أن يحضر « احمد » مرة
أخرى . . كان يداعب رأسي حلاطاً الأمل العذب والفكرة
المعسولة . . وكنت أستعيد في نفسي بين آونة وأخرى قول
جدي : « لقد نضجت وأصبحت . . ست بيت . . »

لقد أخذ الحلم البعيد في التجسد شيئاً فشيئاً ، وخيل إليّ
أن الأمانى التي كانت حلماً من أحلام الدجى . . توشك أن
تصبح حقيقة .

أجل . . إنا نستطيع لأن التفكير جدياً في الزواج . .
فكثيراً ما قلت لأحمد عند ما كنا نحوض سوياً في هذا
الموضوع إن أماننا زمناً طويلاً . . وكان ردى الدائم هو :
« لسه بلدى . . »

كس أظن دائماً أنه ما زال عينا أن نتظر فهو لم يزل في
رتبة صغيرة ، لا أظن راتها . وهو اثنا عشر جنياً - يبي .
لنا عيشاً طيباً دون أن تلجأ إلى معاونة أحد .

كنت أريد أن تكون في حياتنا مستقلاً ، تكفي أنفسنا
دون ما حاجة إلى معاونة أي ، وكان هو مفعماً بالأمل واثقاً
من سرعة ترقيه ، مطمئناً إلى المستقبل ، يعتقد أن توسع
الجيش ، سيضمن له قفزات سريعة إلى الرتب العليا ، وكان
يرى أنه لن يلبث طويلاً حتى يرقى إلى رتبة « الملازم أول » .

و. يوزباشى، وحينئذ يستطيع أن يتقدم لخطبتي .. بعد أن
يكون قد ضمن لنفسه مرتباً يجعلنا نعيش في رغد .

وقلت لنفى إنه يستطيع التقدم لخطبتي من الآن .. على
ألا يروح إلا حينما يحين الوقت المناسب .. حتى تتاح لنا
فرصة أكبر للقاء .. وحتى أحرر نفى من سباج الخوف
الذى أحيطها به .. وأطلق مشاعري بلا رهبة ولا خشية ..
كنت أريد أن يصح لكل ما بالآخر صلة واضحة .. تمكثنا
من التمعح بحبنا .. ولا تجعلنا تستر عليه أو نكتمه كأنه
منكر أو جريمة .

وصمت على أن أعرض عليه الأمر، وأذكر له حديث
جذقي في أول لقاء .

وفي ذات غروب .. هبطت إلى الحديقة .. أستريح في
وأنتسلي بقطف بعض الزهور تنسيقها في الزهريات .. وكانت
الأحواض كلها خالية استعداداً لموسم الشتاء .. إلا حوضاً
كبيراً في ركن الحديقة .. قد حشد بالداليه العالية الجروع
الكبيرة الأزهار .. وخصب في الحوض .. لكي أتق بعض
أنواع يافوتية اللون رائعة المظهر .. ويدو أن الحوض كان
حديث العهد بالسقيا فقد وجدت قديمي نفوس في الطين
جفأة .. وعند ما حاولت إخراجها خرجت عارية مجردة

وبقي الخذاء مدعونا في الطين . . ووقفت على ساق واحدة -
الساق التي ما زالت مغروسة بجذائنها في الطين - رافعة الساق
العارية . كأي . أبو قردان . . ثم انحنيت بحذر لكي أزرع
فردة الخذاء ، المغروسة . . وكدت ألمسها عندما أحسست
بتوازني يختل فلم أجد بداً من أن أستند يدي على الأرض
حتى أحفظ توازني وغاصت بداي في الطين واضطرت أن
أهبط بقدمي العارية إلى الأرض حتى أستطيع تخلص يدي .
ونجاة أحسست بفراشة تهبط على وجهي فأسرعت بإزاحتها
ياحدى يدي الملوثة فتأثر الطين على وجهي .

فلم أر بداً من ترك الخذاء ، والعودة إلى البيت لفعل
قدي وبدي ووجهي . . واستدرت لأعود ، فوجدت
أحمد ، قد وقف برقبتي ، وقد ارتسبت على وجهه ابتسامة
مرينة . وقال ضاحكاً :

- ما شاء الله . . منتهى النظافة والأناقة . أحسن بأمهات

للمستقبل ! !

وتقدمت منه رافعة يدي في وجهه وقلت مهددة :

- تنح . . وإلا اضطرت إلى احتضانك وتقبيلك !

- ياريت !

- ألا تخشى الطين ؟

- أبدأ . . . بطينه ولا غسيل البرك . .
 وأممت في الاقتراب منه وأنا مادة يدي قاتلة :
 - ها . . ابتعد خير لك . . وإلا لوئت بدلتك !
 - أنجسرين ؟ . . ألا تعلمين أن من يقطع زرار جندياً
 يحبس ستة أشهر . . فما بالك بضابط . . وأى صابط . .
 صابط قديم محترم . . برتبة « ملازم أول » .
 وغلته يمزح . . ولم أكن قد حاولت النظر إلى كتفيه ،
 ولكي رفعت بصري إليهما . . فإذا بي أرى نجمة جديدة .
 وصحت في فرح شديد :
 - ما هذه ؟
 - « نجوم الضهر » !
 - لم لم تخبرني من قبل ؟
 - لأفاجئك بها . . لقد طللت أؤجل زيارتي من يوم
 لآخر حتى لا ترفضني بغير الرتبة الجديدة .
 وقلت مهتة من أعماق قلبي :
 - مبروك . . يا أحمد ،
 - مبروك علي . . والاعليك ؟
 - علينا سوياً !
 وتذكرت ما صمت عليه من قبل ، وهو أن أطلب منه

التقدم إلى أبي الخطبي ، ورأيت الظروف مواتية ، والفرصة
سائغة .

ومد ، أحمد ، يده فأمسك بيدي الملوثة بالطين ، وسحبني
بحواره . . وحاولت التخلص من يده قائلة :

— دعني حتى أزيل هذا الوحل . وأعود إليك حالاً !

— لا . . لا . . لا داعي لإضاعة الوقت ، إن لدى

أخباراً سارة تستحق منك احتمال الطين حتى تسمعها .

ورفعت حاجبي وتساءلت :

— شيئاً غير الترقية ؟

— أجل . . شيئاً أفضل

وسرت بخاطري فكرة الخطبة . . ولم أشك أنه ينوي
أن يفتحنى فيها .

وجلست بحواره على مقعد الحديقة . . حافية القدمين . .

ملوثة اليدين والوجه . . ورفعت وجهي متسائلة :

— ماذا عندك ؟

— سأنال شيئاً أفضل من الترقية .

وازداد دهشى وعنت أكرر قوله :

— شيئاً أفضل من الترقية ؟ . . ما هو ؟

— سأنقل إلى الحرس .

— حقاً ؟ ...

— أجل .. لقد استدعاني القائد في مكتبه ، وأبلغني
أنه أبلغني أني قد انتدبت للخدمة في الحرس « الملكي » وهناك ،
وطلب مني أن أقدم نفسي لقائد الحرس غداً .
وشرد ذهني .. وعادت فكرة الخطبة فلق عليّ ..
وأحسست أني أوشك أن أجن من الفرح .
وعاد هو يقول :

— هل تعرفين معنى أن أقبل إلى الحرس ؟
ولكنني هزئت رأسي متسائلة :
— كلا !

وأجاب هو على سؤاله :

— معناه أني أستطيع أن أحقق أحب أمنية إلى نفسي ..
أستطيع أن أقدم خطبتك بقلب قوي غير هيب ولا وجل ،
لقد أصبحت ضابطاً في الحرس « الملكي » .. وسبب صاعف
مرتبي ونستطيع به أن نشيء بيتاً ونحيا حياة هشة ..
ألا تعتقدين أن خمسة وعشرين جنياً كفيلة بسد حاجتنا ؟
وكانت نفسي تفيض بالحمد وال شكر .. كيف لا وقد
أكرمنا القدر إلى أبعد حدود الكرم ! لقد حقق آمالي
بأسرع مما كنت أتصور .

كنت في الظهيرة أسمع حديث جدتي عن الزواج فأحس
أنه أمنية صعبة المنال وحلم بعيد التحقيق . . كنت أحس أنه
- كما تعودت أن أقول - دلسه بدري . . . وكنت أمني
نفسى بخطبة عاجلة ، وزواج مؤجل ، وأن ينتظر حتى يرقى
إلى رتبة اليوزباشى .

أما الآن وفي غمضة عين ، فقد أصبحت مآربنا ملء يدينا
ولم يعد الزواج أمراً بعيداً . . أو أمنية صعبة ، ولم يعد بنا
من حاجة إلى التعلل بالخطبة .
ونظرت إلى يدي وقلت له :

- دقيقة واحدة أغسل فيها يدي وقدمي ، فإني لا أطيق
الجلوس بمثل هذه القذارة !

- دعيني أنولى غسلها عنك . امنحيني هذه المتعة . دعينا
نحتني بقرتي بغسل يديك على هذا الحوض . سيرى بنا .

وجذبتني من يدي إلى حوض قريب وأجلستني على حافته
وفتح الصنبور ، وبدأ يغسل يدي ، وبلل منديله بالماء وأخذ
في تنظيف رجلي ، ثم مددت ساق أسفل الصنبور ، واستمر
هو يغسل قدمي بأصابه مزبلا عنها ما علق بها من الطين .
فلما انتهى من غسلها بدأ في عملية « زغرعة » ، وأنا لا يصحكني
شيء « زغرعة » باطن قدمي . وانطلقت أضحك وأرفس

بقدمي وأحاول نزعها من يده وأنا جالسة على حافة الخوض .
وجأة سمعت صوت أبي ، وقد وقف في نهاية الممر الذي
به الخوض ، وقد تجمهم وجهه وتساءل في دهشة :
— ما هذا البيت ؟

ولم أكن أتوقع قط أني أراه وقتئذ ، فقد كان لا يعود
إلى البيت في مثل هذا الصباح المبكر ، وأحسست من مرآه
كان ، دشاً بارداً ، قد صب فوق رأسي في يوم قوّم .
وتعلّكني خجل شديد . وارتح على ، فلم أنبس بينت شفة .
ولم يكن ارتباك . أحمد ، ومفاجأته . بأقل مني ، ولكنه
سرعان ما تمالك نفسه واستعاد رباطته . ونهض واقفاً وتقدم
إلى أبي مصاحفاً إياه .

ورد أبي على تحيته في اقتضاب ، ثم وجه القول إلى :
— زكي باشا سيوزونا الآن هو وابنته . . استعدى
للقائما .

ولم يقل أكثر من ذلك ، ثم أدار ظهره ودلف إلى الدار .
ولم يكن المنظر الذي وجدنا فيه أبي بالمنظر الذي يستدعي
كل هذا الخجل والارتباك . . فقد كان لا يزيد على أن يكون
هواً بريئاً . ولكنني كنت أعلم أن أبي لا يستسيغ بسهولة
مثل هذا اللهو . . وإني لاشك سألتني من لومه وتقريعه

الشيء الكثير .. وقد تكون نتيجة تضيق الخناق على ..
وخاصة من ناحية أحمد .

وأحسست بسحابة غم .. تغم نصي .. ولكنها سرعان
ما انقضت عندما تذكرت ترقية أحمد ونقله إلى الحرس ..
وإقدامه العاجل على خطبتي .

لو ضبطني أبي قبل اليوم لأريت في ذلك فاجدة كبرى ..
أما اليوم فإن آمالي في المستقبل أضحت كفيلة بأن تعرف
في تيارها كل عقبة هم ، وكان فرحي طاعياً .. يتضاءل بجواره
كل حزن وغم .

ووقفت أمام أحمد بعد أن انصرف أبي إلى داخل الدار
وقد أفعمت نفسي بخليط من مشاعر مختلفة .. وأنصرت
في وجهه سخابة هم .. لم أشك في أن مبعثها .. هوزيارة
ركى بلشا التي أباتى بها أبي .

ومددت يدي أشد بها على يده وأقول له في ثقة وإيمان :
— أحمد .. لا تدع هذه الحشائش الطفيلية تفسد علينا
زهور حياتنا .. ما دمتنا وأثقين من أنفسنا .. فدع الرياح تمر
من فوق رؤوسنا .. دون أن تقتلع جذور همتنا .

وسرنا سوياً حتى بلب الحديقة وقلت في شبه مجاملة :
ألا تبقى قليلاً ؟

— لا .. إني أفضل الانصراف الآن .

— ومتى ستعود ؟

— سأعود غداً لمقابلته .. أى الأوقات أنسب للحضور

— تعال فى الخامسة .. بعد أن يستيقظ من نومه ..

وقبل أن يخرج .. أظن هذا هو أنسب وقت .

وانتهج أحمد إلى الخارج ودلقت إلى الداخل .. وصعدت

إلى حجرتي لأبدل ملابسى ولاستعد للقاء الضيوف .

وساءلت نفسى فى ذهنى : ماذا حدا بهم إلى هذه الزيارة ؟

بل ماذا دفعهم إلى الحضور إلى مصر .. مع أنى كنت أتوقع

أنهم مازالوا فى الإسكندرية ؟

وأنتم ارتداء ملابسى .. ورأيت صاحب بندق

الأفكار .. وفى نفسى فرحة ظاهرة .. وخوف خفى ..

وأمل واضح .. ويأس مبهم .

وسمعت صوت عربة تتف بالباب .. ودق الجرس ،

فهبطت لاستقبال الضيوف .

وقفت الباب وأصأت الأنوار ، ووقفت وأبى متأهين

للترحيب .. وأقبل « صاحب الدولة » من نسختين .. نسخة

الرجال .. والنسخة البناني — أعني هو وابنته — وحدث الله

على أن « توتوبك » لم يكن معهما .

وجلسنا فى حجرة الاستقبال .. وجرى الحديث بيننا

تأبهاً ملاً . . . وتحدث أبي مع . صاحب الدولة ، عن أسرار
البورصة ، والقطن ، والحرب القادمة ، وعن موقف تشمبرلين
مع هتلر ، وعن نجاحه في إقرار السلم الموقت .

وانطلقت «سوسو» تخوض في سير الناس ، فلم تترك
امرأة إلا نهشتها بلسانها . . فأما أبي أن ابنة فلان باشا ذهبت
إلى النسا ووقعت في غرام أحد الموسيقين ، وأن زوجة
الوجيه فلان بك تخونه مع صديقه فلان باشا .

ثم انتقلت من النهش في أعراض الناس إلى أخبار السباق
والجوكية والأزياء . . إلى الفرقة الفرنسية التي ستعمل في
الأوبرا في العام القادم . . وتساءلت : لم لا تحضر عشاء
الفرق الأجنبية حتى ترقى الذوق المصري وتهذبه ؟

وأحسست من حديثها باشمزاز شديد ، وقلت لها بهدوء :
— إن الذوق المصري له طائعه .

— طابع مشوه فاسد .

— أنت مصرية ؟

فأجابت وكأنها تنفي عن نفسها تهمة :

— أنا لست مصرية . . إن جدي لأبي ينحدر من سلالة

تركية عريقة الأصل .

— لأجل هذا تكرهين المصريين ؟

- أنا لا أكرهم .. ولكنى أرتى لهم .
 وتواترت على ذهنى إجابات مختلفة مهمت بأن أقذفها بها
 ولكنى تذكرت أبى وتذكرت أنهم ضيوف عندنا .
 وقلت محاولة تغيير مجرى الحديث ؟
 - الحرارة شديدة فى هذا الصيف .
 - وكل صيف .. إن مصر لا تطق .
 وشعرت أنى لا أستطيع تحويلها عن التعريض بمصر ،
 فقلت متسائلة فى سخرية :
 - وما الذى يبقيك فى مصر ؟
 - لولا نلبد الجو السياسى لكننا فى الخارج ككل عام ،
 ولولا بضعة الأشهر التى نفضيها فى الخارج كل عام .. لما
 أحسنا أننا نحيا .. نحن هنا فى بلد الأموات ، بلد المقابر
 والمومياء .. أليست هذه من أكبر مفاخرنا ؟
 ولم يمكنى نهوض أيهما واستعداده للخروج من الرد
 عليها .. وانهمكنا فى التحيات .. وفى الترحيبات ، وخرجنا
 لوداعهما .. حتى استقلا العربة .. وتحركت بهما .. وهما
 يشيران لنا بأيديهما .
 وحننت الله على انتهاء الزيارة .. فقد كنت فى أشد الحاجة
 إلى الهدوء والراحة ، وإلى أن أخلو بنفسى .. فأفكر فى

الاشياء التي حفل بها يومى ، والأحداث الخطيرة التي توشك
أن تقع في الغد .
ترى ماذا يكون رد أبى ؟ هل يمكن أن يخيب أملاً ؟ هل
يمكن أن يرفض ؟

ولكن .. أى عيب يمكن أن يجده في أحمد ؟ هذا المخلوق
التموذجي . هذا الإنسان الكامل ، الجميل الخلق والخلق ،
الطيب الطاهر والباطن ، الخلق الحديث ، اللطيف المعشر ،
القويم المبادئ ، المستقيم السلوك ، المحدث في عمله ، المخلص
في كل تصرفاته . إنسان ذو المركز المشرف والمرتبة المحترمة ،
وهو بعد كل هذا أقرب الناس إلى .. فهو ابن خالتي ،
وصديق أخى .

لا .. لا .. لا أظن أبى إلا مرحباً به ، محبباً له .
إن أبى رجل صارم قاس .. فهو يقسو على حتى يضمن
لى حسن المصير وطيب المال . وأى مصير يمكن أن يكون لى
أحسن من زواجى بأحمد ؟ إن صرامته وقسوته فى معاملتى
وتريقى .. كان يقصد بهما أن يقينى الفساد ، ولا أظن الزواج
من الفساد فى شيء .

وهكذا استطعت أن أطعمن نفسى وأهدى قلبى .
وذعيت إلى الفراش ، وأغمضت عيني ، ونمت فريرة .

واستيقظت في الصباح وقد خطر لي خاطر .
 لمَ لا تحاول أن نستعين بجدتي . . ولمَ لا أخبر أحمد بما
 قاله حتى يوسطها لدى أبي .
 ومضى النهار وأنا حائرة قلقة ، ولا أكذبكم القول أنني
 صليت لله لكي يستجيب طلبي . وكنت أنظر إلى الساعة بين
 آونة وأخرى أستحها على السير حتى تبلغ الخامسة . وازدردت
 غذائي دون أن أتذوق له طعما .
 وفي الخامسة إلا ربعا . . دق الجرس ، وهبطت لأنح
 بنفسي ، فقد كنت واثقة من أن الطارق هو أحمد .
 ولقيته وأنا في حالة شديدة من الاضطراب والقلق . وقلت
 له هامة : اعرض الأمر على جدتي ، ولكنه أجاب :
 — دعيني أسلك أقصر السبل . لا داعي للقف ، ولا الوساطة .
 سأناطله كرجل لرجل . أنا لم أعد بعد صغيراً . ما دمت ترفق
 أستحقك وأستحق حبك . فإن ذلك يملؤني ثقة بنفسى
 واعتداداً بقدرى .
 — أمرك يا أحمد . ربنا يوفقك . إنني أحس بقلق شديد .
 لقد صليت لله ألا يخذلنا ، وقرأت الفاتحة مائة مرة .
 وضحك أحمد وشد على يدي . وممس :
 — اطمئني يا عايدو . أبني هو ؟

- إنه يرتدى ملابس وسبب حالاً .. سأصعد أنا إلى
غرفتي حتى أبدو كأنى لا أعرف شيئاً عما أتيت من أجله ..
انتظره هنا حتى يهبط .
انتظر أحمد فى الصلاة ، وصعدت إلى الطابق الأعلى ، وقلبي
يدق بعنف حتى ليكاد يقفز من بين أضلعي .

وسألتني جدتي :

- من ؟

- أحمد .

- ولم تركبته وحده ؟

- إنه يريد أبى .

- يريد أباك ؟ لماذا ؟

ورفضت كفتي قليلاً وأجبت متجاهلة :

- لا أدنى .. لم يقل لى شيئاً .

ولم تطل تلك الأكذوبة على جدتي . فقد كانت هى نفسها

تدري ، لأنها هزت رأسها وتمتمت فى صوت خافت :

- ربا يرفقه .. ويجعل لكل منكما نصيباً فى الآخر .

واصغيت أنى لم أسمع ، واتجهت إلى حجرتى ، وخرجت

إلى الشرفة ثم عدت إليها ، وارتيمت على الفراش ، ثم نهضت

بعد لحظة وعدت ثانية إلى الشرفة .. لقد كنت على حال

من القلق لا أستطيع معها أن أستقر في مكان .
وسمعت بعد ذلك وقع أقدام أبي نهبط الدرج إلى الطابق
الأسفل ، ورادت دقات قلبي عنفاً . . ثم سمعت صوت أبي
يحياه قائلاً :

— أهلاً .. أحمد .. أنت هنا .. كيف الحال ؟
— الحمد لله يا عمي .
— أرى على كتفك نجمتين .. مبروك .. لقد ترقيت
بسرعة . منذ متى ترقيت ؟
— الله يبارك فيك .. ترقيت بالأمس فقط .
— عال .. عال .

وسادت فترة صمت قصيرة كنت أحس فيها مدى ارتباك
أحمد . . وأدعو الله أن يعينه . وأخيراً سمعته يقول :
— إني أود أن أحدثك يا عمي في موضوع خاص ..
أستمع لي ؟

— بالطبع .. إني على موعد الآن .. ولكي أستطيع أن
أستمع إليك برهة .. تعال .
وسمعت وقع أقدامهما يبتعد ، وبدأ لي أنهما قد انجها إلى
حجرة الصالون .

ولم أعد أسمع شيئاً ، وأحسنت كأنني أقلب على جمر

الغضا من فرط القلق والاضطراب وتوتر الأعصاب .
وأخيراً سمعت وقع أقدامهما مرة أخرى يسيران في
الصالة .. ثم يتجهان إلى الباب الخارجى ويهبطان الدرج ،
وأسرعت إلى الشرفة فرفقت بياهما ولحمت ظهرهما وهما
يتجهان إلى العربة ، ثم ركب أبى بعد أن نصالحا ، ورأيت أحمد
يسير في طريقه والعربة تتحرك في طريقها .

ترى ماذا حدث ؟ ، كيف كانت النتيجة ؟
وظللت أتبع أحمد بعصرى وهو يتعد .. أحاول أن أفرا
من مشيته ومن هيكله ما أستشف منه دجلة نفسه .. وأعرف
منه مقدلو فرحه أو يأسه .
أنى مشيته تناقل ؟ وفى خطواته تباطؤ ؟ .. أنى كنت فيه
تهدل ، وفى ظهره انحناء ؟ أنى رأسه طائفاً .. وفى هامته
خطض ؟
ماذا قد حوى هيكله المتعد : أهدأ وأمل ، أم شقاء
وبأس ؟

لئن مشيته هى .. مرفوع الهامة ثابت الخطى .
وهيكله هو هو .. بارز الصدر ، عموق القوام .
أيمكن أن تكون هذه المشية المتزنة ، والهيكل الأشم ،
لإنسان غاب الأمل ، مهبط الجناح ؟

لا.. لا.. إن أبي لاشك قد أجابه إلى مطلبه .. وإن أمنية
العمر لا بد أن تكون قد تحققت
ولكن لم لم يصعد إلى لينبئني ويحتضني ويرف إلى
البشرى ؟

لعله قد خجل من أبي .. أو قد فضل أن يجعل تصرفه
وسياً ، وأن ينتظر حتى ينبئني أبي ،
بالي من حفاء .. لقد جرى العرف في هذه الأمور بأن
يوافق الأب مبدئياً .. على أن يؤجل البت حتى يأخذ رأي
الابنة .

أجل .. إن أبي لا بد سيعرض علي الموضوع ويأخذ
رأيي فيه .

حقيقة إنني أعرف أني لا رأي لي عنده ، ولكنني أظن
أنه سيأخذ رأيي من باب الشكليات ، وإن كان سيقدر أولاً
مصري فيما بينه وبين نفسه .. ثم شركني أختار كعادته دائماً
على أن أختار .. ما يريد هو ، وإلا أرغمي عليه .. هذا هو
ما تعود أن يفعله في كل شيء ، فمن الأولى أن يفعله في مسألة
خطيرة كهذه .

لأنه سيعود ليلا كعادته ، ثم يتناول العشاء ويقول لي إنه
يود أن يتحدثني في أمر هام ثم يبدأ بالمقدمات الطيبة وهي

انى قد نمت ونضجت ، وأنه يود أن يفرح بى ويطمئن على
رأن سعادة الفتاة تتوقف على أن تجد الزوج الملائم .

تلك هى المقدمة التى لا بد أنه قائلها .

وأخفت أصورّ لنفسى بعد ذلك . . كل ما سيقوله
كلمة كلمة . . وحرفاً حرفاً . . وكل ما سيألتى عنه . .
وأجيبه به .

ثم يهرج بعد ذلك إلى الموضوع مباشرة فيخبرنى أن
« أحمد » قد طلب منه يدى ، وهو يرى فى أحمد خير إنسان
يصلح لى ، ويعدثنى عن رأيه فى خلقه ، وينبئنى أنه قد عين
ضابطاً بالحرس ، وينتهى إلى النتيجة بأنه شخصياً موافق على
قوله ، ولكن يترك لى حق الاختيار .

وأطأطأى أنا الرأس خجلاً ، وأرتبك وأتلعثم . . ثم أقول
له كما تعودت أن أقول دائماً :

— أمرك يا أبى .

وسيجيبنى كعادته :

— على خيرة الله .

ثم يتنهد ويقبل جيبى .

واعجباً ! أية فنانة ماهرة كنت إذ ذاك وأنا أجلس على
نراشى ، وأصورّ لنفسى كل تلك التفاصيل والدقائق وأرسمها

حسبما أشتهى فأنا له أمني وأنتهى منها إلى أنى قد أصبحت
فعلا خطية أحد .

وأفقت من أوهامى راضية .. مغتبطة .. تماما كأن
ما صورته قد حدث .

ولكنى عدت أسائل نفسى :

— لم لم يحاول أحد العودة لإخبارى ؟ يا له من أناق ،
يا بى إلا أن يخص نفسه بالغبطة .

ألم يكن من الواجب عليه .. على الأقل .. أن يحدثنى
بالتليفون ليطمئن قلبى ؟

من يدري ربما سيتحدث بين آونة وأخرى .

ولبثت أرقب التليفون ، وأعدو إليه كلما دق ، ويبدو
أنى لم أستطع أن أخفى قلقى واضطرابى .. فقد سمعت بهدنى
تنادينى ، ثم تأمرنى بالجلوس إلى جوارها وتضمينى إليها ،
وتتحسس رأسى بحنان ثم تقول لى :

— يا بنتى .. لا تأمنى إلى العذر .. كونى قوية وشجاعة ،
هوذى نفسك الرضا بالواقع واقبلى مانعطين ، لانك كثرى من
الآمال ، فوطيفة القدر هى أن يخيب آمالنا .. حاولى ألا تعطيه
الفرصة للشهامة .. لانطلى شيئا ، بل انتظرى حتى يعطيك هو
وابتنسى شاكرة حتى يخيب أمله بدل أن يخيب هو أملك .



قيد قتل

۱۰



للكثير من حديث جدتي المتشائم وتحذيرها
لم أفهم من القدر الشامت والآمال الخائبة ، فما كان
لدي أقل استعداد لقبولها . . أو التفكير فيها .

كيف تصحني الآن . . وآمالى توشك أن تتحقق ؟
ساعة ، أو جزءاً من ساعة ، ويأتي أبى فيقطع الشك
باليقين ، ويحمل من الأحلام حقائق واقعة ، ومن الآمال
وقائع ملموسة محسوسة .

بل ما أعلن بي من حاجة إلى الانتظار ، فقد سمعت في تلك
اللحظة صوت بوق عربتنا يدوى من بعيد ، وكانت نفسى
محصزة للانتظار ، وكنت مرهفة السمع متوثبة الأعصاب .
وأغلق باب العربة ، ثم دق جرس الباب ، وجلست في
مكاني لحظة . . غافقة القلب ، واجفة الفؤاد ، ثم سمعت وقع
أقدام أبى يصعد في الدرج ، وأقبل علينا على غير عادته ، وبه
لحفة غير خافية ، وقد علت وجهه بشاشة لم تتعدها فيه .

وكان يحمل في يده صندوقاً من « الشيكولاتة » وضعه على
المنضدة ، وأخذ يسأل جدتي عن « أسنانها » وعن صحتها ،
وانتظرت أن يطلب تجهيز العشاء ولكنه لم يذكره ، بل استمر
يفرض في أحاديث غابرة تافهة جعلتني أوجس خيفة وقتلته :

— أ أمر تجهيز العشاء ؟

قد كنت أبني أن يسير الأمر حسب ما تخيلت ..
وأن يتم عشاءه ، ثم يحدثني في الأمر الهام
ولكنه هو رأسه وأجاب :
— ليس الآن .

وتحيت لو استطعت أن أخترق حجاب رأسه أو لو كانت
لدى المرأة الكامنة لأسأله صراحة .. ماذا قلت لأحمد ؟
ومضت فترة خلتها دهرأ .. وهو يتحدث عن مسائل
عالية في الثقافة ، أو هكذا بدت لي بالنسبة لما كان يشغل
رأسي ، حتى بلغ بي اليأس منتهاه ، واعتقدت والإسى يملأ
نفسي بأنه لا بد قد رد أحمد غائباً ، وأنه لا ينوي أن يذكر
شيئاً عن الموضوع .

رعمت بمفادرة الحجرة .. عندما رأيته يرفع إلى رأسه
ويقول :

— عاينه .. لي عندك بعض الحديث .
وأصابتني رجفة هزتني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي ..
وترققت في مكاني والتفت إليه وأمالأ أكاد أتمالك وقلت :

— نعم ...

— اجلسي ...

وجلس على مقعد أمانه . وقد اضطلعت جدتي على
أريكة طويلة ، وجلس هو على حافة مقعد وقد استند بمرصقه
على ذكته ، وبذقته على راحه كفه .

وبدا قوله في صوت هادي . وطبقة مرتبة :
— لقد أصبحت الآن فتاة كاملة ، وقد أثمرت فيك
تربيتي .. حتى بت أشعر بالاعتزاز بك .
وأخيراً .. تحدث .

أخيراً .. بدأ مقدمته . تماماً كما توقع ، نفس الكلام
الذي صغته لنفسه .

وكما تصوّرت أيضاً .. أطرقت برأسي في خجل شديد
وأحسست بلساني يهقد . فلم أسس ببنت شفة .

ولم أع من مقدمته شيئاً كثيراً .. فقد كنت أتعجل
النهاية . وأستيق بفكري الفاضله ، وتمنيت لو يوفر على نفسه
مشقة المقدمة ، مادمت أمانسي أحفظها عن ظهر قلب .

النهاية .. لقد اجتزاها بسلام .. وسمته يقول أخيراً :
— ولقد كنت دائماً أتوقع لك وأنت خير الفتيات .

زوجاً ملائماً يضمن لك أحسن العيش ويحملك سيدة الناس .
وصمت برهة اصططع خلالها يظهره على ظهر المقعد وغير
من جلسته فوضع ساقاً على ساق .. وأتم حديثه قائلاً :

— ولقد وفقني الله إلى إنسان لا أعتقد أننا يمكن
أن نطمع في خير منه .

وقلت لنفسى :

— أجل . . ليس هناك في الدنيا خيراً منه .

واستمر هو يقول :

— وأنا نفسى موافق عليه . ولكنى رأيت قبل أن أعطي
كلمة حازمة أن أستشيرك في الأمر ، وأعرضه عليك حتى أضمن
أهلك قريرة راضية ،

وكنت أقول له إنى راضية كل الرضا ، بل إنه لا يرضيني
في الحياة سواء .

ولكن الحياة ورهبة الموقف عقدا لسانى ، فاستمررت
مطرقة الرأس ، مطبقة الشفتين ، منتظرة حتى يكمل حديثه
أو يشرح لى ما حدث بينهما .
وبدا شرحه قائلاً :

— لقد حدثنى اليوم زكى بلشا في التليفون وأبأى أنه
سيحضر لزيارتي في المكتب بعد الظهر ، لأمر خاص ، ولم
يغب عن ذهنى ما يعنيه بذلك الأمر الخاص . فقد لمح لى به
مرة من قبل .

ورفعته عني أحلق فيه في ذهول شديد .

ذكرى باشا !! ما دخله في الأمر .. وما الذي أفعمه
في الموضوع ؟

واستمر أبى في حديثه وهو يهز ساقه بهدوء :

— رقى الساعة السادسة .. حضر إلى مكتى ، وأبأني
بعد مقدمة قصيرة أنه طالما أعجب في وبصاميتي ، وأنه
يشرفه أن يتأسى .. وأنه من المرات القلائل اللاتي أبصرك
فيها .. استطاع أن يحزم أمك فتاة كاملة .. هادئة الطبع ،
جميلة الحلوى ، طيبة النفس .. فضلاً عن جمالك الذي لا يضارع
وأنه من بين كل من رأى من بات معارفه وأصدقائه
وأقاربه لم ير خيراً منك ولا أصح ، وأنه يسره جداً أن
يطلب يدك لأنه ، واستمر الباشا في مديحه حتى أخطفني ..
ولم أجد ما أقول له سوى أننا لستاه قد المقام ، وأنه يشرفنا
بطلبه وبنيته .

والتي على أبى نظرة فاحصة يستشف بها دخيلة نفسي .
ولا أظنني في حاجة إلى أن أشرح دخيلة نفسي
وقتذاك .. ماذا أقول ؟ .. وقد كنت أشبه يسان رفعوه
إلى هام السحب ، ثم تركوه يسوى إلى قرارة الأرض
فتناثر حطاماً .

لقد كنت في حالة لا تساعدني حتى على الألم .. كنت

مشدومة مذهولة أحس كأنى واقعة تحت تأثير كابوس
مخيف ، وأن ما حولى إيس من الواقع فى شىء .
وأدمش أبى ما أصابى من وجوم وإطراق ، واستمر
بتم حديثه قائلاً :

— إتنا لم يكن نحلم قط بمثل هذا النسب ، ولا أفلسا
نطمع فى أفضل منه ، بل ما أظن أن هناك أفضل منه ، طيبة
أصل ، وعراقة متحد ، ومال وجاه وسلطان ، وشباب بضر
ومستقبل مزدهر . . إن ، تهاى بك ، أمامه مستقبل حافل ،
أمامه الالتحاق بالسلك السياسى ، وأمامه الحياة السيائية ،
ولمناصب الوزارية . . غداً يسلك طريق آيه ، فالمناصب
العلماشيه وراثية ، وـ زكى باشا ، يحتمل أن يعود إلى الحكم
فى أول انقلاب يحدث ، فإن الصحف تجمع على أنه رجل
الساعة . . .

أى صحف يهذى به هذا الأب الأبله ؟ ماذا يهمنى أنا من
عردة ، زكى باشا ، إلى الحكم ؟ أى مستقبل حافل ينتظر
ابنه التافه الذى لا يصلح لشيء ؟ أى سلك سيامى هذا الذى
يزجون فيه بهؤلاء الرقعاء ، الذين إيس لديهم ذرة من الإيمان

يلدع ١٩ وأى ماصب نيابة ، وأى مراكز رفيعة يضعون
فيها هذه الأصنام الممسوخة ؟

مالى أباه وماله ؟ ليكن من يكون ، وليعد أبوه إلى
رئاسة الوزارة ، أو ليذهب إلى الحجيم .

إني أريد أحمد . . ماذا فعل معه ، وماذا قال له ؟

ووصل إلى صوت الأب كأنه صوت ناع يأتي من

جوف قبر :

— لقد وقفنا الله إلى خير نسب . . إني شخصياً جد

موافق ، مارأيت أنت ؟

ووجدت صوتي ينبعث متحشراً في صدرى ، بالرد

التقليدى الذى لا أملك غيره ، وكأن إنساناً غريباً هو

الذى يتحدث :

— أمرك يا أبى .

ووصل إلى رده الأخير . . تماماً كما توقعت :

— على خيرة الله .

ثم نهض فطبع على جبينى فيه شكلياً ، وغادر الغرفة .

يا للسخرية ! ! لقد بدا لي أن لقدّر يقهر فاه على آخره

وبقائه ساخراً ، وتذكرت قول جدتي : لا تكثرى من الآمال

فوطيمة القدر هي أن يخيب آمالنا ، فحاولي ألا تعطيه الفرصة

للشهادة بك .. لا تطلبي شيئا .. انتظري حتى يعطيك هو
وابتسمي شاكرة حتى نخبي أمله ، بدل أن يجيب هو أملك ، .
كيف أستطيع ؟

كيف يمكن أن آخذها أعطى ، وأبتسم شاكرة ١٢ كيف
يمكنني أن أرضي بذلك الزبد الذاهب جفاء ١١ كيف يمكنني
أن أستبدل جمال الجوهر زيف القشور ، وباللبث فأراً ،
وبالفدير الصافي مستنقماً قذراً ١١

كيف يمكنني أن أعيش مع هذا التائه ، الفارغ الرأس ،
الحاوي النفس ؟ كيف يمكنني أن أعيش بلا أحد ١٢
وسمعت صوت جدتي تتمتم قائلة :

— أيها الأحمق .. ستودي بها إلى مصير أمها .. إن
ذنبها في عنقك .

ونظرت إليها فوجدت وجهها شاحباً متجهماً ، وبدأت
صدرها أقرب ملجأ ألذ به ، فارتيمت بين أحضانها واندفعت
في نوبة من البكاء .

وبعد برهة سمعت صوت أبي يناديني للعشاء ، وكان
صيراً على أن أنمالك ، وأن أخفي مشاعري ، فهيمت لجدتي
وبالكاء يخفقني :

— قولي له إنها ذهبت لتنام ، لأنها تحس صداعاً .

وربقت جدتي على ظهري وأجابني بحنان :
— اذهبي إلى فراشك . . كفكيني دمعك ، وتجلدي .
ذلك هو كل ما قلته لجدتي وقالته لي . . لم تتحدثي
بأكثر من ذلك ، ولكنني لم أشك في أنها تدرك كل
مشاعري وتفهم كل ما بي .
ولكن ماذا في وسعها أن تفعل ؟
أنا أعرف أبي . . كما تعرفه هي ، ويعرف كلانا أنه
لا فائدة هناك من مناقشته .

ثم أتى لا أجسر أن أقول إنني لا أريد فلاناً لأنني أحب
فلاناً . . إنني لا أجروقط أن أقول إنني أحب . . حتى جدتي
نفسها لم تصرح لها بشيء . بل فهمت كل شيء من تلقاء
نفسها ، ولم تحاول مرة واحدة أن ترحني بالسؤال
أو النقاش أو الخوض في مشاعري نحو أحد .
لقد كنت أستطيع أن أتحمّل كل شيء إلا أن أقول
لأبي إنني أحب .

وفكرت في أخي . . وقلت إن علياً صديق لأحمد . .
ويستطيع أن يفهم إحساساتنا بسهولة .
ولكن ما الفائدة ؟ ما دام لن يستطيع التأثير على أبي ؟
لقد كنت أحس أن بين الاثنين هوة عميقة . . وأنهما على

اختلاف بين في كل شيء . . ليس بين أحدهما والآخر
أى تشابه في المصائب أو تقارب في الأهواء . . كان أخى
إنساناً عاطفياً رقيقاً ، مرهف الحس ، وكان أرى لا يعترف
إلا بالملذبة المادية ، ولا يقدر إلا الشيء الذى يستطيع
أن يحسكه يده . . ولا يفهم إلا أن الحياة المال ، والمال
الحياة ، وأن النقود هى كل شيء . . هى التى ترفع إلى
السماوات السبع . . أما سواها فأوهام باطلة .

إن أخى سيفهمنى كما فهمنى جدتى ، وكما يمكن أن يفهمنى
أى إنسان له قلب لم يقدر من صخر . . إنسان يدرك أن في
الحياة أشياء غير المدة الملبوسة ، وأن الجسد البشرى يغذيه
شيء غير الماء والطعام والهواء . . شيء يسمى الحب .

ولم يكن لن تقنعه هذه الحرافات ، ولن يسمح لأحد بأن
يضيع فيها وقته .

ليس هناك فائدة . . لقد وقعت الواقعة ، ولم يعد أمامى
سوى الاستسلام . . أو الانتحار .

ولكنى كنت أجن من أن أفكر في الانتحار ، أو على
الأصح ، أشجع من ذلك . . إن الانتحار لا يعنى سوى قتل
الجسد ، ولكنى صممت أن أقتل الروح والقلب والمخاض

ولا أبق منى سوى جسد بلا حس ، ليفعلوا به ما شاموا
« ما الجرح بميت لإيلام » .

لقد كان الخطأ خطئ من بادية الأمر . . أما الذى
تركته نفسى تتردى فى هاوية الحب . . وتركته لإرادتى
تتهوى ومقاومتى تنهار . . لو لم أنزلق إلى هاويته لكنت
الآن سيدة نفسى . . ومالكة مشاعرى . . أسخر من كل
شئ . . وأتلقى ضربات القدر وكأني درع من النحاس . .
لا يجيب إلا بالزئير . . تلعطيه فيرن ، وتداعبه فيرن .

لو لم أطلق لمشاعرى العنان لاستطعت أن أنفذ نصيحة
جدتى ، فانتظرت حتى يمتحنى القدر أنفه ماعنده وتقبلته
شاكراً ساخرة . . وخيبت أمه قبل أن يخيب أمل .

ولكن لم هذا الخلط من الظروف الماسجة ؟ ألم يجد
بين فتيات مصر جميعاً . . من يضعها فى طريق « ابن صاحب
الدولة » ، الحمام . . سوى ؟

إلى أجزم أن الملايين منهم يتمسكون بذكر مكانى ، ولأنهم
سيحبترونه « لفظة » كبيرة . . فلم لم يختر واحدة منهم . .
ويعتقنى أنا لوجه الله !

إنه أرادنى لأنى لأريده ، ولو أردته لآتته على الظروف .
ومكنا الظروف تأتى إلا أن تهب لنا ما لا نريده .

ولم أذهب بعيداً .. وأما ما حاولت فقط أن أتطر
الأوتويس (رقم ١٤) في محطة مصر لكي أعود إلى بيتنا
في حدائق القبة إلا ورأيت الأوتويس (رقم ١٠) المذهب
إلى مصر الجديدة .. تتواتر على العربدة قلوب العربدة .. دون
أن يبدو (لرقم ١٤) أى أثر ، وفي المرة الوحيدة التي أردت
أن أذهب فيها إلى مصر الجديدة اختفى (رقم ١٠) وأقبل
(رقم ١٤) يتوالى الواحد بعد الآخر .

إذا كانت الظروف تعاكسنا في الأوتويسات ، أفلا يحق
لها أن تعاكسنا في الأرواح ، فمنحنا غير ما نشتهي ؟
ما علينا ..

لقد قضيت ليلة سوداء .. نيا بي فيها المضجع ، وجفاني
المرقد ، فلم أدق فيها للنوم طعماً . وعندما أجهدي السهر قيل
الفجر ، استسلمت للنعاس ، فرأيت في المنام أنى وأحمد كلانا
يركب زورقاً يخوض به عياب اليم ، وأنه كلما حاول أحدهما
الاقتراب بزورقه من الآخر ، قذفته الأمواج بعيداً ، وأحيراً
وبعد أن أصابها الإعياء ، استطاع أن يقترب منى بزورقه ،
وسألني أن أفز إليه ، ومدّ لي يده فأمسكته بيدي ، ووضعت
على حافة الزورق ، وهممت بالقفز إليه عندما علت موجة
عالية أمدت الزورقين ووجعت نفسي أهوى في اليم وقد

جذبتني ممي، وأخذنا نغالب الموج سوياً، وقد تشابكت أيدينا،
حتى غلبنا على أمراً وهوينا إلى القاع .
واستيقظت فرعة مرتاعة، وأما أحسن أني منكم محطة .
وأخذت أنتمل كان رأسي قد ألهيه حتى خبيته .
وأقبلت على جدي فجلست بجوارى، وضمتني إليهما،
وقالت في صوت حنون :
— لا تيأسى يا بنتي .. لا تفقدى الأمل .. سأحاول معه
ما استطعت .

— لا فائدة .. لا تقول له شيئاً .
وبقيت في الفراش ذلك اليوم حتى العاشرة، ثم تركته
أخيراً وكأني قائمة من مرض أفعدني أشهراً طوالاً .
وعند الغداء تحاملت على نفسي ومبطلت إلى الطابق الأسفل
وانتهى الغداء دون أن يتبس أحدنا بيفت شفة .. وقبل أن تترك
المائدة قال أني :
— زكى باشا دعانا إلى الغداء في عربته بكر، وسندمب
من الساعة العاشرة لتقضى هناك اليوم بأكله .
ثم وجه القول إلى أخي :
— أنتحضر معنا ؟
وهزّ أخي رأسه بالرفض وأجاب باقتضاب :

— إلى مشغول غداً .

وقال آبي في لهجة زاجرة :

— إنه يوم خطبة أختك !

ورفع « علي » حاجبيه ، ونقل بصره بين كليسا في دهش
ولم يرد على قوله :

— حقاً ؟ .. مبروك يا عايدة !

وتتمت يوضع كلبات مدغمة خاتمة ، قصدت بها ، الله
ببارك فيك . .

وتركا المائدة ، وصعدت إلى غرقتي وقبعت فيها كأنني
كومة عظام .. أمكذا قضى الأمر ؟ ووقت الكارثة !

ورفعت عيني المبلتير بالدمع إلى السماء وسألها الرحمة !
وخطر لي خاطر أحسست منه بشيء من التشجيع والعزاء .
ونصت إلى « انغام » فتوحات ، ثم أغلقت حجرتي وبدأت
الصلاة .

وأخفت أركع وأسجد ، وذهني شارد ، ونفسي راهنة
ودعوت الله أن يهب لي معجزة تنقذني بما أأما فيه .

وانتهيت من الصلاة . . دون أن يحدث المعجزة ، ولكن
تملكني شعور بالهدوء والاستسلام . والسكينة الناجمة عن
البأس وعن الإحساس بالعجز ، وبأن هناك قوة أعلى تحكم

في مهايرنا .. وأما لا نملك إلا الخضوع لها ، والرضا
بحكمها ...

ودق جرس التليفون ففادرت حجرتي للرد عليه ..
وأمسكت بالساعة في الوقت الذي رأيت فيه أبي يفادر الحجرة
وقد أتم ارتداء ملابسه استعداداً للخروج .

وسمعت في التليفون صوتاً .. أحدث في جسدي رجفة .
لقد تحدث أحمد أخيراً .. ولكن في وقت غير مناسب .
ورفعت عيني خلسة فأبصرت أبي ينظر إليّ متربحاً .
وقلت متجاهلة صوت أحمد :

— آلو .. مين يا فتدم ؟

— أما أحمد يا عابده .. أريد أن أتحدث معك قليلاً .
وأصابني ارتباك شديد .. ولم أدر بماذا أجيبه .
ورغم أني كنت أنلهف على سماع صوته .. وعلى عاداته
بأنني لم أستطع أن أقول أكثر من :
— لا .. ليس الآن .

ودأيت أبي يهز رأسه مستفسراً ويتساءل :
— من ؟

وخفضت الساعة قليلاً . ثم قلت له :
— أحمد يسأل عن .. علي ..

ثم قلت في الساعة :

— إنه غير موجود الآن .. لقد خرج .

وانتظرت برهة لم يجب خلالها أحمد بكلمة واحدة ..
وسمعت الخط يفتق .. فوضعت الساعة بكون وعدت إلى
حجرتي .

وأحسست بهوم الدنيا كلها قد أثقلت كاهلي وأنقضت
طهرى ، وبدأ لي أن الظروف قد ناصبتني العدا .. حتى كلمات
مسلية في التليفون قد أثبتا على .

وكنيت أعرف أحمد تماماً .. وأعرف كبريائه وقوة
إرادته ، وقدرته على كبح جماح نفسه وعلى تحمل أحزانه ،
وكنيت واثقة من أنه لن يخطو إلى دارنا بعد أن خنله أبي ، وأنه
سيترفع عن الحضور إلينا مهما كلفه ذلك من مشقة وحزن .

كنيت أعرفه صبوراً ، شديد الجلد .. وكنيت واثقة من
شدة حبه لي .. ولكي كنت أعرف كذلك أنه لا ينبغي
ولا يطاق له رأسه ، وإنه لا يذل نفسه ، بل يكتنم لوعته ويكبت
حزنه ، وكنيت أعرف أن أقصى ما سيفعله هو أن يحذني
بالتليفون ليبتني بما حدث وليعرف رأيي في الأمر .

وكنيت أتلطف على مكالمته .. لا لأن لدى ما أقول ،
ولا لأن لي رأياً في الأمر أود أن أعلنه به . فقد كنت أشعر

أنى بلا رأى ولا حول ولا قول .. وأنى أشبه بالشاة ..
لا تملك إلا أن تسير إلى مصيرها المحتوم ، وأن تمثل صاغرة
إلى مديّة القصاب .

لم أكن أنلف على مكالته .. لآنى أود أن أدر أماً أو
أرم خطّة ، بل كان كل ما أوده .. أن أسمع صوته .. وأن
أستعين منه بكلمات تعينى على السير فى القفار الموحشة التى
أوشك أن أخوض غمارها .. وتكون زادى فى الفرقة
وسلوق على البعد والوحدة والوحشة .

وأدركت أنه لن يحاول — بعد ردّى عليه فى التليفون —
أن يعيد الكرة .. وأنه سينأى بنفسه عن نأياً تاماً
وأحسست بالتمرد والثورة .. وتملكنى حنق شديد .
أوفد حرمت .. حتى كلمات وداع .. هى زادى
إلى الأبد ؟

وسمعت صوت أقدام أبى تهبط الدرج إلى الحديقة ، ثم
سمعت صوت العربة تتحرك .. فانطلقت إلى التليفون بسرعة .
إن الفرصة سانحة لكى أحدثه .. ولكن أين أستطيع
أن أجده ؟ .

من أين كان يتحدث ؟

إنى أعرف له رقمين : رقم الشكنات ، ورقم اليس ..

والساعة تكاد تبلغ السادسة وهو ينتهي من طابور بعد الظهر.
كما قال لي - في الخامسة والصف - .. إذا فلا شك أنه قد
تحدث من إحدى الرقبن .

ولكن من يدري .. قد يكون تكلم من تليفون
في الخارج .. أو لعله قد خرج بعد أن تكلم .
على أية حال سأحاول .. فتلك هي بقية أملي .
وأدرت رقم الميس .. وأخلفت أنصت إلى رنين الجرس
فترة طويلة .. وأخيراً أجابني صوت :

- مين يا فدم ؟

- أيمكن أن أتحدث إلى الملازم أول - أحمد عبد السلام ؟
- وإذا لم يكن موجوداً .

وإذ تبكت برهة إذ لم أتوقع هذا السؤال ، وقلت مترددة :
- إذا لم يكن موجوداً سأحاول أن أطلبه مرة أخرى .
- ألا نقول له شيئاً ؟
- لا .

- لا بد من أحمد عبد السلام باللات .. ألا يصلح أحد

غيره ؟

وبدا لي أن المتحدث أحد زملاء أحمد .. وأنه يطلبني
إحدى الفتيات للعبات .. اللاتي أباي أحمد أنهن كثيراً

هايشا كسن الضباط في لميس إلى حد أن إحداهن كانت تعرف
أدوار نوبتيهم ، واحداً واحداً ؛ ولم أشك في أن الضابط
الذي أجابني يحيى بحديثه مداعبة وغزلاً .
وأحسست بالدمع يكاد يطفئ من عيني ، وأجبت بصوت
عقيق :

.. أرجوك إذا كان موجوداً دعني أتحدث إليه .. إنني
أريسه في مسألة هامة .

ورجرت طبعي الحادة من عيئه . وقال في لحظة رقيقة مهذبة
معتذراً :

— أنا متأسف يا فندم .. لكن أحمد قدّم نفسه أمس إلى
الجنرال السواري لأنه حقل إلى هناك وأظنه نوبتي اليوم .
.. أأستطيع أن أعرف رقم تليفونه ؟
— أجل .

ثم أمداني الرقم .. وشكرته ، ووضعت السماعة .
وعند أطلب الرقم الجديد .. وردّ على صوت سألته عن
أحمد فأجابني بعد فترة :

— حضرة الضابط معاك يافندم .
ثم سمعت صوت أحمد :
— آلو .. مين ؟

— أنا عايدته

ولم أشك في وقع الإسم ولصوت على مسمعه ، فقد
مصت فترة قبل أن يجيب بصوت خافت حاول جهده أن
يكسوه ما استطاع من الهدوء :

— أجل يا عايدته ؟

— أنا آسفة .. لم أستطع أن أحدث لأن أبي كان يقف
أمامي .

— لقد استطعت أن أدرك هذا .

وانتظرت أن يقول شيئاً يطرق به الموضوع ، ولكنه
صمت .. فلم أجد بداً من أن أبدأ أنا الحديث فقلت :

— لمك لم تنبئني بما حدث بينك وبين أبي .

— ألم تعرفي بعد ؟

— عرفت بطريقة غير مباشرة !

— ليس عندي أكثر مما عرفت .

— أود أن أعرف تفاصيل الحديث .

— تفاصيل لا تسر .

— كيف ؟ ماذا قلت له ، وماذا قال لك ؟

— قلت له ما يقوله كل رجل عاقل يتقدم لخطبة فتاة .

— وماذا قل هو ؟

— لا داعي لأن ننكح الجرح .

— أرجوك .. قل لي ! .

— قال لي ما زلت صغيراً ، وأن مرتبي محدود ، فلما

قلت له إنني سأقاضي خمسة وعشرون جنياً ، ضحك في سخرية
وأجابني إنني لا أستطيع بهذا المبلغ أن أنسى بيتاً محترماً دون
أن أكوئ عائلة على أحد ، ونصحني أن لا أفكر في الزواج
الآن .. وأنه خير لي ألا أرهق نفسي بعبد لا قبل لي على
احتماله .. ثم قال إنه لا يفكر في زواجك الآن لأنك ما زلت
صغيرة .. فلد قلت له أنه يمكننا أن تتم الخطبة الآن على أن
يؤجل الزواج كما يشاء .. أجاب بأن هذا ليس من مبدئه ..
فإنه يكره أن تطول الخطبة .. ويرى أنها ستشتتلك عن
الدراسة .. وقلت له إنني أستطيع أن أنتظر ، فأجابني في حدة
وهو يتحفز للقيام كأن صبره قد عيل .. إنه لا يستطيع أن
يعد بشيء .. ونصحني ألا أتعلق بالآمال .. وأن خير
ما أفعله هو أن أصرف نظري عن هذه المسألة ، وأني إذا كنت
مصرّاً على الزواج فهناك الكثيرات من الفتيات ممن يصلحن
لي .. هذا هو كل ما قلت ، وكل ما قال .. تلك هي التفاصيل
المرّة التي لم يكن ينقصها .. سوى أن يطردني من البيت ..
ولقد طردني فعلاً .. فقد قال لي إنه مضطر إلى الخروج

لأن لديه موعداً هاماً .. ثم شدة عني يدي قائلاً ، دعنا نراك ،
وهو يكاد يعني بها ، لا تدعنا نراك ، ،

وكنيت أسمع حديثه وأنا أحس به بحز في نفسي ويليه
رأسي ، وعند ما انتهى منه قلت أنتم معذرة :

— إنني آسفة جداً .. كان يجب ألا أعرضك إلى مثل
هذا الموقف .. ولكنني قلت لك إننا يجب أن نترك حديق
، نحس البعض ، فأبيت إلا أن تتقدم بنفسك .

— نتيجة واحدة ، ، كان لا بد لنا من تحمل الصدمة ،
ما دامت نملك هي آراؤه ومبادئه . ماذا ستفعلين أنت ؟

ماذا سأفعل أنا .. ليتني أستطيع أن أفعل شيئاً لو أن
لي حرية التصرف . ما كانت لي من حاجة إلى أن أحدثه
في التليفون ، بل لقرويت من الدار وذهبت لأرتقي به
أحضانه إلى الأبد .

وأدركت من حديثه أنه لم يعلم شيئاً عن الخطبة التي توشك
أن تحدث ، والكارثة التي توشك أن تحدث .. ولم أجد لدي
الشجاعة الكافية لأن أبينه بها .. فقد كرهت أن أطمعه يدي
بالسهم المسموم .. وكنيت مازلت آمل في معجزة من السماء
توقف المصاب .. إن دعواتي إلى الله وصلواتي الحارة لا بد أن
تستجاب .. إنها مدعيتي الوحيد ، إنها كل ما أستطيع أن أفعل

ولم يستغرق مني التفكير سوى ثوان معدودة ، وأجبت
على سؤاله :

— وما أستطيع أن أفعل .. سوى أن أترك الأمر لله
والظروف ؟

— أعليتنا أن نخضع ونستسلم ؟

— هل لدينا سوى ذلك ؟

— إذا كان هذا هو رأيك .. فكأ ترين .

وصمت .. وصمت .. وكانت تجيش في نفسي عواطف

شتى .. وكنت أود لو ناجيته بأعذب الألفاظ .. ولوركت

أمام قدميه وأغرقت يديه باقبل .. ولكن الألفاظ لم

تسحقني ولم أجده ما أصح به عن مشاعري .

وطل الصمت حتى لم أجده ما أنطعه به سوى تلك

الكلمة البليغة :

— دعنا نراك ؟

— إن شاء الله

— مع السلامة .

— مع السلامة .. يا عبيد .

ووضعت الساعة ، وأما حنقة على نفسي .. كان لدى

الكثير مما أود أن أفوه ، ولكني لم أفعل شيئاً .. كسب أعظم

أنه يروح تحت أعباء الحزن والفشل .. وإن كان يتصنع
التجملد وقلة الاكتراث . كنت أود أن أغسل همومه وأرسل
أحزانه . وأن أقول له إنى سأحبه دائماً ، وإنهم يستطيعون
أن يتحكموا فى جسدى ، ولكن قلبى سيظل ملكاً له ..
لا يخفق إلا بحبه .. ولكنى لم أجسر حتى أن أقول له حقيقة
ما يوشك أن يحدث .. كنت جبانة مترددة .

وهكذا حرمت نفسى العزاء الأخير .. ملوق التى
كنت أتوق إليها وأتلهف عليها .. حرمت نفسى متاجاته
الغنية ، وحديثه الخلو .. أعز متاع لى فى هذه الحياة ..
وختمت حديثى معه تماماً كما ختمه معه أبى . دعنا تراك ..
أو على حد قوله . لا تدعنا تراك .. وأدركت أنى لن
نمراه إلا بفعل المصادفات .. وتدير الظروف .. فما أظن
كبريائه إلا فارضة علينا فراقاً أبدياً .. ألم يقل لى هو
نفسه ذات مرة إنه خالص أعز صديق لديه لمدة عشرة
أعوام لشعوره أنه أهان كبريائه .. وأنه اسمر يتجنب
رؤيته ولقاءه . رغم حبه له - حتى يومنا هذا ؟ ألم يقل
لى إنه ليس هناك فى هذه الحياة ما يستطيع إذلاله .. حتى
أنا .. وأنه على فرط حبه لى يستطيع أن يرغم نفسه على
نسيانى .. مهما كلفه ذلك من عناء ومشقة ؟

وأحسست أن ذهني يوشك أن ينفجر .. وذهبت إلى
حجرتي ، وارتعيت على الفراش كافي في شبه غيبوبة .
وفي الساعة التاسعة عاد أبي إلى البيت ، ولم أجد بداً من
التحمل والنزول للمساء ، وكنت أشعر أني أتحرك كالاشباح .
وسألني أبي خلال الطعام :

— ما بك ؟

— لا شيء !

— لم لا تأكلين ؟

— أحس بوعكة بسيطة .

ثم تركت المائدة .. وصعدت إلى حجرتي .. وأويت إلى
الفراش ، وبعد برهة سمعت صوت أبي يصعد الدرج . ثم سمعت
صوت جدتي تناديه . وذهب إليهما ، وكانت حجرة جدتي
الاصقة لحجرتي وكان يفصل بينهما باباً معلق .

فوجدتني أرغف السمع وأنا أسمع جدتي تقول له :

— اجلس .. أريد أن أحدثك .

— أنحسين بشيء ؟ كيف صحتك ؟

— ليس بخصوصي أنا .

— ليس بخصوصك ؟

— أجل .. أريد أن أحدثك بخصوص عايدته .

- ما لها عأجده ؟
- ألم تلاحظ عليها شيئاً ؟
- لم تأكل في العشاء ، وقالت لي إن بها وعكة بسيطة !
- لأنها لم تأكل منذ يومين
- وله ؟
- ولم تتم طول الليل !
- ما هذا الكلام ؟ . ماذا تقصدين به ؟ لم تأكل
- ولم تتم ؟ . ماذا يمنعها ؟ أمريضة هي ؟
- ليست مريضة ..
- أفصحى إذا عما تريدن قوله ؟
- ألم يحضر إليك أحمد لخطبتها ؟
- أحمد !! أجل لقد كلننى بالأمس .
- وماذا قلت له ؟
- ماذا قلت ؟ أتريدن أن أقدم لك حساءاً عما قلت ؟
- أريد فقط أن أعرف !
- رفضت بالطبع !
- وله ؟
- لأنه ليس هناك وجه للمقارنة بينه وبين ابن زكى باشا
- فلا مستقبل له إلا ذلك للترقى المحضود .. ولا دخل له إلا ذلك

الراتب الثابت .. ولا شيء يرجي منه قط .. هل تريد أن
تقضي عمرها زوجة صاغ أو بكباشي ، وتظل تعدو وراء
من العرش ، لمسى مطروح ، لمقباد إلى أدنى بمشة
الضباط .. أي أحق بفضله على ابن رئيس وزراء ؟

— هذا من وجهة نظرك أنت .. فريش الوزراء قد
يفعلك أنت .. ولكن الذي ينبغيها هو زوجها .

— بل رئيس الوزراء سيفعلها أيضاً .. فهو يستطيع أن
يجعل من ابنه شيئاً مذكوراً .. يجب أن نتطلع إلى أعلى ..
أكنت تريدني أن أرفض ابن ركي باشا .. لأجل أحمد ؟
إني لم أجن بعد !

— ولكن لست أنت الذي تنتق .. كان يجب عليك
أن تختارها بين الاثنين .

— لقد استشرتني في خطية ، تهاني بك .. رغم أني
كنت أستطيع أن أبت وحدي في الأمر .. لأنني لست
بالغبي الفاقدة للتمييز ، ولا بالذي لا يقدر مصلحة ابنته .

— أين هذه الاستشارة التي تحدث عنها ؟ لقد كان
حديثك فرحاً عليها .

— لقد سألتها عن رأيها فأجابت بالقول !

— ولم لم تأخذ رأيها في أحد ؟ لم لم تجعلها تفاضل
بين الاثنين ؟

— ليس هناك محل للفاضلة .. ثم إن أدري متبنا
بهذه الأمور .

— إنها هي أدري بنفسها .. إنها تفضل أحمد لأنها تحبه .
وصاح أب في حلق شديد :

— تحبه ؟ من قال لك هذا ؟ أمي التي قد قالت .. ؟
أمن أجل هذا لا تنام ولا تأكل ؟

— هدى .. من روعك .. وانخفض من صوتك .. وكف
عن هذا الصراخ .. إنها لم تقل شيئاً .. ولكنني أستطيع أن
أفهم مشاعرها دون حاجة منها إلى التصريح .

— كني عن هذا الهراء .. لا أريد أن أسمع أكثر
من هذا .. هذه هي التريفة التي أجهدت نفسك فيها ؟
أنتسحين لنفسك بأن تقولين إنك تدركين أنها تحب ؟
وإنك تفهمين مشاعرها ؟ لقد أفدتها بتدليك .. لقد
جنيت عليها .

— أمي جنابة أن تركها تزوج من تكاه ؟

— جنابة أن أسمع لها بهذه المسخرة !

— بل الجنابة هي التي ستفعلها أنت .. إنك مخلوق

أناي منذ الصغر .. إن أنايتك قد أفسدت حياتك
وحرمتك المعيشة الهادئة وستفسد بها حياة ابنك .. أنت
لا يهمك سوى نفسك ... تنظر إلى كل شيء بمنظار
هصلحتك .. ولا تفهم الأمور إلا من وجهة نظرك
أنت .. أنت تريد أن تفاخر بنسب رئيس وزراء ..
وتتظن من وراء النسب أبهة وسلطاناً ونفوذاً .. أنت
تريد أن ترضى غرورك وأنايتك ، ولكك لم تحاول قط
أن تفكر بعلميتها أو تعتبر مشاعرها .. حتى لكأنك بك
أنت الذي متزوج لاهي .. خير لك أن تدعها هي تبت
في مصيرها .

— لقد بت في مصيرها وانتهى الأمر .. لا أريد أن
يناقشني إنسان في هذا الموضوع ، وخير لك أن تكفي
نفسك مشقة التدخل فيه ... أنبئها أن تستعد للسفر في
الساعة العاشرة صباحاً .

ثم ضحك ضحكة ساخرة وأردف قائلاً :

— لا تخشى عليها من الأرق أو الجوع . فستنام بعد
ذلك ملء جفניה .. وتأكل كل ملء بطنها .. دعها لي أنا ..
لا تحملي همها .

وساد السكون بعد ذاك .. وانتهت المناقشة التي عرضت
خلالها قضيتي على بساط البحث .. وانتهى الأمر فيها بتأييد
حكم الإعدام .

لم يخذلني قول أبي كثيراً .. فما كنت أتوقع سواه ،
وما كنت أتظر منه إلا مثل هذه الثورة والسخرية .. وثبتت
لو لم تفاجئني جدتي .. فقد كنت أود أن أساق إلى «مسيرى»
المحتوم بلا ضجة ولا فضيحة .. وألا أعرض نفسي لمثل هذه
السخرية المريرة .

مافائدة المناقشة والجدال ؟ متى كان للشاة أن تناقش
قضاياها ؟ وللحكوم عليه بالإعدام أن يجادل جلاده ؟
يجب أن أتجاهل وأن أتماسك .. يجب أن أكنم مشاعري ،
وأحرق قلبي .. بل يد عمرو لا يبدى

وأغضت عيني .. واستمر ذهني يتخبط في أفكاره
واستعصى النوم علي .. واشتد في الإنهالك .. ونهضت إلى
النزقة أخيراً أناجي السهم ، وأسطهم السماء الرحمة وأسألهما
السلوان ، وملأت صدري بنسيم الليل الرطب عله بلطف
حرارتي ويهدي من نائرتي ، ثم علت إلى الصلاة أستعين
بها على إطفاء حرقتي ، وتخفيف لوعتي ، وأقطع بها الليل
للطويل ...

وأخيراً منحني الله نعمة النوم ، ففعلت بضع ساعات ،
غارقة عن سلطان الهوم . ، مستريحة من الأثجان
والأحزان . . ليت الله يتم نعمته فيمنحني الراحة الكبرى ،
والهدوء الأبدي .

استيقظت صباحاً فإذا بالشمس قد ملأت الحجر . .
ونهضت متألقة وبني إحسان المسوق إلى مشقة .
لا . . لا . . يجب أن أتجد . . يجب أن أكون نرجعة . .
لرأدع الصدر يشمت بي . . إن الشهداء ياقون لى
ساحة الإعدام وهم يتسمون . . فيجب ألا أقل عنهم
شجاعة .

يجب أن أتم الفاق والرياء . . وأن أيقم وقلبي فأنح
بك ، وأن أضحك ونفسي موجعة دامية .
يجب أن أجعل قوادى يحمى وقلبي يتحجر .
ومثل هذه الأفكار بدأت أستعد للسفر .
وقبل العاشرة . . تحركت بنا العربة . . قاصدة إلى عزيم
صاحب الدولة ، قرب المنصورة .
وفي الطريق أخذت أرقب الأشجار والمساظر فتوالى
على . . وقد أسندت رأسي على مسند العربة ورحت في شبه
غيبوبة .

وأخيراً توقفت العربية ، وصمعت أنى ينادينى ويأمرنى
بالدول . . وأبصرت « صاحب الدولة » فى استقبالنا
وبجواره « سوسو هانم » و « توتو بك » خطيبى المبجل .
إن ذاكرتى لاتكاد تبنى من ذلك اليوم الأسود شيئاً ،
إن ما وعاه دهنى من العزبة والبيت ومن كل ما أنصرته
يومذاك لا يزيد على صور باهتة شاحبة ثقيلة ممتعة .
أما الشيء المحسوس الذى عدت به ، فهو خانم . . دس
فى أصبعى .

خانم ؟ استغفر الله ، لقد كان قيداً أطبق على يدى
أو حبلاً لف على عنى . . حقاً ما ظننت قط أن الإنسان
يمكن أن يخفق من إصبعه .
لقد عدت إلى القاهرة ، وأن لا أحمل من الرحلة النعمة
سوى هذا الخاتم المحسوس ، والعيد الثقيل . . ماذا كنت
أريد شراً من ذلك ؟





الطير يفتد

١١



إن القاهرة .. وأنا أتخيل أن الأمر كله ليس
عمر من سوى كائن من خيف ، أو حلم مزعج .. وأتوهم
كل ما حولي أشباحاً وأطياناً . لكن شيئاً واحداً هو الذي
كان يبعدني إلى وعي ويشعري بالواقع المرير ، هو القيد الثقيل
الذي كبلت به والذي كان يحز في أصبعي وفي قلبي .
أجهدني مشقة السفر وضجيج الحوادث التي حفل بها
يوم ، فأوبت ! فراشي مكدودة متعبة ولم يستص النوم
على جسدي المخطم فسرعان ما أغضض الكرى عيني ورحلت
في سبات عميق .

حيا الله اليوم .. لقد كنت أفضي فيه أسعد أوقاتي ، كان
ينفذني من شقاء ملح وعناء مقيم .. كنت أحتصر به يقظتي
التيمة ، وكنت أخرج به عن نطاق التفكير فيما أنا محاطة به
من وقائع مروعة . وقد بكرني أحياناً .. فيب لي في الأحلام
لقاء مع أحمد ، ويعيد إلي ذكريات خوالي .

واستيقظت في الصباح وأنا أشعر ببعض الراحة والهدوء
والقدرة على الصبر والتجمل ، ونهضت أباشر أعمال في البيت
وأعطي أوامري للخدم كما تموت أن أفضل من قبل عازمة
على أن أكف عن ذلك الإنهيار ، والآن أعطي أن فرصة

للسخريه أو الثأب أو التحكم وأن أدو طيعية منها كفى
الامر .

وتناولنا الإفطار ، وتقبلت تهنئة أحي وأنا أرسم على
وجهي ابتسامة متكلفة مصطنعة ، وحس أن يتناول الشاي
ويتشغل بقراءة صحف الصباح . ثم رأته يدفع إلى ياحداها
وقد وضع أصبعه على مكان معين .

وقرأت نبأ خطبتي في أخبار المجتمع ، ولم يكن في النبأ
- بالطبع - شيء جديد ، ومع ذلك فقد أحسست منه
وخزاً في قلبي .

ألا يحدث لكم أن تكونوا على علم بوفاة إنسان ..
ولكنكم مع ذلك تتأثرون بقراءه لعيه أو تلاوة رثائه ؟
لقد كان للخبر في نفسي وقع السي ، ووجعة الرثله .
وتذكرت أن أحمد سيقراً النبأ ، كما قرأته ، وتصورت
وقعه عليه ، فأحسست بهرحى يدي وفرحى بنكا . وكان
الكارثة قد وقعت مرة ثانية .

كنت ما زلت أرجو أن يحدث شيء .. كنت ما زلت
أتوقع معجزة السماء .. ووددت لو خفي الأمر على أحمد ،
حتى تحدث المعجزة .. فأقص عليه المسألة كلها .. وكأنها قصة
مسلية .

أما كان يجب على أن أحبره ، حتى لا يطنى مشتركة في
الجرم ، ويتوم أنى خدعت ؟
وشرد ذهني ، فأخذت أنخيله وهو يقرأ النبا ، وكيف
سيحاول التجلد والخامسك ، وهو مروّع محزون .
وطويت الصحيفة في صمت ، ووضعتها على المنضدة ،
وصعدت إلى حجرتي وكأني قد شيعت ميتاً .

بدأت بعد ذلك فترة من المشغول ، فقد أصررت أنى على
مبدئي في أن يقصر فترة الخطبة ما أمكن . ورأيت نفسي أهمك
في أشياء مختلفة متباينة تصعب كل وقتي ، ولا تترك لي فرصة
التفكير في أحزاني .

كنت منهمكة في أحب ما يمكن أن تهلك فيه أبة فتاة
مقدمة على الزواج ، وهو التجهيز لعروسي ، شراء الأقمشة ،
والنقصير ، وقياس البروفات ، وامتطاء الأثاث والفضيات
والأثاثم المختلفة ، وكان لي مطلق الخيار أن أطلب ما أريد
بلا قيد ولا شرط ، ولكي لم أطلب شيئاً عظيماً ، بل كنت
أوفق على كل ما يقدم لي .

لقد كانت العملية في حد ذاتها عملية مسلية ، شغلت كل
وقتي ، وكان تأثيرها مسلوياً لتأثير النوم ، وهو إنفاذي من

هنا التفكير في الواقع ، ولكنى مع ذلك كنت أحس أنها
مستتهى يوماً ما .. وستكون نهايتها بداية الكارثة الحقة .

كنت أتمنى أن يطول التجهيز للزفاف إلى الأبد .. فقد
كنت ما زلت آمل في الخلاص .. وكان إيماني في رحمة السماء لم
يقبض بعد .. وكنت أحد في فترة التجهيز فصححة الأمل .. وكانت
رغبتي في أن تطول تلك الفترة أشبه برغبة إنسان يشيع عزيزاً
لديه فهو لا يريد قط أن تنتهي الجنازة حتى لا يصل إلى القبر بل
يريد أن يطول به السير إلى ما لا نهاية .

وكنت أفكر أحياناً .. كيف كان يمكن أن نكون تلك
الفترة .. فترة الاستعداد للزفاف .. لو أن الأمور سارت في
طريقها الطبيعي .. ولو أنه لم يحدث هذا الخلط من القدر ؟

كيف كنت أفضى فترة التجهيز .. لو أن أمية النفس
تحققت .. وتمت خطبتي لأحمد ؟ أى نعيم كنت أفرح فيه لو أن
هذا المرح والضجيج كان استعداداً للزفاف إلى أحمد ؟

ولكن لا .. لا أظننى كنت مهتمة كثيراً بهذه التوافه .
فقد كانت سعادتي بأحمد نفسه تطفئ على كل هذه الصدايات
والماديات .

لقد كان هو وحده الأمل المنشود .. كان يكفى
من أعيش معه في صحراء جرداء مقفرة موحشة ،

في الحصول على الرزق سوباً . ونجاهد في سبيل العيش معاً .
إن كل هذه المسع الزائفة تصال بجواره . إنها لا تستطيع
أن تجلبه ، ولكنه يستطیع أن يجلب حیراً منها .. وهو الشديد
الإيمان ، لقوى الأمل ، الآبى النفس ، الكريم الخلق .

وكنتم أحلو إلى نفسى - خلال هذه الممعة من
المشاغل - في بعض الأمسيات ، فأجلس في الشرفة المحبوبة ،
وأندكر حديثه عن الأمانى التي كان يأمل تحقيقها ، والتي يريد
أن يعيش بها زمناً رغداً .. ويعمن في الخيال ويداعبني
الأمل ، فيذا في أغرق في أحلام عجيبة .. وأتحيل نفسي لينة
الرفاق ماكنه حريصة .. وقد فقدت كل أسل . ثم بطرق أذني
وسط ضجيج الناس وصخبهم وقع حوافر خييل تفرع
الأرض وأسمع صهيلاً وهمية . ثم أبصره بفاتمة المشوقة ،
وحذاته الطويل ، كفرسان البصور الوسطى .. وقد أمسك
بيده مدسه .. والقوم قد خيم عليهم الصمت وكان الطير علا
رؤوسهم ، رفعوا من الدهش أرواحهم . وحلسوا في تقاعدهم
لا يتحركون كالنمل .. وهو يفتخر ، فخراً باحماً .. فيرفقه
بين ذراعيه .. ويمسك القوم المشدوهين المبهوتين ، ويخرج
في من وسط الضجيج والأوار ، إلى هدوء أميل وطلة
فيرك جواده ، ويضعني أمامه .. ويتطلق .

ينطلق .. وينطلق .. وينطلق .. لا يستقر أبداً على
ثابت الأرض .. وأمكت مهبية في أحضانها وهو ثابت على
حواده يسابق به الريح .. حتى يستقر بها المقام في بقعة خلت
من السكان وهجرها القطان .. أياً كانت هذه البقعة — حتى
لو كانت قهراً تتوسد أحجاره سوياً — إنها أحب إلى نفسي
من جنة الخلد .

فلك كانت أماناً المحرمة .. التي كنت أعزى بها نفسي
وأمنحها بتصورها .. زمناً دغداً .. وأنزعها — للحظ ..
من وسط هذا الشقاء انذى أيسنها وأذبل عودها

وكننت خلال هذه الفترة أدعى من أن لآخر .. مع
الخشيب الكريه .. إلى حصالات مختلفة .. كنت أجلس
فيها شاردة الذهن ، صامتة اللسان لا أجيبه .. إلا بقدر
ما أسكنه .. وعودت نفسي طابع ابتسامة ترسم على شفتي ..
دون أن يكون لها أى صلة بمشاعري .. بل كانت مجرد
طابع ، أو قناع أضعه على وجهي .. بلا أقل جهد
ولا مشقة .

وأخيراً حدد موعد الزفاف ولم يكن قد بقى عليه سوى
بضعة أيام .. عندما أبصرت أخى ذات مساء .. قد ارتدى
بدلة السهرة وأقبل على يسألني عن « بيوت » أى الأسود

الذى يرتديه مع قبض السيرة . . لأنه لا يجد . بيوه . .
وسأله وأنا أعطيه ، البيوت . : إلى أين هو ذاهب ؟
ولم أدر وأنا أوجه السؤال . . أنى كنت كفى يرفع . عز
جمل - طابة الأمان لقبيلة ، فإذا بها تنفجر فى يده
وتتركه حطاماً .

ماذا تصورون إجابته 119

لقد قال بساطة :

— مدعو إلى زفاف أحمد ، إنه سيتزوج الليلة .
لقد انفجر فى ردة . . الذى ألقاه بمنتهى السهولة
والبساطة . . كما انفجر أشد لألغام فنكا .
ماذا روعى من البأ ؟ . .

ألم أكن أنا نفسى أوشك أن أرف بعد بضعة أيام ؟
أكنت أنتظر منه أن يقضى عمره أعزب ؟
ماذا يصيرنى إذا تزوج الآن ، أو تزوج بعد حين ،
ما دمت قد فقدت الأمل فيه . . وما دمت أبادئة بالخدلان ؟
والكنى مع كل ذلك ، وسدت نفسى أوشك أن أتهاوى
بعد كنت أشعر — مع كل ما حدث — أنى لم أفقده
بعد ، وأنه ما زال هناك أمل .
لما الآن ، فقد دوت الريح أمل .

ماذا يمكن أن آمل ، بعد هذا ؟
لقد أصبح أحمد - أو يوشك أن يصبح بعد بضع
ساعات - زوجاً ، لقد أصبح إنساناً ، لا أمل لي فيه ،
ولا رجاء لي منه .

وأحسست من تلك الصدمة أني بت على استعداد لأن
أثور على كل شيء ، وأحطم كل تقليد ، وأن أواجه أبي
وأقذف في وجهه بكل ما يحول بحاطري ، وأن أقول له إنه
رجل أمانى ، وأن أطلق هاربة من البيت ، متحدية كل قوة
وكل سلطان . . لقد أعطيت الصدمة قوة غارقة ، ووهب لي
اليأس ثورة عنيفة .

ولكن ما الفائدة ؟

ما الفائدة ، وقد أضحي أحمد منك سواى ؟
ماذا يمكن أن أرجو منه ، وقد أضحي زوجاً ؟
لقد استطعت أن أبتعد أمام كل ما سبق من الصدمات ،
أما هذه الصدمة فقد جعلتني أنهار تماماً

وانسكأت على المنضدة وأمسكت بها ، حتى لا أتناهى
على الأرض ، وأحسست بحلقى يجف ، وهتفت بصوت
خافت مجروح :

- أحمد . . سيتزوج ؟

وبهت أخى من طبعى ، وروعه شحوب وجهى ، وترك
اليون يسقط من يده ، ثم تقدم إلى وأمسك يدي وسألى
فى دهش ؟

— ماذا بك يا غايده ؟ تعالى اجلسى على الأريكة .
وحاولت أن أتحمل على قدمى ، ولكنى تهاويت على
الأريكة .

وعاد على ، يتساءل فى فزع :

— ما بك . . . تكلمى ؟

وبلا إراحة وجدت نفسى أردد :

— أحمد . . . سيتزوج ؟

وأحسست بشفتى تلتصقان . . وعضضت شفتى السفلى
حتى كدت أدميها . . محاولة أن أكرم نوبة البكاء التى توشك
أن تحتاجنى .

وجلس أخى بجوارى وضمنى برفق وهنقه بحنان :

— غايده ؟ .. غايده ؟ ما بك !! تكلمى !! قولى شيئاً .

وبكر قوله اخنوخ منبع الدمع فى مقبلى ، فلم أشعر إلا
وأنا أنشح . . وادمغمت فى لبكاء أرتجف بين يديه كريشة
فى مهب الريح .

واسمر أخى بضمنى إليه وبربت على خدى حتى هدأت .

ثم مدّ يده إلى ذقني ، ورفع وجهي ونظر إلى عيني
المغرورقتين وبدأ لي أنه قد فهم كل شيء ، وحس قائلاً :

— لم لم تقولي لي .. لم لم تتحدثي من قبل .. لم
رضيت بخطبتك ؟

— وما الفائدة ؟

وبدا عليه الحنق وقال بحدة :

— ما الفائدة ؟ .. هذا مصيرك .. مصيرك أنت
وحبك ! أنت التي ستشقين .. أو تسعين به ! كيف تخضعين
صاغرة ذليلة .. دون أن تعترضى ، أو تنبسي ببنت شفة ؟

— وماذا كنت أقول ؟

— ماذا كنت تقولين !؟ توري وقاوي .. حطمي كل
شيء .. اصرخي .. استجدي .. هذه حياتك .. أتركينها
تذهب سدى !؟ إننا لم نعد بعد في زمن الاستعباد .. كيف
ترغمين على زوج لا تريدينه .. هذا منك جبن وخور .

— لقد حدثته جدتي !

— وماذا قال ؟

— سخر وثار .. وقال إن الأمر قد انتهى ، وإس
لا أحد أن يعترض عليه . وإنه هو أدرى الناس بمصلحتي .

— وماذا ستفعلن ؟

وتهلكت في يأس وأجبت :

— لا شيء .. ماذا أستطيع أن أفعل ؟ لقد قضى الأمر
وليس أمامي سوى الخضوع والاستسلام .. هذه مشيئة الله .
ورأيتني يطرق برأسه ، وقد بدا عليه الشقاء والحزن ..
وكرهت أن أغرقه في أحزاني ، وأن أشركه في مصابي ،
فقلت وأنا أتصنع الجملد :

— قم .. يجب عليك أن تذهب .. كل شيء سيهون ..
الزمن كفيل بمحو كل شيء .. إنه ينسينا ما نحب ويعودنا
ما نكره ..

كان مجرد كلام أعزى به نفسي ..

كلام هراء .. كنت آخر من يصدقه أو يقتنع به
أي زمن هذا الذي ينسينا ما نحب ويعودنا ما نكره ؟
أهناك شيء يمكن أن ينسيني أحمد .. ويعودني البلية
الأخرى ؟

ونفض أخى .. وقد ألقى بالبيون ، على الأرض ..
سار إلى حجرته بخطوات متعاقبة .

ودلفت إلى حجرتي .. وارتيمت على فراشي .. كأنني جثة
هالمة .. ولم أحاول أن أخرج إلى الشرفة .. ولا أن أضرع
إلى السماء ، أسألها الرحمة . ولم أحاول أن أصلي أو أدعو الله ،

لقد كنت من كل شيء . . . وكفرت بكل شيء . . . ولم أعد
أؤمن لا بالسما ولا بالمعجزات . . . ولا عدت في حاجة إليهما .
لقد حطمتني النيا . . . وجعلني بلا حس . . . وأفقدت كل
أمل ، وأطفا أمانى كل شعاع . . . وطمس كل بارقة .

لم فعل أحمد هذا ؟ . . . لم تعجل ؟ . . . ألم يقل لي إنه
س يدفعني إلى الزواج إلا الحب ؟
أترأه قد أحب ؟ . . .

لا أظن . . . أترأها الرغبة في النار لكبريائه الجريئة
وكرامته المهدرة . . . والرغبة في أن يكون هو البادي
في الزواج ؟ .

أترأه قد تزوج لإعاطي والانتقام مني ؟ بعد أن أناه
بأخطئي ؟

ولكن ماذا ؟ . . . ما حيلتي في الأمر ؟

لشد ما أخطأت بعدم إعلانه بالخطبة . . . كان يجب أن
أخبره بها وأوضح له ظروفها ، وأبين له أي مكرمة عليها . . .
وأني لم أخدعه ، ولم أفصل عليه « توتو » .

إني حتى الآن خبئة من ذكره اسمه . . . ولكن ماذا
أسميه ، وأبوه نفسه كان يدعوه به . وإذا كان اسمه الآخر
« تاتى » ، شراً منه . . . فبماذا أسميه ؟

كان يجب أن أوضح له الأمر بنفسى وأبشبه أنى سأظل
مخلصة له أيد الدهر ، وألا أتركه يفاجأ باللبا فى الصحف . .
فأظلم نفسى ، وأتركه يتهمنى بما أنا منه بريئة .

ولكن ما الفائدة من كل هذا ؟ . ما الفائدة فى أن أكون
لديه بريئة أو مطبومة ، وأن يعرف أنى نسيته أو أنى سأذكره
إلى الأبد ؟ ما فائدة هذا ؟ . ما دمت قد حضعت للقييد والذل
ورضيت بأن يذهب كل ما فى طريقه ، وأن يمزق كل ما كان
يشتاق من موافيق وعمود .

ولكنى كنت مكروهة . . أما هو فما عذره ؟ .

أما كان يجب عليه أن يترث قليلا ؟ أو قد همت عليه بمثل
هذه السهولة حتى يستبدل بى أية مخلوقة ، ليجعلها تحس محلى . .
وتتخذ فى حياته بوصى ؟

أريد أن يرى أنى وغيرى سواء . . وأن أية فتاة يمكن
أن تغنى عنى ؟

أيمكن أن يكون هذا صحيحاً ؟ وأنه لم يعد به من حاجة
إلىّ ، وأنه قد طردنى من ذاكرته ، بل ومن قلبه ، ليضع هذه
"نى توشك أن يزف إليها مكافئ ؟

ولكن من هى ؟

ابتسام ١١٩

عجبا . . . أى شيطان دفع إلى رأسى بهذا الاسم
أجل لاشك أنها هى دون غيرها

لقد وضع الأمر . إن أمه قد أحست بصدمة ، وعرفت بنيا
خطي ، وخيبة أمه في ، وبأسه مني ، ولم تجد وسيلة لتعريضه عن
القفل ، ولرد الإهانة ، سوى أن تعجل بزواجه من ابتسام ، التي
كان تراها - على حد قوله - عروسه الأصلية وزوجته العتيدة .

وسمعت صوت د علي ، ينادى أحد الخدم . وعجبت لعدم
ذهابه ، وصممت على أن أرحوه أن يذهب ، حتى لا يحقد
على أحمد ، وحتى لا يظن أسى أنا التي جعلت أخى يتمتع عن
الذهب ، وحتى لا يظن أننا قد صمما على مقاطعة ، وذهبت
إلى د علي ، ورأيتهم يخلع ملابسه . فقلت له بلهجة متوسلة :
- علي . . أرجوك أن تذهب . . حتى لا يحزن أحمد ،
وحتى لا يظن أن بيننا خصاماً .. اذهب من أسى أنا .

ونظر إلى د علي ، ثم أخذ يرتدى ملابسه ثانية ، وقبل
أن يخرج سأله هامة :

- من سيتزوج ؟

- الفتاة التي قلت لك مرة إنى رايتها معه في السينما . .

ابتسام .

مرت الأيام القليلة الباقية على موعد زفافي .. بطيئة
مثاقلة .. وكنت أحس أني أعيش وأتحرك وسط ضباب
معتم كثيف .. يرئى كل ما حولي من مرئيات ، كأنه أشباح
باهتة .. أو ظلال سوداء .. ولا أكاد أبصر خلاله أو
وراءه .. سوى أكداس من الطلقات .. تفرق المستقبل
الموحش البغيض .

وأخير أحل يوم الزفاف .. وكنت في أواخر سبتمبر ..
وهو أحب شهور المسلم إلى نفسي .. وأملؤها بالذكريات
الحلوة .. واستيقظت قبيل الفجر وأما أحس ببرودة صباح
الخريف تسيل من الشرفة .. فأغلقت بابها ، وعدت إلى
الفراش ، ولكني ظلت أنقلب دون أن يعاودني النوم ..
فنادرت الفراش .. وخرجت إلى الشرفة ، واستقبلني نسيم
الرطب ، يمسح وجهي بكفه الندية .. ووجدني أنفسم منه
شبهتاً طويلاً أغسل به حنايا صدري وأندى به حرارته .

وكانت السماء منمقة بسحب الخريف المشورة في الأفق
المحمرة الحواشي .. الموشاة الأطراف .. إيناماً بمطلع
الشمس ، وأوراق الشجر قد كسيت بقطرات الندى المتلألئة
المنساقطة إلى الأرض كالدموع الطامنة ، وأبصال الزيق
تتلا الحديقة .. وأعواده الحملة بالزهور البيضاء تتمايل

مع دباب النسيم ... وأوراق الورد الأحمر متناثرة على الطير
والداليا تشاغل زهورها على أغصانها العالية .. وحوض الماء
الذى أجلسنى ، أحمد ، عليه وغسل لى ساقى فيه .. تنساقط من
صنبوره قطرات الماء ..

ما أقدر المناظر المعينة .. والأجواء المخصوصة .. على
بحسب الذكريات .. وعلى إثارة الشجن .. رب صوت عابر
أو نسمة رطبة ، تعيد إلى نفوسنا حشداً من الأحداث ..
وتقلنا إلى عالم آخر .. رب بقيق ضفدع ، أو زقزقة عصفور ،
تنسكأ في نفوسنا جرحاً أيل وقرحاً شنى .
رب ورداء هتوف في الضحى

ذات شجر صدحت في فن
ذكرت إلفاً وعهداً سالفاً
فبك حزناً فهاجت حزنى
فبكائى ربما أرقها
وبكاهها ربما أرقنى
ولقد تبهكى فما أفهمها
ولقد أبكى فما تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها
بهى أيضاً باحوى تعرفنى

لم تكن ورقاء هائلة ، هي التي حركت شئني ، وأنتت مآقي ،
بين كان كل شئ حور .. السحب المنخفضة ، والنسيم الرطب ..
ومدامع الورق .. وأعواد الزبيق .. وأوراق الورد .. وزر ، و
الدليا .. وحوض المياه .. كل هذا تعاون على فذوّب نفسي ،
وأضرم الحنين في قلبي .

ووجدت نفسي أتسلل إلى الحديقة ، وقد وضعت
على كتفي معطفاً ، ولففت رأسي بإشارب ، وانتعلت
حذاء خفيفاً ، وتسلك من الدار في سكون ، وسرت في
الطريق ، تحملي قدماي إلى الساقية المهجورة .. إلى المبد
المقدس .

وكانت الشمس قد بدأت تسلك برأسها من وراء الأفق
كأنها تستكشف الأرض ، والأشعة البرتقالية تغمر أعالي
الدور وأطراف الشجر ، وقد خلت الطرقات إلا من الخمال
المحلة ، بالكرب ، تأتي من طريق ، الوايلية ، متجهة إلى
شارع الملك ..

وسرت بحذاء السلك الشائك المحيط بشكبات الحرم ،
أحوض المزارع .. متخذة طريقاً قريباً .. بدل الدورة الواسعة
عن طريق الجامع والشارع المجاور للسراي .
ووجدت نفسي أخيراً أشرف على الساقية من ناحية

المزارع ، وبدأ لي طريق السراى محوطاً بأشجار البانسيانس
القائمة على جوابه .

وجلست حيث تعودت أن أجلس ، وحيدة صامتة ..
أحس في جلستي بالكثير من العزاء ، وأتمنى لو استطعت أن
أخلد في موضعى لا أعادته أبد الدهر .. وأن أضحي جزءاً من
ذلك المنظر الخرب .

وكان يراود نفسى أمل خفي في أن ، أحمد ، قد يأتى ، وأنه
قد يكون أصابه ما أصابنى من حنير .. ودفعه ذلك الدافع
الخفى الذى دفعنى إلى المجيء .

أحل .. إن مجئى لا يمكن أن يكون عبثاً .. لقد حركنى
قلبي ، ولا بد أن يحركه قلبه .. إن موضع الشاعر لا بد أن يبدأ
بعد فترة .

وأخذت أسترق السمع إلى كل صوت يقترب ، وأمعن
البصر فى كل شبح يبدو على الطريق .

ومضى الوقت ، وأنا فى جلستى - كما أناحت مغرفة
فى الصمت والوحدة ، وأخذت الشمس تغسل فى الأفق ،
والحياة تنب من حولى ، وأصغرات الفلاحين والدواب
تعالى .

واخيراً نهضت للعودة ، أقبلت صريق بين المزارع ..
فاشلة المسعى .. غائبة الرجاء .

أى حقا أنا ؟ .. أى وم صورى حضوره ؟ .. أو قد
نسيت أنه متزوج وأنه لابد أن يكون فى هذه الساعة منعماً بين
أحضان زوجته ؟

لقد أضحت عنده غير ذات قيمة .. ولم يعدلى مكان فى
قلبه ولا ذهنه .

ولم أحمل عليه ، وغداً أكون مثله ؟ غداً أصبح زوجة ،
ويصبح حبه جريمة كبرى وخيانة زوجية .

إن من الجون أن أحاول التفكير فيه . يجب أن أقتله
من نفسى اقتلاعاً .. يجب أن أنسى حبه ، وأن يبنى حبي ، إن
لم يكن قد نسي بعد .

ومضى اليوم ، لا أدرى كيف مضى ، ولكن الدار
كانت تعج بالحركة ، وتضج بالاستعدادات ، والحديث
قد انقلب - المناضد التى وزعت فيها - إلى منتدى
عام ، والأسلاك المحملة بالثرثبات الكهربائية تتناثر دوة
الأشجار .

وكننت أما أجلس كالتمثال ، مسلوبة الرشد ، فاقده القدرة

على التصرف أو التفكير ، أقرب ما يحدث كإنى مجرد
مشاهدة ، أو عابرة سبيل ، وكأن كل ما يحدث لا يعنى ،
أو كإنى لا أقوم بدور البطلة ، فى وسط هذا المسرح القائم
على قدم وساق .

وأقبل الليل ، وبات البيت شعله من النور ، وبدأت تتوافد
على الدار بعض العربات

وكان على أن أبذل جهداً كبيراً فى التجدد والتدسك ،
وأن أخرج إلى القوم فأقبل تهانيم وتحيينهم ، وأرحب بهم
وابتسم لهم .

وخرحت ، بعد أن تعمدتني الأيدي بالزينة وبعد أن ضمتنى
جدتى بين أحضانها وطبعت على جبيني قبلة حنان .

وكان أول من لقيت ، صاحب الدولة ، وابنته ، وكانا
يجلسان مع أبى فى الصالون ، ونمضا برحباى فى حرارة
وحماسة ، وأخلفت « سوسو » تصلح لى زهرة حلى بها
كنف ثوبى .

وأخذ المدعوون يتوافدون زرافات ، فأملت الدار بهم
وضاقت رحاب الحديقة على سعتها .

ثم حضر « توتو » أخيراً فى حشد من أصدقائه الذين

عرفني بهم في هرة الخطبه ، وكان يبدو متأقماً لامعاً برأفاً ،
والواقع أنه كان حلو القسمات ، جميل التقطيع ، أرسقراطى
المنظر ، وكما قلت من قبل إنه قد يستهوى ملايين الفتيات ..
ولاني لولا سقم تفكيره .. وتفاهة عقليته .. ولولا أنني
لم أكن أملك قلبي .. لما اعتبرت زواجه كارثة ، بل لما رأيت
فيه إلا كارأى أبى « لقطه كبيرة » ..

وأقبل « تونو بك » وأصدقائه يحيطونني بهالة من
الإكبار والإعجاب ، وحاولت جهدى أن أبادلم مرهمهم ،
وقلت لنفسي إنني يجب من الآن أن أكون مخلوقة جديدة ،
وأن أحاول ألا أدع حب « أحمد » يتسرب من مكه ، بل
يجب أن أئذه ، وأن أبذل كل جهدي لأظهر بمظهر المرحبه
بحياتها الجديدة .

ولم أكن قد رأيت أختي طيبة اليوم ، وعجبت لغيبته ..
ولكنه بدا لي أخيراً .. وتقدم إلى متكلفاً المرح
والسرور .

ولم أشك في أني قد نجحت في التجلد والتمسك إلى أمد
حد ، بل إنني وجدت المسألة أسهل كثيراً مما كنت
أتصور .. ورأيتني أروح وأغدو صاحبة ميتة .
« أي جهد ولا مشقة » .

واتحى بي أخى جانبا .. ثم همس في أذني :

— لقد دعوت أحمد .. فهل يسوءك هذا ؟

وأخضت بقوله .. وأصمت منه بما يشبه لسع الجحر ..
ولكن لم هذه الرغبة ؟ ألم أدع أنني قد انتصرت على
مشاعري ، ووأدت حبي ؟

وقلت له وأنا أنكلف قلة الاكثارات :

— يسوءني ؟ لا .. لا .. على الرعب والسعة .

— لقد كان لابد أن أدعوه .. ردّاً على دعوته ..
والأأخذ على خاطره ، ، وطن — كما قلت — أن
يتناخصاماً .

— أجل .. أجل .. لقد كان لابد أن تدعوه .

ولقد تملكني إحساس بالرغبة والخوف . ولكنه
كان خوف تمتع .. ورغبة لذينة .

ألم أكن أوشك أن أرى ، أحمد ، ، وأتحدث إليه ؟

ولكن أين ما ادعيته من كبت المصعر ، وقتل القلب ،
وواد الحب ١١ وعلام هذا الإحساس بالمتعة .. والشعور
باللذة ؟

أحقاً قد وادت حبي ؟

ولكن لم لا أوجل وأده هذه الليلة ؟ ليلة واحدة ١١

أستكثر على نفسي لبة واحدة ، أتزود منها للعمركه ؟

وأخيراً انتهت الإجراءات الوهمية التي أجراها الشيخ
المعتم الذي لقبوه « بالمأذون » ، ووجعت نفسي في غمضة
عين قد صرت زوجة .

آية سخرية هذه ؟ لقد جلست أنظر إليه وهو منهمك في
الكتابة ثم تمتم كلاماً لم أسمعته وأخذت أردد معه أقوالاً كأنني
يبلغه ، وأنا شاردة الذهن ، أصوب النظر في لفافة عمامته .
وأخيراً سمعت ألفاظ التهنئة تتواتر على مسمعي .

أهكنا انتهى الأمر ؟

أهذه الإجراءات التي تبدو كأنها « عقد إيجار » أو
« صفقة شراء » ، يقام لها من الوزن والاعتبار ما لا يقام لكل
ما أملاك من مشاعر نحو أحد ؟

أتفهم الأرواح ، وامتزاج الأفس والقلوب ، لا يحلل
الصلوات التي أحلها ذلك الشيخ المعتم بكتاباته وقراءاته ؟
أأضحي بهذه التفاهات لشكلية ملكا لرجل لا تربطني به
آية صلة ، ولا أحس نحوه أقل عاطفة ؟

أترى هذه الكتابة كل عصبة .. بيني وبينه .. ووقف
الحب العميق القوي مكتوف الأيدي ؟

أتبيح لي تلك الوثيقة المخطوطة .. أن أفعل .. ما لر فعله
بدونها — حتى مع أحمد — لا اعتبر فاسقة ، واستحققت
الرجم بالحجارة ؟

يا حتى التقاليد وسخفها ؟

لقد قضى الأمر وأصبحت زوجة بفعل هذا المأذون ..
الحمد لله الذي لا يحمده على مكرهه سواء !

وأخذت الدار تعج بمن فيها .. واختلط الحامل بالناسيل ،
وامتلأت الحجرات والصالون .. واستشدت الحديقة بمن
فيها .. ووقعت أمّا بين الجموع أقلب فيهم البصر ، وأنطلع
إلى الباب بين آونة وأخرى .

ولجأه أحسست بقلبي يذق بعنف .. وزال عني
كل ما ادعيت من تماسك وتجمل .. فقد رأيت أحمد يشق
طريقه بين المدعوين وبلغت بمنة ويسرة بحثاً عن شخص
يعرفه . حتى التقت عيناها

وتقدم إلى بثبات ، وقد كا وجهه شبح إفسامة ،
ثم شد على يدي قائلاً :

— مبروك يا عابده .

— الله يبارك فيك .. وأنت أيضاً مبروك .

ونتم برد عذافت .. وبدأ عليه كأنه يشاوم اضطراباً

شديداً ، وأخذ يتلفت حوله كأنه يبحث عن مفر حتى وقع
بصره على أخى . . فاستأذن منى واتجه نحوه ، وسرعان
ما اختفيا بين المدعويين .

وتملكى ضيق شديد ، وكرهت ألا يكون بيننا في اللقاء
الآخر أكثر من كلمتي تهنته . . أو على الأصح قمرة !
وأحسبت بدافع شديد يدفعني إلى أن أخلو به ، وأن
أتفاهم معه .

حرام أن نختم حيناً بمثل هذه الخسامة الجافة الباردة . .
إذا لم يكن من الفراق به . . فلا أقل من وداع جميل . .
يعزينا عن البعد والحرمان .

يجب أن أشرح له الموقف كله ، حتى أرفع عن نفسي
الظلم . . وحتى يفرق حبيبين . . أو على الأقل صديقين .
وتسللت من بين الجمع الذى أحاط بي ، وذهبت أنتقل
بين المدعويين فى الحجرات وفى الحديقة باحثة عنه ، دون
أن أجد له أثراً .

وأخيراً عثرت على أخى ، ولكنه كان وحده وحملت
أن أسأله عنه .

ورقت أمامه برهة . . وقد بدا على التردد . . وكأنما
قرأ ما يحول يدهنى فقد قال فى متسائلاً :

— ألم ترى أحمد؟ .. لقد كان معي سالا .. وقد ذهبت
لتحية مجيب بك .. ثم عدت إليه فلم أجده .
وهزرت رأسي باليأس ، ثم تركته وعدت أبحث وأتعب .
ألا يحتمل أن يكون قد رحل ؟
وأحسست بغيظ شديد .

هذا العيد المتكبر .. لم عجل بالانصراف ؟ .. لم لم
يُنْتَظَر ؟ ! لم يأتي على متعة الوداع ؟

وسرى إلى نفسي الحزن واللوعة وبت أضيّق بكل هذا
الضجيج والصخب والأثوار .. وتلففت إلى لحظة سكون
وخلوة ، ووجدت نفسي أنسحب من بين المدحومين
وأنتج إلى الشرفة الخلفية المطلة على الجزء الساكن من الحديقة ،
والتي شهدت ميلاد جينا .. عندما رأيته أول مرة بعد
تخرجه .

وفي الطلبة السائده رأيت شبحاً يستند بمرفقه على حافة
الشرفة وقد أوالاني طهره وأخذ يحدق في لأشجار المصمة .
وأصابني رعدة ، وهتفت بصوت خافت :

— أحمد ! !

أجل لقد كان هو بعينه أحمد .

ترى أى إحساس قد دفعه إلى المجيء إلى الشرفة ؟ أيشعر
كأنه أشعر . . وبحس كما أحس ؟

أريد أن يشهد الشرفة نهاية حب ولد فيها ؟ أريد أن يجعل
من المهد لحداً ؟

ليكن له ما يريد .

ومضت برهة قبل أن ينس ، ثم أجاب دون أن يستدير
ليواجهنى ، بل استمر مولياً وجهه شطر الحديقة :

— نعم .

— لم فعلت ما فعلت ؟

واستدار ببطء ليواجهنى . . وأجاب فى لهجة مريرة
مستكرة :

— أنا لذى فعلت ؟

— أجل . . لم تنتظر ؟

— أنتظر ؟ أى شىء أنتظر ؟

واقتربت منه ومددت يدي لأخذها بين يدي . . ومضت
برهة وكلانا ينظر إلى صاحبه فى صمت وحميمية قاتلة :

— لا تحقق على ؟ لم أكن أملك من أمرى شيئاً . . لقد

تعودت دائماً أن أخضع . . أنت تعلم كيف نشأت ، وتعلم

أنه لم يكن في وسعي أن أقاوم أو أرفض .. وكان الأمر
يبدو لي أنه لا يمكن أن يتم وأن السماء لن تتركني .. كنت
أصلي ليل نهار ، وأنتظر معجزة تقضي .. وكنت واثقة
أنى سأعود إليك في النهاية ، حتى علمت أنك قد تزوجت ،
فأصابني صدمة قاسية .. حاولت نفسي وقلبي رأساً على
عقب ، وأحدثت في نفسي ثورة جامحة ، جعلتني أحس أنى
أستطيع أن أقاوم وأصرخ وأرفض .. ولا أنخضع
كعبدة ذليلة .. لقد بت أشعر أنى أجرو على كل شيء ،
وأنى على استعداد لأن أنطلق معك هاربة ، وأن أتبعك
حتى نهاية العمر : عشيقه ، زوجة ، خادمة ، أى شيء مات
يرضى ، فما أصبحت أقيم لهذه الشكليات وزناً مادمت
أصم أن أكون معك دائماً ، ولكن ما فائدة هذه المرأة ،
وقد جاءت في النهاية ، بعد أن قضى الأمر .. وأصبحت
يائسة منك !

ورفع يدي إلى شفتيه وأخذ يلثم أطراف أصابعي وطهر
يدي وباطنها ويمسح فيها وجهه بحثين بالع .
وسجت يدي من يده ، فقد أحسست بنفسي تنهار
وتهار ، وشعرت بحرارة تسري من شفتيه ووجهه إلى كل
جسدي .

وعت على وجهه سحابة يأس واكتئاب . . فقد أحزنه
أن أبخل عليه يدي بعد ما وهبت له من قبل شفتي . .
وتملكني حزن لحزنه . . واكتئاب لا كتابه . . وكرهت
أن أكون سبباً لشقائه .

وترك يدي من يده ، وأطرق برأسه وقال :

— لا فائدة . . يجب أن نفرق . . من الحق أن نحكم
شد أنفسنا برباط سيودي بنا سويّاً إلى الهاوية . . لا أمل
لأحدنا في الآخر . . فيجب أن نفرق وأن ننسى ونستعين
بالصبر . . إن الحياة لا تستطيع أن يفرض الإنسان فيها
كل ما يجب . . ولا أن يحب كل ما يفعل .

وهمت بأن أجيئه ، ولكن تخشع صوتي وتجمعت
الدموع في مآقي ، وحاولت مغاليتها فلم أستطع ، وأحسست
بها تنساب على صفحة وجهي .

ولمح هو دموعي تلمع في الظلمة . . فأمسك يدي بين
يديه . . ودفن فيهما وجهه . . وشعرت بدموعه الحارة
تتهمر قبللهما .

وأصابني رجفة شديدة . . وبلغ في التأثر أشده . . فما
رأيت يبكي من قبل .

ومضت فترة صمت ، وتعطلت لغة الكلام ، وانقطع كل
تفاهم بيننا إلا بلغة الدموع الصامتة . . التي كانت تنهمر من
أعيننا في سكون فتجلو صدأ نفسينا وتغسل أحران قلوبنا ،
وتحمل لنا العزاء والسلوان .

ما كان أمتع من بكاء ١١

هل تصدقوني إذا قلت لكم إنني ما أحسست في حياتي
براحة كتلك التي أصابني من ذلك البكاء الصامت المشترك ؟
وأخيراً رفع إلى وجهه وقال في هدوء :

— إنني لا أريد منك شيئاً ، لا شيء مطلقاً ، وسأحاول
أن أهب لك هبة لا أشك أنك في حاجة إليها ، إنني لا أستطيع
أن أمنحك اسماً ، ولا مالا ، ولا بيتاً ، ولا بنين ، ولكنني
أستطيع أن أهب لك صداقتي . . أوجي الصامت الذي
لا أريد له مقابلاً ، إن كل إنسان يحتاج إلى قلب مخلص أمين
يضع فيه ثقته . . ويستعين به في الهموم والملسات . . إنني
سأكون لك أمّاً وأباً وأخاً . . يجب أن نفرق على هذا ، على
أن يذكر كل منا صاحبه ولا ينساه أبداً . . وأن نستدل
بالحب صداقة . . ما رأيك ؟

وأحدث قوله المملوء بالخبرة والإخلاص في نفسي
فصل السحر ، وأثر فيّ تأثيراً بالغا ، وشد كل منا على يد صاحبه

نفقنا على أن نستبدل بحبنا الجارف صداقة متينة ثابتة .
وقد نسالون أنفسكم : هل يستطيع عاشقان أن يزرعا
عهم ما ليغرسا مكانه صداقة ؟ وهل تقوى النفس البشرية على
مقاومة رغباتها وتبديل مشاعرها وتحرير أحاسيسها ؟
وعلى أية حال . . أستطيع أن أؤكد ، أنا كنا في عزنا
وقتناك صادقين مخلصين ، وكنا نحس تماماً أن هذا هو خير
عزاء يمكن أن نهدى به أنفسنا ونطوي به حرقه قلوبنا .
وتسأل يدي مرة أخرى وهم يرفعها إلى شفتيه ، وهو
يظر إلى نظرة استئذان خشية أن أعجبها منه كما فعلت قبل ،
لقد محبتها منه فعلاً . . لأمدها برفق هي ويدي الأخرى
أحيطه بذراعي . . وأضحه إلى بلا وعي ولا إرادة .
لقد أبت عليه يدي . . ومنحه شفتي .
ما على من بأس ولا حرج . . قبله أخيرة . . هي زاد
المعركة .

أليس من حق الصائم أن يزود بصيامه حتى يستطيع
أن يصلب عوده ويقم أروده ؟
قبله واحدة وبعد الزهد الدائم . . والصوم لأبدى
والثقت شفتانا في لطفه عذبة وشوق مستعر . وتمتبت

أن تطل شفتينا ملتصقين حتى آخر العمر ، وأن يحمدا في علي
فه .. فلا يزرع أحدهما عن الآخر أبداً .

وأخيراً أيقظنا من نشوينا صدىح الموسيقى المبعث من
الاحة الأخرى من الحديقة ، فتأدرا الشرفة ، وبنا طرببه
النمالي وذهور الشاوي .

أي بختونة كنت عندما أقدمت على ما فعلت ؟

ماذا كان يحدث لو وأنا أحد ؟

من يصدق أنني أجرو على ذلك في يوم زفاني ؟

ليحدث ما يحدث .. إلى ما دمت على القبله قط .. فقد

كانت القبله أمتع عندي من يوم الزفاف .. وما بعد الزفاف .

وخرجت إلى زوجي ١١ أجس زوجي ١١ ألم يجهله

ما ذور كذلك ؟ ١١ خرجت إليه ونفسي شجاعة وجراة ..

ليفعل بي ما يشاء .. فلقد أمسبت قربة النفس ، مطمئة

البال .. ليأخذ من جسدي ما يشاء . فإن مالك قلبي .. ما زال

يملكه .





عبدالله التائب

١٢



الشهر الأول من زواجي « شهر العمل » في فندق
قضيت « مينا هارم » .. ولست أستطيع بالضبط أن
أحدد مشاعري خلاله .. يل ما أظن كانت لدىّ فرصة
لكي أشعر بشيء .. فقد كنت أشبه بجواد في حلبة سبق ..
سياق بين الحفلات ، والدعوات ، والسهرات ، والمآدب
الحافلة بصنوف اللهو وضروب النسيئة .

لم يكن لدىّ وقت لكي أهدأ أو أفكر .. وكانت حياتنا
مثلا للفراغ والجدّة .. ولكنه كان فراغاً أشق من العمل
وأملاً بالحركة والجهد .. ولم أحاول أن أقوم ، أو أرفض ،
أو أخلد إلى الراحة .. فقد كان يبدو لي أن ذلك هو خير
معين لي على تحمل حباتي الجديدة .. وأنه خير متقذلي من
التفكير والحلوة .. وتبين حقيقة مشاعري .. كنت أفضل
أن أستمع هكنا كطفل يحملونه من أطراف يديه ويلفون
به لفات سريعة حتى يصاب بدوار .. كنت أحس أنني بتلك
اللفات السريعة المنهكة من اللهو .. لا بد أن أصاب بدور ،
ولا أعود أشعر بما حولي .

ولم يكن هناك مفر من أن أتعلم الرقص .. وعلامة
التفكير فقد أبدى لي « توتو » ، أن هذه مسألة حيوية خطيرة .

فلم أجد بداً من موافقته . وبدأت الدروس ، وبعد بضعة أيام كنت أستطيع أن أشاركه حلبات الرقص ، وأدور معه بين الراقصين .

وتعلمت كذلك احتساء الخمر . ولم لا . . . وقد أفهمني زوجي أن من الخطأ والمعرفة والجهل أن أرفض الشراب . . . وأني لا بد أن أتعود شرب كأس أو كاسين حتى لا أخجله بين رفاقة وزملائه . . . وشربت في المرات الأولى كأنني أشرب دواء مرأ . . . ولكنني تعودت بعد ذلك . . . إن العادة تسهل لنا كل أمر وتذل كل صعب .

وانتهى شهر العسل وعدنا إلى بيتنا الجديد . . . فيلا أنيقة في الدقي أعدت لنا خلال الشهر لدى قضياه في ميناهوس . . . وتوقعت أن يبدأ من حولي ذلك الصخب والضجيج . . . وإن أبدأ في الدار حياة مستقرة . . . وصممت على أن أقوم بواجبي كزوجة خير قيام ، وأن أرى شئون الدار .

لقد كان دوتو ، رغم تعاقبه عقليته وسخافته تفكيره ، رقيقاً معي في شهر العسل إلى أبعد حدود لطفة . . . فصممت على أن أبذل جهدي لكي أحصل له بدهي ومكبري . . . وأن أساول أن أزرع أحمد من قلبي شيئاً فشيئاً . . . وأحله محله . لو استطعت .

وبدأ لي أنه شيء من الإرادة أستطيع أن أجمع فيما نوبته
ولاسيما أني لم أعد ألتقي بأحمد . . وأوهمني البعد أن تأثيره
على قد خف ووهي .

وفهمت من « توتو » أن إيجارته انتهت بانتهاء شهر العمل
وأته عين في منصب رئيسي في إحدى الشركات الأجنبية
الكبرى . . وتوقعت أن يبدأ عمله . . وأن يخرج في الصباح
ويعود في الظهيرة . . كما يفص كل ذي عمل . . وأن الأسر قد
لا يتخلو من ذهابه أيضاً بعد الظهر . . وصممت على أن أبدأ
عملي في الدار كما كنت في بيت أبي . . وأن أشرف على أعمال
الخدم ، وأراقب المطبخ . . وأن أكون « سيده بيت » بمعنى
الكلمة .

ولكنني وجدته يخرج أول يوم ، ثم يعود بعد ساعة .
ويطلب من ارتداء ملابس للذهاب إلى جروبي . أو إلى
« نادى سبورتنج » أو إلى أحد النوادي الأخرى ، لنقضي
الصباح بين « شلة » من أصدقائه المتزوجين والعزاب .
وأدهشتني عودته . . ولكنه أنبأني أنه قد أنهى عمله .
وأته لا يستطيع أن يعطيهم من وقته أكثر من ساعة . . بل
إن ساعة كثيرة عليهم .

والظاهر أن الساعة فعلا كانت كثيرة عليهم . . فقد بدأ

يبتل بها وأصبح لا يكاد يذهب إلى الشركة إلا لأخذ مرتبه .
وما العجب في ذلك ؟ ١؟ وأى عمل يمكن أن يقوم به
توتو بك ؟ وهو الذى طالما صرح أنه لا يكره شيئاً كالعمل .
إن العجيب حقاً هو أن يعطوه عملاً ، إذ كان كل ما يطلب
منهم هو الراتب الشهري ، مراعاة لحاظ ، صاحب الدولة ،
وتوقعاً لمرده إلى حكم . . وكانت الشركة بعيدة النظر فلم
تبتل عليه به لأنها لا تريد جهد توتو بك ، أو خبرته . .
ولكنها تريد نفوذ أبيه .

وهكذا بدأت أجده نفسي مرة أخرى في شهر عمل
جديد ، وقد يكون قضاء شهر في الفراغ واللهو أسراً يمكن
احتماله ، أما أن تقضى العمر كله هكذا فذلك ما أفرغني .
لقد تعودت دائماً أن أفعل شيئاً ، وأن تقضى بعض
الوقت في اللهو للترويح عن نفسي بين آونة وأخرى ، ولكني
لم أتصور قط أن أصبح كل وقتي في اللهو . . لقد كان هذا
فوق طاقتي ، فما كان لي، جُلُود على ذلك الإجهاد والسهر .
لقد أخذت السأمة وأمللت تعتريني . . حتى بدأت أجده
بعض التسلية في أحد الوادى التى يعلم فيها ركوب الخيل .
كنت أفضل أن أضيع وقتي — ما دام لا — من تضييع
الوقت — في هذا البادى دون غيره من الأماكن المضيعة

للوقت ، لأنه كان أكثر هدوءاً .. ولأن رواده كانوا نالة
محدودة .. وكانت جلسته أقرب إلى أن تكون جلسة منزلية
عائلية .

وكان الدادى محبباً إلى نفسه ، وكنت أشعر بارتياح
شديد إليه .. وكنت أعجب بمنظره وأبنيته والجو المحيط به ..
لست أندى لم .. فكثيراً ما يرتاح الإنسان إلى شيء دون
أن يحاول أن يناقش نفسه في سر ذلك الارتياح .

كان يعجبني كل شيء فيه .. صالونه الزجاجي الذي يطل
على الميدان الأخضر الفسيح ، تبدو في أفقه أشجار الكافور
والجرازوريت ، والسرو المحيطة به .. والمندخنة التي تترأى لي
في أقصى الأفق من وراء الأشجار .. والذي قد تآثرت فيه
حواجز القفز .. وتفرقت فيه الخيل تسير خيلاً وقد اعتدل
عليها ركابها .. ونداشعرها في الشمس فضياً لامعاً أو أشقر
براقاً :

وكنت أجلس على الاراتك المنخفضة أقرب الميدان
من وراء الزجاج أو أتسلى بالقراءة في أشعة شمس الشتاء
الدافئة التي سمح الزجاج بحرارتها ، بعد أن سحب عنا برودة
الرياح .

كان كل شيء يشعرتني بارتياح .. صور الخيل الملونة

الأيقة المثثة على الحدران ، والصام الخفي المغلق المفروش
يقش ، السبة . .

وكنت كذلك أستطيع عندما أمل الخلوس والحديث
والقراءة أن أخرج إلى منصفه ، البحر بنج ، الموضوع في
الشرقة الخارجية ، فأنتلي باللعب مع بعض الصديقات
لو الأصدقاء .

كل ذلك كان يعملي أفضل النادى على سواء من
الأماكن التي كنا ترنادها كجروبي أو نادى « أسورتج »
أرغيرهما .

وثمة سبب آخر . . سبب خفي لم يكن يحصر على أن يطل
برلمه صراحة بجوار غيره من الأسباب . . ولا أن يتخذ مكانه
في ذمى . . ويهرؤ على أن يمول بخاطري دون خجل . . ولا
خشية . . بل كان يرسم في قرارة نفسي قابلاً منزوياً . . في
سكون رهود كأنه غير كائن .

كان السبب أفواها حبيماً . . بل إلى عندما أسأول الآن
أن أحلل مشاعري وقتذاك أجده هو وحده أساس ذلك
الإدتياح والرضا والتفضيل .

كنت أحب الفروسية والركوب والسبة ، وكل ما يمت
إلى الخيل بصفة . . لأن كنت أشم فيها عبق الماضي العطر . .

وأسمع وبها لمح الممتع .. كنت أرتاح إلى كل هذه المناظر لأن
فيها أصداء من الذكريات الغابرة .. وكنت أكاد أبصر فيها
« أحمد » .. وأذكره بخناقه الطويل ، وقوامه العارح ، وجلسه
على الحصان .. وحديثه عن الاصطبلات والطومار وأحواض
السقي والعليق .

كنت رغم محاولتي للإخلاص لزوجي بالجسد والنهي ،
ورغم نجاحي في ذلك .. وقناعتي بحياقي الجديدة ، ورضائي
بجمالي الزاهنة .. وتوهمي أن حب « أحمد » قد تضام في قلبي
وانكش .

كنت رغم ذلك كله لا أستطيع التخلص من ذلك الحنين
الحق .. الذي لا يجرؤ على الظهور والذي يجعلني أستريح إلى
مكان معين دون أن أدري لارتياحي سبباً .

ولم أحاول طبعاً أن أدخل في روعي أن ارتياحي
للفروسية وبميلي الحثي إلى الحيل ، يعتبر خيانة لزوجي ، لأنني
كنت واثقة من نفسي مطمئنة إلى قدرتي على أن أعصم نفسي
من الزلل .. بل إنني كنت رغم رويتي لكثير من صباط
السوارى والحرس ، ورغم توقعي أن أرى « أحمد » في أي
يوم ، لم أحاول أن أسمع لنفسي أن أتلف على لقائه أو أتوق

إلى رؤيته .. بل كنت أكثر من ذلك أشكر الظروف لأنني لم
أره في النادي قط .

وسارت حياتي على وتيرة منتظمة لا تختلف يوماً عن
يوم ، واستطعت أن أتعود حياة الخمول والفراغ فلم أعد أتبرّم
بها كثيراً .

كنا نلتقي في التاسعة أو العاشرة ، وبعد مضي ساعة
من الاستيقاظ نكون قد انتهينا من الإفطار ، وارتدينا
ملابسنا ، ثم نخرج قاصدين إلى النادي ، أو سهري
أو إلى إحدى دور السينما ، ثم نعود في المدينة بعد الظهر
إلى البيت للعداء .. إذ لم نكن قد دعينا لتأخير عد بعض
الأهل أو الأصديقاء .. وبعد الظهر نذهب إلى أحد
الأماكر التي لم نذهب إليها في الصباح ، وفي الليل إما أن
نذهب إلى السينما أو إلى حفلة راقصة ، أو إلى ملهى من
الملهى الليلية .

وكما في معظم زهايا .. مع صحة معظمهم من الأزواج
الذين لا يختلفون في مشاعرهم وأهوائهم وتطلعاتهم عن
زوجي .. والزوجات اللاتي لا يختلفن عني كثيراً بعد أن
أحببت زوجة .

وهل أستطيع أن أسكر أني قد صبغت بصبغهم المدللة

التافهة؟ ألم يقل المثل « من جاور الحداد كونه بنساره » ،
« ومن عاشر القوم أربعين يوماً صار منهم » ؟
وكان معظم لقائنا مع الصحبة في النادي ، ولا أنكر أن
الفترة الأولى من صداقتنا لم كانت بريئة لانشوبها شائبة ،
أو على الأقل ، إلى كنت مخدوعة بمظهرهم ، حسنة النية في
طبي بحلقهم . ما ظننت قط أنهم عصية ذئاب ينهش بعضها
ظهور البعض الآخر .

لم أكن أتوقع قط أن يخيب أملى في ذلك النادي
انحجب إلى نفسى بمثل هذه السرعة ، وأن يتضح لى أن النادي
للخيل وللذئاب .

كنت حسنة النية حتى بدأت ألاحظ ذات يوم أن أحد
الأصحاب ، الزَّاب ، يلأزم زوجة صاحب آخر كظلمها ،
وأهما كثيراً ما يحتلّيان في أحد الأركان فيقضيان الساعات
في همسات خافتة . وأدهشنى الأمر ، وقلت « لتوتو » : إن
فلاناً وفلانة لا يبدو منظرهما وتصرفهما مستساغاً ، وأنه
يجب عليهما أن يراعى مشاعر الزوج .

ووجدت « توتو » ينظر إلى « تم » يضحك في سخرية :
— الظاهر إنك ما زلت « غشيمة » . . . هذه الأشياء
طبيعية جداً .

وأصابني الدهش وقلت متسائلة :

— ما هي تلك الأشياء الطيبة التي تتحدث عنها؟

— سرقة الزوجات من أزواجهن ، والأزواج من زوجاتهم .. هنا ناد ، وعاطية .. كان يجب أن يطلقوا عليه « النادي الشرعي » ، لكثرة ما يحدث فيه من حوادث الطلاق والزواج ، أو على الأصح .. النادي غير الشرعي . وأجبت مستنكرة :

— عجباً ! ما طنفت أشياء كهذه تحدث في ناد محترم ، وبين قوم لهم مكاتهم ..

— وما دخل ذلك في الاحترام .. هنا يطلق الأزواج ويزوج العزاب .. إذا دخل مزوجاً خرج أعزب ، وإذا دخل أعزب خرج زوجاً .. لذلك كنت أفضل أن أدخله ولربك قبل الزواج حتى نخرج منه زوجين بدلاً من أن نخرج مطلقين .

— هذا تشيع منك ؟

— تشيع ؟ هذه أقوال تستند على وقائع .. اسمي .. هل تعرفين علي بك ربي .. لقد اشترك في السادي عزباً ، أما درجة فقد كانت زوجة أحمد عبد الله .. هذه واحدة . عدي على أصابعك ، أما مدام سماعة ، فهذا ثالث لقب لها ، فقد

كانت منذ بضعة أشهر . مدام فنوح ، ، ومنذ ستة كانت
 . مدام محرز ، والأزواج الثلاثة أصدقاء وزملاء في النادي .
وعلى فتح الدين ، لقد ولطش ، زوجته تلك من . مسيو
سكارابي ، ويبدو لي أن الأخير يوشك أن يستعيد هامه ،
وابراهيم زكي ، وعلى عبد الرحمن . . تبادل زوجتيهما .
ما رأيك ؟ أنتعبرين أقوالى تشيخاً ؟

— هذه أشياء عجيبة ، لا يصدقها عقل !

— على أى حال . . لا يفلتك أمر محمود ، ودعى زوجته
تساجى مع فتحى ، حتى تتيح له الفرصة لمرادة أخيه . ميسى .
إنها حلقة مفرغة ، ليس فيها خاسر ، فهذا ينهش ذاك ، وذاك
ينهش هذا .

واقشعرت بدنى ، من أقواله ، وبدأت أحس نكره للنساذى
واحترقار لأعضائه ، ولم أعد منذ ذلك الحين أشعر بذلك
الارتياح الذى كنت أحسه من قبل ، وبدأت أتوجس من كل
نظرة خيفة ، وأتوقع وراء كل حديث شراً .
وبخيل لي أن أقوال زوجى لم تكن سوى مقدمة لأحداث
نوشك أن تقع ، وأنه هو نفسه كان ينوى أن يتخذ مكانه
في الحلقة المفرغة ، وأنه كان يستعد لخوض معركة الذئاب . .
والاشتراك في عملية « النهش » .

كان من بين أصدقائنا الأقربين .. روجان : محمود شكرى
 وزوجته فاطمة صالح ، أوكما كننا ندعوهما : حوده ، وطلمطم ،
 وكان الزوج أحد أولئك المخلوقات التى حرمها الله أية مزية من
 المزايا التى يمكن أن ينعم بها على عباده .. إلا مزية واحدة
 عوّضته عن بقية المزايا خير عوض ، وهى أنه خرج إلى الحياة
 فوجد فى انتظاره بضعة آلاف من الأقدمة ، وكوماً من النقود
 قد كتّ فى جمعه أجيال من الآباء والأجداد ، وبذلوا فى سبيل
 الحصول عليه ما ملكوا من عرق وجهه ، وصحة وشباب ..
 وقد يكونون صحواً من أجله بالكرامة والخلق .. ولقوا من
 وراء جمعه صنوف الشقاء فى الدنيا ، واستحقوا العذاب
 فى الآخرة .. لقد ضحّت الأجيال المتعاقبة بالعاجلة والآجلة
 لكى يجمسوا كل هذا الحشد من الثراء .. ثم ذهبوا جميعاً ..
 وخرج صاحبنا الغنى المقعد المكمال .. الذى لا يستطيع
 أن يكسب مجرد القوت .. ليجد كل ماشى التعساء فى جمعه ،
 لقمة منبثة مريضة ، ويجد كل مهتة فى الحياة محصورة فى أن
 يصرف ذلك الكوم من الثراء .. وأن يأكل تلك اللقمة
 السائلة الجاهزة .. لا يطلب منه إلا جهد الصرف ، ومشقة
 المضغ ، ولو استطاع أن يسعين عن بفتح له فسه ويحرك له
 فكبه .. لنفع .. كان الله فى عونته ..

هذا هو « حوده بك » ، وظيفته في الحياة .. غنى .. أو ..
وجيه .. أو ، صريف .. وكنت أرى فيه .. هو وأمثاله —
نصف إنسان .. فالإنسان الطبيعي وظيفته في الحياة .. هي
الحصول على النقود لكي يصرفها في سبيل العيش .. أما هو
فكان نصف إنسان .. النصف المتم .. للنصف الأول ..
وهو أبوه الذي أورثه ما ملك .. كان أبوه يحصل على النقود
ولا يصرف .. أما هو فيصرف ما لم يحصل عليه .. صدق من
قال « مال الكنزى للزهي » ، أما طمطم .. فقد كانت تقوم
بدور « أوجه الصرف » ، أو البالوعة التي تنسرب فيها ثروة
الآباء الكرام .

كانت امرأة فانية .. حامله من النوع الصانع الصارخ ..
الصاحب الضاح .. الذي يمسك بتلابيب الأبصار ، ويفغر
الأنفواه .. ويلوح ، الرقاب .. كانت عند ما تجلس أو تسير
تشرئب إليها الأعين وتمتد الأعناق .. فإذا سارت ظلت
العيون تتبعها حتى تختفي .

ليس من السهل على المرأة أن تعترف بحال امرأة أخرى ،
ولكنني أقر وأعترف أنها كانت أجمل من رأيته .

كانت عاحية الجسد ، بيضاء نقية ، وكان وجهها مرسوماً
بمتهى الإنفات لا عيب فيه ولا هنة ، وكانت به استدارة

حلوة ، وكانت شتاها مصنوعتين جيداً ، وأنها دقيق ،
وأهداها تلقى على عينيها الخضراوين الصابيتين ظلالاتاً .
وكنت أحبا وأحسن الظن بها ، رغم طيشها ونزقها . .
وكنت واثقة فيها . . لم يحظر بيالي أن أعار منها على زوجي . .
أولاً لأنني لم أكن أشعر بأى استعداد للغيرة على زوجي . .
وثانياً لأنني كنت أعلم أن له زوجاً

ولكن حدث أن بدأت ألمح إقبالا منها على زوجي ،
واقبالاً منه عليها . . وقد يكون ذلك شئ غير جديد ، فقلعه
كان موحوداً من قبل . ولكن لم يفتح له عيني سوى حديث
زوجي المستتر عن أعضاء نساى ، وعن سرقة الأرواح
والزواج .

ولم أعر الأمر كبير اهتمام فى بادى الأمر ، ولم أبد أقل
اكتراث عندما كل يتركى اللعب المنع بهج ، ويخلو هو إليها
فى أحد الأركان يتهاوسان ، أو يحاول أن يذهب توصلاً
بالعربة إلى أى مكان تريد الذهاب إليه .

ولم أبد أنى عناية بقاءه كنت أحترق نفسى
لوحاولت الاهتمام بذكره الإذنان لاسم ، زوجي . . وكنت
أعبر غيرتى عليه تكرماً له لا يستحقه .

ولكن المسألة بدأت تدعشني عندما وجدت أن زوجها

« حوده بك ، لا يغير الأمر أيضاً كثير التفات ، وأنه لم يظهر أقل غيرة ، ولا أنهه أن تخرج زوجته مع زوجي ليوصلها بعربته .. رغم وجوده هو وعربته .
لقد بدا لي كأنه يجد المسألة جد طبيعية .

وحتى هذا لم يكن يثيرني .. فما كنت أعتبر نفسي مسؤولة عن صيانة شرف الرجل ، وإثارة نخوته ورجولته .. إذا كان لا يثار على زوجته ، فذلك أمره وحده ، لا شأن لي به .
ولكن الذى أثارنى تماماً .. وجعل دى يغلى فى عروق هو أن الزوج المحترم ، بدأ بلازمنى ، وينصب شراكه حولى ، ويحاول أن يستعصى بى عن زوجته ، أو أن ينهش عرض من نهش عرضه .. وإذا بى أجد نفسى - دون أن أدري - داخل الحلقة المفرغة .

ولم يابه زوجي ولم يعترض .. كما لم يابه الآخر ولم يعترض . فقد كان فى شغل شاغل عنى بزوجته صاحبه .. كما كان صاحبه فى شغل شاغل عن زوجته بى .
وتملكنى غيظ شديد .. فقد وجدتني لا أزيد لدى زوجي من سلطة بسيطة يملكها .. ليس أسهل عليه أن يستبدلها أو يستعصى عنها .

ولم أجد هناك قائدة من أن أثير زوجي أو أثور عليه ،

أو أفهمه أنى لست على استعداد بالقيام بذلك الدور المهيمن ،
هقد أدركت أنه لن يعاين . . ولن يطلع من غيه خوف على
عرص ، أو ثورة على شرف . . وما دام قد استساغ لقمة
غيره . . فليستغ غيره لقمة . . أو - كما قال - ما دام ينهش
فلا بأس عليه من أن ينهش .

ورأيت أن خير ما أعله هو أن أرمى طوبته . . وأن
أدافع عن نفسى بنفسى وأن أتجاهله وأتغافل عنه . . معتبره
نفسى بلا زوج . . وأن أتركه يسير فى غيه ، على أن أصد
عن نفسى هجوم الآخر . . أتقيه وأحماشه . . وأن أتسلل
ناحية نفسى . . هاربة من عصبه الدناب .

ليفعل زوجى ما يفعل . . فما توقعت منه إلا كل نقصة . .
وما كان لى أن أحش من أى مسكر نأته عصبته . . عصبه
النوات المدللة المرفهة . . الأستقراطية العليا . . القديرة
على كل سفالة . . الرقيقة المنتهكة . . الراحنة بالفرنسية . .
المترفعة عن الشعب . . شعب الهيج والأوباش .

ليعارل زوجى من يشاء . . وليسرق من الزوجات من
يرغب . . فلن يكون لى به شأن . . ولن أكرمه بالقيرة أو
الاهتمام . . إن واجبى هو أن أرفع عنهم جميعاً . . وأن أبني
شريعة عفة فى هذا الوسط الملوّث .

أجل .. سأدعه وشأنه .. ولكن .. على نفسي ..
وهكذا بدأت أنخذ لنفسي خطة الانكماش والتباعد ..
وتحاشى هجة السوء .. وتجنب محمود شكرى على الأخص
والإعراض عنه .. والنفور منه .. حتى أصدته تماماً .
وأملت من الخروج ، وخاصة إلى النادى . وبدأت أقبح
في دارى . ولم أجد إلحاحاً من زوجى في اصطحابى معه كما كان
يفعل دائماً عندما كنت أحاول أن أنحلف في البيت .. بل
بدالى أن ذلك قد صادف هوى في نفسه إذ كان يتبع له
فرصة الانطلاق وحده والتحرر من قيود صحتى حتى يخلو
له الجو مع صاحبه الجديدة « ططم هانم » .

وانقطعت تماماً عن الذهاب إلى النادى .. حتى كان
موعد الحفل السنوى ، وذهبت بصحبة زوجى إلى النادى في
اليوم الهائى للاحتفال ، وكان النادى قد اكتظ بالمشاهدين ،
ورأيت مدرجات طويلة قد أقيمت على الجانب الأيسر
للساحة .. الجانب الملاصق للسور المطل على الليل ، وابصرت
الأعلام الملونة ترفرف في أعلى الأعمدة .. والخواجز
البيضاء قد رصت فوق الأرض الخضراء ، وفي أحد الأركان
أقيمت منصة الحكام وقد أخذوا يتشاورون ويعلو صوت
أحدهم في مكبر الصوت بين أوتة وأخرى .

وانتهت وزوجي إلى مبنى الأعضاء . . وقد بدا كخليفة
النحل ، وأخذ الضباط يحولون في المكان بأحذيتهم الطويلة
وأردارهم اللامعة ، والردد الفضى الذى يحلى أكتافهم . . أما
المتساقون المدنيون فكانوا يدور بأحذيتهم السوداء
ويتظلمونهم البيضاء. وحترم الكهنة الطويلة .
وقد شاع في المكان حوّة من الآلهة والأرستقراطية ،
وبدا كأنه معرض جمال وأزياء . . ووجهة . . وأخذ
المصورون الصحفيون يلتقطون الصور للشخصيات المعروفة
والوجوه الحيلة .

وصعدت وزوجي إلى الشرفة العليا . . وملتفت زوجي
يمسأ ويسأ كأنه يبحث عن شيء معين . . ثم وجدته يسك
يدى ويقودنى إلى أحد الأركان قائلا :

— هيا بنا نجلس بجوار حورده وططم .
وسرت بجواره . . فقد كان من الحق أن أبدى أى حركة
غير طبيعية للتراجع أو الاسحاب أمام حشد الناس الذى
يحدث فينا .

ولم التراجع ؟

ماذا يضربنى من أن أصاحبهما خلال الحفل ثم شترق

بعد ذلك ؟

وتبادلنا التحيات وسألاهما وغيرهما من الرفاق الجالسين
مبهما . . عن سبب احتفائي وصراني عن الحجى . إلى النادى
فضحكت وقلت لى كنت متوعدك المراج .

وجلسنا نتحدث ، وأعطانى أحدهم برنايح المسابقات . .
وأخفت ألقى على أسماء المتسابقين نظرة عابرة .. توقف بصرى
خلالها أمام اسم بارز من بين الأسماء وهو ملازم أول
أحمد عبد السلام . .

ودعشت قليلا لأنى لم أتوقع أن أجده مشتركا فى
المسابقات ، ولأنى لم أنصره قط راكبا فى النادى . . وحتى
اليوم لم ألمح وجهه بين وجوه الضباط الرائحة الغادية ، رغم أنى
كنت أبحث عنه بعينى خفية .. خفية حتى عن نفسى .

وبدأ السباق .. ودخل المتسابق الأول الساحة وأخذ فى
القفز .. ولم تمض بضعة ثوان حتى أحسست به طمطم ، تنهض
وتنسحب من حوارنا مستأذنة قائلة إنها ستعود حالا .

وانتهى المتسابق الأول . . وعلت أصدااء التصفيق . . ثم
بوى على المتسابق الثانى .. وبدأ القفز .

وبنفس الطريقة تسلس زوجى من جوارى ، ووجدت
نفسى أجلس وحيدة مع محمود شكرى .

وشعرت بلدى يغلى فى عروقى .

إني لم أحاول قط أن أغار .. أو أنصرف بأى حق .
ليفعل زوجي ما شاء .. ولتفعل الأخرى ما شاءت ..
لينهب الإنسان معاً ، إلى الجحيم ، فذلك ما لا أعبا به مطلقاً
ولكن تسلمهم ، وقتذاك .. بتلك الطريقة المكشوفة ..
ونزكى وجبة مع الزوج لبارد لتغاضى .. وتهاوس
الناس .. وتحول أبصارهم من ساحة السباق إلى حطني أعلى
بالعصب .

لم تعد المسألة مسألة غيرة .. وليكنها كرامة مهدرة
وكبرياء محطمة .. واستهتار بي .. واستخفاف بعواظي .. على
ملا من الناس .

وم أستطع أن أمنع ذلك الدم المتصاعد إلى وجهي ..
والحرارة التي تبعث منه ،

وزد من ثورتي أني أحسست بيد الزوج الاحمق تسلل
فتوضع على يدي بمنتهى البساطة .

ولم أجد وسيلة تكبح جماح غضبي ومع حديث فضيحة
سوى أن أهضر أنا الأخرى بهدوء ، وأعود أدرأحي إلى
وأنتظر عودة زوجي حتى أسوى الأمر معه .

وكما فعل الإثنان فعلت ، وتسلك بين الصفوف هائبة
الدرج إلى أسفل ، ودلفت من المعر الصيق متجهة إلى الشرفة

السفلى الى كانت توضع فيها منضدة البنج بنج . . عندما
أوشكت أن أضرم بشخص قادم من الشرفة .
ورفعت إليه بصرى . . متممة بيضة كلمات اعتذار . .
فوجدته أحمد .

وحاولت جهدى أن أخفى ما بي من انفعال . . ومددت
إليه يدي مبتسمة فشدها عليا . . وقد تامل وجهه سرورا . .
وسألني سؤاله التقليدي :

— إزبك يا عايدة !

— الحمد لله .

— إلى أين ؟

— إلى البيت .

— لمه ؟

— أحس ببعض التعب .

وبدا عليه الانزعاج وتساءل :

— كيف ؟

— صداع خفيف . . ولكنى أفضل أن أستريح .

— ألا تبقين قليلا . . على الأقل حتى تشاهدينى ؟

وذكرت كيف كان دائما يقول لى إن أحب أمنية السمة

هو أن أشاهده يقفز أمامي في مسابقة ، ويعتقد أنه سيستمد
من وجودي قوة تجعله يأتي بالمعجزات ، ويقفز إلى عنان
السماء .

وبدا عليّ التردد .. فعاد يقول :

- إنك لم تشاهديني أقفز قط ، وسأستمد من وجودك
قوة . إذا عرفت أنك تشاهديني فلماذا أتى فتر .. أستيقين ؟
ولم أكن أستطيع أن أقول : لا . فهزرت رأسي موافقة .
وشاع في وجهه الرضا وقال :
- أمامي اثنان حتى يحل دوري .. لن أجعلك تنتظرين
طويلا :

وسرت إلى الصالون الزجاجي .. وهو يسير بجوارى ،
واتخذت مجلسي على مقعد أمام إحدى الماضد ، وأشارت إليه
بالجلوس .. وتردد قليلا وسألي في أدب ، ولهجة ملؤها
الاحترام :

- أين تهاني بك ؟

- تهاني بك ؟

وكدت أفهقه ساخرة .

ماذا أقول له ؟ أقول إنه زاع ، مع عشيقته وتركني
ليتسلى في زوج عشيقته ؟

تصوروا لو أني قلت له هذا ، وهي الحقيقة البسيطة
بلا أي مبالغة .. ماذا كان قائلاني ، وهو الذي يأتي الخلوس
دون أن يسألني .. عن زوجي .. سعادة ألييه المحترم .. خشية
أن يكون في جلوسه بجواري أمام الناس — وهو ابن عاتق —
ما يصابني زوجي .

تصوروا لو أني قلت له :
« اجلس .. إن زوجي لا يابه كثيراً .. إياك على الأقل
أولى من الغريب .. »

ولكنني لم أر ضرورة للفضائح ، ولم أجد غيراً من أن
أقول له ببساطة :

— لقد كان هنا منذ لحظة ولابد أن يأتي بعد قليل .

« اجلس بجواري ، ودان بيننا — في أول الأمر — صمت
تلق مضطرب ، وأحسنت بمرجة الغضب التي كانت تحتاجني
منذ برهة قد سكنت ، وبالعودة التي كانت تعطفني
في صدري قد هدأت ، وسرى إلي نفسي — برغمي — شعور
منع لتزيد متزعزع من أعوار الماضي السحيق .

وطال الصمت ، وأنا لا أقول شيئاً ، إذ لم أجد في رأسي
حاشاً ، سوى تضع كلمات تالية ، لا تناسب قط مع حرارة
الاحاسيس التي تزخر بها نفسي .

وأخيراً قال .. لجرد قطع الصمت :

— كيف حالك ؟

— الحمد لله .. وأنت ؟

وأطرق برأسه مفكراً ثم أجاب :

— لا بأس .. الحياه تسير .

وتذكرت أحاديثه عن أمانيه .. الأمانى للرجرة

والتي يعيش بها زمناً رغداً ، وقلت ضاحكة :

— كيف حال الأمانى ؟

— على خير ما يرام .

— أما زالت كما هي أمانى مستطاعة وأمانى وهمية ؟

— هل ما زلت تذكرين ؟ .. لاني لا أستطيع العيش

بلا أمان .. ولكن الأمانى تنبع مع الزمن .. فهي إما أن

تتحقق أو لا تتحقق .. لما تحقق منها سقط من حساب

الأمانى .. وما لم ينحقق أصابنا منه اليأس .. واستبدلنا به

غيره مما يتناسب مع تطور نفوسنا .

— هل ما زلت اتعنى أن تكون نابليون أو شكسبير ،

أم أن هناك أمانى أخرى تعيش بها زمناً رغداً ؟

وصحك في قهقهة خفيفة وأجاب وهو ينظر إلى عيني :

— من هذه الناحية .. لقد تبدلت أمانى تماماً .. لقد
بنت من مابليون وشكسبير .. لم تعد هذه الأمانى تطربى
كما كانت من قبل .. لقد أصبحت لدى أمنية جديدة .. بنفس
الاستحالة ونفس البعد .. لا أمل فى تحقيقها ، ولا رجاء
فى الحصول عليها .. لكى مع ذلك أحياها زماً وغداً .

— ترى ما هى الأمنية الجديدة ؟

وسمت برهة ، وحاول أن يتشاغل بمشاهدة القمر ..
ولكى عدت أسأل :

— ما هى ؟

ولم يجب .. عدت ألح :

— ألن تقول لى ما هى ؟

— لا .. لا أستطيع .

— والأمانى الأخرى .. التى كنت ترجو تحقيقها ؟

— تحققت كلها .. تقريباً . تحققت كما أرد القدر ،

لا كما أردت أنا ، شفقة متواضعة ، وزوجة طيبة ، وعربة

صغيرة ، على قد الحال .. أما الابن فى الطريق .. ستمر

قدومه فى القريب العاجل .

— أحقاً توشك أن تصبح أباً ؟

— أ كثر على ؟

— ما زلت صغيراً . . ماذا تنوى أن تسمى ابنك ؟

— لو كان ولد أسمته علياً .

— ولو كانت بنتاً ؟

— أنت أدرى بأحب الأسماء إلى .

— حتى الآن ؟

— حتى آخر العمر .

وأحسست أن مشاعري ترفف ، وعواطفى ترق ،
وخشيت من نفسى ومن الجوارح الشاعري الذى أحاطا ، وقت
أحوال مجرى الحديث :

— كيف كان ابتسام ؟

ونجح قولى فى تبييد سحب الحنين التى خيمت علينا ،
وعاد كل منا إلى نفسه ، وأجابنى بهدوء :

— الحمد لله ، لقد أجهدها الحمل كثيراً ، منذ الشهر
الأول وهى فى تعب مستمر . . قه وعثبان ، وقد بدأ عليها
الضعف والإرهاق ، وبخشي الطيب الذى يعودها ألا يكون
الجنين فى بطنها فى رضع طيعي .

وبدأى من طبعته للمرة الأولى أنه ينوء بعبه حياته . .

وأنه لم يعد ذلك الإنسان الممتلئ بالآمال .. الشديدة الثمة
بالحياة والمستقبل .

أجل .. إنه لا يبدو أسعد مني حالا ، ووددت لو طالت
جلستنا وأفضى كل منا للآخر بهوميه ، وتشاركنا في الشكوى .
ألم يقل لي في آخر مرة إننا يجب أن نفترق أصقاء ..
وأن نحول حينا إلى صداقة ؟

وقلت له في صوت خافت :

— إنك لا تبدو سعيداً !

— لا أنا سعيد ، ولا أنا شقي .. حياتي طبيعية كغيري
من المخلوقات .. أكل ، وشرب ، ونوم ، ومشاعب ،
وقت يمر .. ماذا يمكن أن نرجو من الحياة أكثر من
ذلك .. إن الحقائق ليس فيها شيء من بهاء الأمان وروعتها .
وعلا صوت المكبر من شرفة الحكم يأمر أحد
المنساقين بالبدء في القفز ، وبذو الذي يليه — الملازم أول
أحمد عبد السلام — للاستعداد .

وقام أحمد .. ومد يده يشد بها على يدي قبل أن يذهب
لامتطاء جواده .. وهتفت به بلهجة ملؤها الاخلاص :
— شد حيلك .. لا بد أن تفوز .

— أنت التي ستجعليني أفوز .

— إن شاء الله .

وبعد انصرافه جلست مكانى برهة ، ثم غادرت الصالون
إلى الشرفة الخارجية . . حيث كان يجلس حشد من الأصدقاء
والصديقات ، فاتخذت بجلى بينهم ، وجلست أرقب القفز .
واتمى دور الراكب دون أن ألتى إليه كثير الثفات . .
فقد كانت الأفكار تصطبغ في رأسي ، وكان الذهن يتنقل
في شروحه بين غضب على الروح ودعاء لفوز الحبيب . . أعنى
الحبيب السابق .

وبدا دور أحمد . . . وخرج بجواده من الساحة
الصغيرة ، التي تصطب بها خيل المنسابقين ، خلف مظلة
الحكام . . وتقدم الهوينى في ثقة واعتداد . . رافع
الرأس ، بارز الصدر . . ورفع يده بالنحية للحكام ، ثم أدار
جواده تجاه السدود .

وأحسست بقلبي يخفق بشدة . . كأنني أنا التي امتطيت
الجواد وأوشك أن أفز . . وخيل لي أن السدود مرتفعة
جداً ، وغميت أن أصبح به لأسمعه عن القفز خشية عليه .
ولكنني لم أكن أملك إلا أن أكنم أنفاسي وأرقب .

وأنطلق الجواد يصرب الأرض بشدة وقد رفع رأسه
وفتح خياشيمه وسار ببطء نحو سد الأول ، وأخذ يقترب
حتى أخفى منه على قيد خطوات دون أن يبدو أنه قد تحفز
للوثوب ودون أن تكون لديه القوة الدافعة لتجاوز السد ،
حتى كنت أجزم أنه لن يقفز . . ومع ذلك فأكاد يصل
إلى السد حتى وجدته قد وثب بقدميه الأماميتين إلى أعلا ، ثم
هبط بهما من الناحية الأخرى مخلفاً قدميه الخلفيتين بمنتهى
البساطة والسهولة ، وأتم القفزة بهدوء كأنه لم يقفز ، ثم اتجه
إلى السد الذي يليه .

وكان السباق سباق قوة التحمل ، وهو سباق شاق ..
مرتفع الحواجز متعددتها لا يكاد الراكب يسلم فيه من الخطأ
ولذا لا يعمل فيه حساب للزمن .

واسترد أحمد ، في قفزه عابراً الحواجز الواحد تلو الآخر
بمنتهى الهدوء والثقة ، والجراد ينطلق سيقانه بمهارة عجيبة .

وملأني الاطمئنان وأنا أراه يقفز بسهولة وأحسست بفخر
وكبرياء وأنا أسمع همسات الإعجاب تعلو من حولى ، وأصرت
الأيدي تتحفز للصفيق وقد أوشك أحمد ، أن ينتهي دون أن
يخطئ مرة واحدة .

ولم يكن قد بقى سوى الحاجز الأخير وهو حائط خشبي ،

رصد في أعلاه قوالب خشبية أشبه بقوالب الطوب . . ووثب
الجوادر فوق السد محلاً قدميه الأماميتين ، ولكنه لم يكند
يهبط إلى الأرض ليخلص الخلفيتين حتى تعثر وكبا . واقلب
رأيه في الهواء ، ودار الاثنان واختلط الراكب بالجوادر حتى
بدا كأنهما قد أصبحا قطعة واحدة .

وانطلقت متى صرخة مدوية . . وانطلقت بلا قصد
ولا إرادة . . فقد أحسست كأن يداً قاسية تعصر قلبي . . وكأنني
أنا الذي أدور على الأرض مع الجوادر ، وخيمت على عيني
سحابة عندما أبصرت ، أحمد ، يرقد وراة الحاجز بلا حراك ،
ثم أبصرت الرئيسات تخطط في ناظري . . والأرض تمايل
، تتأرجع ، ولم أعد أحس بشيء .

لقد صرخت ، وسقطت معشياً على

كيف حدث هذا ؟ . . كيف أفلتت من الزمام ، ففقدت
ميطرقي على نفسي ؟ لقد كان مني عملاً لا شعورياً ، ولو كنت
أملك نفسي وكان أمرى يدي لما وقع مني مثل هذا الأمر
الذي قد يعبر أمراً مشيناً والذي يفضح خيبة النفس وريثك
حجب القلب .

ولكن كيف أراه يسقط تلك السقطة المروعة وأعمالك
نفسى ؟ كيف أرى الجوادر يسقط فوقه وأبصر جسده للمزب

الحبيب مسجى على الأرض ، ولا أصرح ولا أتد مشاعري ؟
لقد حركت سقطته كامن الحب ، وأيقظت مزاج المشاعر
فم أر فى الحسد الماوى المسجى .. إلا أحمد ، القديم ، حبيب
الروح وتوأم النفس .

وأضت بعد قليل لأجد نفسى مضطجعة على أريكى فى
الصالون ، وقد تجمع الأصدقاء حولى يحاولون إعادنى إلى
رشدى ، ومن بينهم استطعت أن أميز وجه زوجى ، وقد علمته
علامات الدهش والارتعاج .

وللمرة الثانية وجدتنى أتصرف على غير إرادة منى فأسال
فى لهمة وأرتياح :

— ماذا حدث له ؟

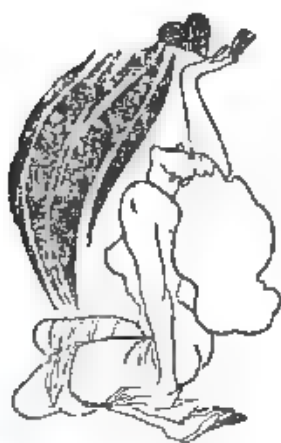
وقال أحد الأصدقاء مهدئاً :

— لا خوف عليه .. ليس به سوى بعض الرضوض .
واستطعت أن ألمح فى بعض الوجوه تساؤلاً وتعامساً .
ثم بدأ السبع ينفض من حولى ، وبصرفون لمشاهدة
الباقى ، ووجدت نفسى وحيدة مع زوجى ،

وتذكرت فعلته الشائسة ، وتسلله مع صاحبه ، وتركه
إلى سخرية أمام الناس ، وكدت أصرخ فى وجهه ، لكن

تذكرت ما فعلته أنا ، على غير إرادة مني . . من إغماء وهفوة
على رجل غريب .

قد أستطيع أن أعتذر أمام الناس بصلة القرى التي بيننا . .
وأني لم أصب بذلك الإغماء إلا لأنه ابن عاتى ، ولكن أمام
نفسى . . كنت أحس أنني مذنب . . وأنى قد أعطيت زوجى
واحدة بواحدة .





على شفا الطهارة



وزوجي إلى الدار يومذاك قبل أن تنتهي
عمرنا السابقات ، وران الصمت بيننا خلال العودة ،
فلم يحاول أحدا أن يناقش صاحبه الحساب أو ينس بينت
شفة عما يخطب في رأسه .

ولم أكن أدري بالضبط نوع الأفكار التي تجول بخاطره .
ولماذا يمكن أن يكون رأيه فيها حث . . لقد كان هناك
شئ - في رأسه ، وهو جالس إلى عجلة القيادة ، شارد الذهن ،
غارب البال .

ما هو ؟

غيرة ؟ . غضب ؟ . ثورة مكبوتة ؟ . ثدم على ما فعل ،
وخوف من الحساب ؟ قلق وانتظار ؟

من يدري ؟ ! !

لو أنه كان رجلا عادياً ، وحدث من زوجته ما حدث ،
في ظروف عادية . . لما شككت في أنه غاضب لكرامته
تنهش الغيرة صدره ، وتخطب الثورة بين جوانحه ! !

أي زوج يحتمل أن يرى زوجته تصرخ وبغى عليها في
حفل عام من أجل إنسان سواه ؟

قد أكون رقيقة القلب ، وقد يكون الرجل ابن خالتي ،

ولكن هل يمنع ذلك .. من أن نمرى في نفسه إحساسات
 العيرة والنعيب والحجل من أقوال الناس ؟
 مما ما كان يجب أن يشعر به كل زوج .
 ولكن زوجي .. الذي يتركني بين الناس لأجالس زوج
 عشيقته دون أن يأبه لأقوال الناس .
 زوجي الذي حاول أن يدخلني في الحلقة المفرغة ..
 يتركني في عصابة الذئاب ، ويطبق عليّ قانون النهر .
 هل يمكن أن ينار وأن يثور ؟
 لأنني أحس أنني مذنبه .. لأنني أكره أن أسبب لزوجي
 ما يهينه أمام الناس وأكره أن أخدش كرامته وأجرح كبريائه .
 وأحس أنني مذنبه .. لأنني أدرى من غيري بمشاعري
 إن ضميري يخبرني أنني لم أستطع بعد أن أقتل حبي .. وكل
 ما استطعت فعله هو أن أكبه وأكته .. فلما أصدت بأول
 هزة .. انطلق من صدري صارخاً فاصحاً
 لا .. لا .. لا .. ما كلن يلبق بي أن أصل ما فعلت
 ودخلنا الدار في صمت ، وذهني يحول بين الزوج الصامت
 النامض الأفكار ، وبين الحبيب الساقط عن جواده المسحى
 على الأرض .

ومضت اللبلة بسلام .. سلام في الظاهر ، والقلوب
منطوية على ما بها .. ثم مرت الأيام بعد ذلك .. هادئة
واكدة .. لا يكاد يحدث أحدا الآحر إلا الأحاديث الهامة
الضرورية .. وزكته يخرج وحده إلا تضع مرآت صحته
إلى السينا ، وعدا ذلك كنت أقيع وحدي في الدار أنسلي
بالعمل فيها أو في الحديقة أو بالقراءة .

ولم أحاول في هذه الأثناء أن أتدخل قط فيما يعمله
زوجي ، أو أسأله إلى أين يذهب أو ماذا يفعل . ولم أحاول
كذلك الاتصال به أحد ، سوى مرة واحدة أطأنت فيها
بالتليفون على صحته ، وتأكدت أنه أفاق من سقطته بعد
قليل ، وأنه لم يصب منها إلا بضعة رضوض بسيطة .

وحل الصيف ، وانتقلنا إلى الإسكندرية ، ووجدت
نفسى مضطرة لأن أخوض معه مرة أخرى غمار التجربة
الأولى ، وأن أعود إلى رفقة الدناب الذين كانوا يحيطون
بنا ليل نهار .. في النهار على الشاطئ وفي الكاين ، وفي الليل
ها بين كارتون وسان استفانو وغيرهما من أماكن اللهو لتي
كننا نقضى بها السهرة .

لم يكن هناك وسيلة للفرار أو التاعد . إذ لم يكن من
المعقول أن أحن نفسى في الدار ، ولا أن أذهب إلى البحر ،

ولا سيما بعد أن مللت طول الوحدة والتبوع في الدار ،
كما كنت في القاهرة .

ووجدت نفسى مكروهة على مشاهدة همة القصة .. قصة
الغرام للعلی التي كان زوجى أحد أطرافها ، ومدأت أجلس
في الكاين وأرقب في صمت كما تعودت أن أفعل دائماً ..
وكان زوجى لإنسان غريب لا يهمنى أمره .

كان المقام لا يكاد يستقر بنا في الكاين ، حتى تردى
ططم ، المايوه .. مايوه رقيق دقيق يبرز مفاتن جسدها ..
ثم تنطلق شبه عارية ووراءها زوجى يعدوان تجاه البحر .
وبعد بركة تطويهما الأمواج بعد أن يعتليا صهوة برسور .
وتمر الوقت وأنا جالسة في الكاين وحيدة مع الزوج
- زوج ططم - ومع شبة أخرى من الأصدقاء أبرز من فيهم
للفرسان الثلاثة .

ولست أدري كيف فاتنى الحديث عن هؤلاء من قبل
وهم مخلوقات عجيبة تمنح الذكر .. أرم بين الرحاب نسيح
وحدم .

الفرسان الثلاثة : كيكو ، ومظلو ، وبنجر ، استأثروم
هكذا لا تحرف فيها ولا تهورر ، هم إحدى عيانات الطبيعة
إياها .. الطبقة المدللة المرفهة .

وهم نوع عجيب من الأدميين .. يصعب على المرء تمييز
كبنه ، ويتعذر عليه معرفة جنسه .. فهم مزيج من الرجال
ومن ربات الحجال .. أو هم - من حق القول عليهم - أشباه
رجال ، ولا رجال .

يطالعكم كيكو ، بشكل رجل لا شك في رجوانته ..
فسيح الجبهة ، أسود الشعر ، عريض الصدغين ، متين البنيان ،
كثيف شعر الذراعين والصدر والساقين ، ليس به ما يوحى
بشيء سوى الرجولة الكاملة ، وليس لديه أية مواهب للتخنث
ومع ذلك فما يكاد يتحدث حتى يروعكم حديثه ، وتصرعكم
لهجة الرقاعة والتخث التي تسيل منه .. فهو يفتى ويتدل ،
ويشلى ويثأره ، ويحشر كلمة « ماما » في كل جملة ، فهو
يقول إن « ماما » نهته عن كذا ، و « ماما » ابتاعت له كذا ،
ولا يفتأ يتعوجج وينهر من حوله بقوله « إيه يا ختي ده .. »
ولا يعلن عن سخطه وغضبه إلا بكلمة « يا سم .. »

هكذا كان كيكو .. « ابن أمه » ، وسليل عائلة كبيرة
الاسم ، عريقة الأصل ، كريمة المعتقد .. رحم الله أصلها ،
وأكرم مثوى الجدود الغابرين الذين تركوا نسلهم في هذا
الخط المؤنت المذكر .

أما الفارس الثاني فهو يروعكم من أول نظرة بشعره

الأصفر الذهبي المسدول على قفاه ، وجسده الأبيض الناعم
البض ، وقيص الشفيون على يديه ، وأصابع قدميه تطل
من « الصندوق ، ذى الكعب العالي ، وقد بدا في أطرافها
الطلاء الأحمر . « وحسوه في عين التي ما يصل على النبي ..
لا تظنوا بقولي تشيخاً ولا توهمو فيه قرينة كاذبة ، فإني
أقسم غير حاتة : أني لم أبصر أطراف الرجل مرة واحدة
غير مطالبة بالمبايكر ..

أما المارس الثالث ، فما كان يقل عن أخويه نفساً
في التخنت والرقاعة ، والدلال والميوعة .

مع هؤلاء .. وغيرهم .. كنت أتصني معظم وقتي ..
وروجي غريق في حبه بين أمواج البحر .. وزوج عشيقته
مارال يرى الشباك حولي ، ويصب الأحاويل .. تاركاً
زوجته نلهو مع زوجي كما تشاء .

وفي المساء كنا نشد رحالنا إلى كارلتون أو المونسنيير ..
حيث يعاد تمثيل المسرحية إماما .. فتحاصر روجي صاحبته
وأجلس لمشاهدتهما .. ويجلس زوجها لعلتي ، والرفاق
من حولنا .

ويعر الصيف وأنا صامدة صابرة .. كنت أثور في مبدأ
الأسر .. ثم أقارم .. واجدة صعوبة في المقاومة ، وتهدئة

نفسى .. وكنت فى بعض الأحيان أوشك أن أهرع إلى أبى ،
ولكنى أعود فأخرج من نفسى .

ماذا يمكن أن يفعل لى أبى ؟ إنى أعرفه معرفة جيدة ،
وأعرف جموده وصراجه ، وسخافته وماديته .

ومن يدري أنه لن ينهرنى ويؤنبى .. أو يتهمنى بأنى
لا أريد البقاء مع زوجى .. لأنى لا أحبه .. وأحب إنساناً
غيره ؟ ..

وعدنا إلى القاهرة أخيراً .. لنعاود سيرتنا الأولى .. أنا
قابعة فى الدار .. وهو منطلق فى غيه .. محن فى ضلالتة .
ومرّ الحزيب المحبب إلى نفسى .. المثير لأجل ذكرياتى .
وبدأت أتعود حياتى .. واجدة كثير من العزبة فى خلوتى
بالدار ، وفى عمل فى الحديقة بين الزهور المحبة إلى نفسى ،
وفى كثرة القراءة .

وفى ذات يوم وقد جلسنا للغداء قال لى زوجى :
— لقد دعاها أبى للسفر إلى العزبة نقضاء بضعة أيام .
واستمرت فى تناول طعامى دون أن أجيب .. فعاد
يتسأل :

— هل لديك مانع ؟

— لا .

— إذا سئمت من الغد ، فقد دعا معنا بعض الأصدقاء .
— كما تشاء .

ولم أجد هناك ما يمنع من الذهاب . . فقد كان كل شيء
لدى سواء ، ولم أكد أفضل حالة عن حالة . . فقد تعودت
ما أنا فيه حتى لم أعد أحس به ، بل أضحيت تماماً . كما قال أحد .
ولا سعيية ولا شقية . . أكل ، وشرب ، ونوم ، ومتاعب ،
ووقت يمر . ماذا يمكن أن نرجو من الحياة أكثر من ذلك ؟
وفي اليوم التالي ذهبنا إلى العزبة . ولم أكن قد ذهبت
إليها سوى تلك المرة التي تم غيا الخطبة . . والتي كنت فيها
مذهولة ، لا أكاد أرى من حولي شيئاً .

وكانت اندار نخمة أتيقة . . قائمة وسط أشجار البرتقال
والمانجو والكروم ومختلف أشجار الفاكهة .

والتقينا هناك بعض أصدقاء أبيه وأسرتهم ، من استضافهم
معنا ، أو استضافنا معهم ، وكانوا خليطاً من أنواع مختلفة من
النساء والرجال ، واستطعت أن أجد في طبقة الدواب أثراً
أخرى غير تلك التي تعودت أن أبصرها في هذه الطبقة . .
أنواعاً تستدعي الاحترام ، لم يفسدها الغرور ، ولم يتفهمها
التدليل . . لم تمنح وفرة النعمة من نفوسهم ، متانة خلقهم ،
واحتيضان نفوسهم .

لقد رأيت من بين الشباب والفتيات العريق الأصل ،
الموجودى الزمان ، من لا يعرف آخر رقصة .. ومن لم يسمع
آخر أسطوانة أمهرنجية ، ووجدت من بينهم من يحفظ لشوقي
ولبنبني ، ولابن الرومي . ومن قرأ لكتائنا واحداً واحداً .
ووجدت من بينهم من يؤمن بمصر .. ويحب مصر ..
وجدت منهم من يتكلم العربية كأحد أبنائها !!

واستمتعت بدعوة الريف إلى حد كبير . وكان الجو صحواً
ولشمس مشرقة ، ولم تقطع السحاب المتناثرة في السماء في
حجب أشعتها إلا هنيهات مقصدة ، أما بقية اليوم فكانت
تسطع دافئة فوق الحضرة الممتدة على مدى البصر .

وكان مفروضاً أن تقضى في العزلة ثلاثة أيام ، ولكني
هوجئت في اليوم الثاني زوجي يبشني أنه لابد أن يعود إلى
القاهرة لأنه تذكر أن لديه عملاً في الشركة لابد من إنجازه وأنه
سيحاول أن يعود في نفس اليوم .

وأدهشني قوله .. فما توقعته قط أنه يمكن أن يكون لديه
زوجي عمل - أياً كان - يستدعي سرعة الإبحار .. فقد كنت
أعلم أولاً أنه بلا عمل ، وثانياً حتى لو كان لديه عمل ف كان
بالذي يحمل عبء مسؤولية ، أو يقدر عاقبة أو يأبه لنتيجة ،
وما كان بالإنسان الذي يقطع زهرة لكي ينتجز عملاً .

ولكنني لم أحاول أن أناقشه .. فقد كنت أربأ بنفسى عن
 الاهتمام به .. وما كنت أهتم بوجوده أو عدم وجوده ..
 ولا كنت أهتم بتصرفاته إلا من حيث الشكليات ، فقد كنت
 أخشى الفضائح وأكره أن نكون مضطه الأفراس .
 وعاد إلى القاهرة ومضى اليوم دون أن يحضر ، وقضيت
 ليلتي وحيدة . وفي اليوم التالى لم يحضر حتى الطهيرة .
 وبدأت أحس بالثورة تعتل في نفسى ، فقد كانت تلك
 هى الشكليات التى تحز في نفسى .
 كنت أكره أن أفقد اعتبارى وأبدو مهجورة أمام هؤلاء
 الغرباء ، وبينهم أساس محترمون ، لا يقارنون من حيث الاعتبار
 بشرذمة الصحابى التافهين الذين تعبوا دنا وفقتهم .
 وصحمت في نفسى على أن أعود إلى مصر ، وأن أعطيه
 درساً قاسياً حتى يتعلم كيف يتصرف أمام الناس .
 وكان بعض الضيوف سيعودون بعد العشاء إلى القاهرة ،
 فعزمت على العودة معهم .
 وسارت العربى بنا تنهب الأرض ، وأنا مكروبة الصدر ،
 مهمومة النفس ، أتعجب من هذا الوضع الذى صرت فيه ..
 وأتعجب من سخرية القدر ، وأذكر المثل القائل : رضبت بالهم
 والهم مش راضى بي ..

ووصلنا إلى القاهرة وقد خيم الظلام ، وسارت العربات تقطع
شوارع القاهرة حتى أوصتني إلى باب الدار وشكرت أصحابها
وسألهم التفضل بالدخول ، ثم ودعهم ودلقت إلى الداخل .
ولم يدم من النوافذ الأمامية بصيص ضوء ، ولم أكن
أتوقع بالطبع أن أجذب زحى بالدار . . وكذلك كنت أعلم
أن الخدم يبيتون في بيوتهم فقد منحهم إجازة ثلاثة أيام ،
وهي المدة التي كنت أتوقع قضاءها في العزبة .

وحدث الله أن أحفظ معي بأحد مفاتيح الباب ،
وعبرت عبر الحديقة ، وصعدت بضع الدرجات المؤدية إلى
الباب ، وأنا أحس بشيء من الرهبة والوجل ، فأتعادت
أن أكون وحيدة في الدار . واعتدت يدي إلى مفتاح الكهرباء
المجاور للباب وضغطت عليه فابعث الضوء في الشرفة الكائنة
أمام الباب ، وأعاد إلى نفسي الطمأنينة .

وضعت المفتاح في الثقب وأدبرته ، ثم دفعت الباب
فانفتح بسهولة ، . وخطوت خطوة إلى الداخل مادية يدي
وراء الباب حيث مفتاح إضاءة الصالة .

وفي اللحظة التي صخطت فيها على المفتاح الكهربي
وغر الزور أحماء الصالة ، وصل إلى أذني صوت يصيح
عسائلا في دعر :

.. من ؟

وكانت مفاجأة الصوت شديدة الوقع على نفسى ، بحيث
أصابنى برجة شديدة ، ويستطيع أى إنسان أن يدرك
هذى ارتياحى وأما أخطو من الباب دون أن يكون لدى
أقل فكرة عن وجود إنسان بالداخل .

وزال الذعر سريعاً لتحل محله دهشة بالغة عندما ميزت
في الصوت المتسائل صوت زوجى . وعندما رأيته يقف بباب
الردهة المؤدية إلى حجرة النوم ، وقد ارتدى « البيجامة » .
عجباً !! أى ربح هوجاء قذفت به إلى الدار فى هذه
الساعة المبكرة ؟

لعله مريض .. وقد أوى إلى البيت لسترخا
ولكن ما باله يقف حامداً فى مكانه وقد فترقاه ، وبدأ
عليه ذلك الذعر وتلك الدهشة ؟
أينفقه منظرى ويرجمه إلى ذلك الجلد ؟
ما باله لا يتكلم ؟

ووجدت نظره قد تحول من وجهى إلى المشجب ..
وحولت بصرى إلى حيث يطر .. فوجدت معطفاً نساءً
قد علق عليه .. وأعدت النظر إليه ، فإذا به يحمل فى ،
وقد اشتد ذعره وبدأ أشبه بفأر فى مصيدة .. ومرة ثانية

تحوّل بصره فتبعته ثانية ، واستقر بصري في هذه المرة على
حقيبة للسيدات ملقاة على مقعد ، ولم يصعب أن أميز عليها
حرفي F.S.

وفي لمح البرق .. تكشفت لي الأمور .. ووضح لي
حقيقته .. فقد استطعت أن أميز من حرفي الحقيبة .. اسم
صاحبتها ، فاطمة شكري ..

وفي الثانية التالية قطع الشك باليقين ، وعلا صوت
صاحبة الحقيبة تنادي من حجرة النوم :
- توتو ..

لقد كانت هي بعينها .. طمطم .. تتعجل زوجي ، وهي
راقدة على فراشي .

وأحسست بالذنب تدور في ، واستندت على حافة مقعد
قريب حتى لا أسقط ، وشعرت بأفاسي تتلاحق ، وصدري
يرتفع وينخفض كأنني في سباق .

إني لم أرع قط أنني أحب زوجي ، أو أعار عليه .
وما حاولت أن أبدي له اهتماماً .. بل كنت دائماً أبتزعج
بالبرود .. وأتعلل بالهدوء والسكينة .

ولكن في هذا الموقف .. أحسست أنني حجرة متقدة ،
وأن صدري يغلي .. وأنا أوشك أن أجن .

أبلغ به الاستهتار إلى هذا الحد ؟
أبلغت به الصفاة والنذالة والجبن والحسة أن يحط إلى
هذا الدرك ؟

ماذا بقي لي من قيمة في الحياة . . وأما أرى زوجي يخونني
في بيتي ، وأمام عيني ؟

أو قد هنت إلى هذه الدرجة . . حتى تستحل امرأة
فراشي وبيتي بمثل هذه البسطة ؟

أقسم أني لو كنت أملك وقتذاك مسدساً لأفرغه
في رأسه ، أو لو كان بيدي أية وسيلة للقتل لما ترددت
في القضاء عليه .

ولكنني كنت أحس أني عاهرة عن أن أفعل شيئاً . .
اللهم إلا الابدفاع في السباب والصراح . . أو الهجوم عليه
وصفقه ، والبصق في وجهه .

ولم تكن هذه الأشياء النافهة لتطلي . حرقتي أو تهدي .
ثورتي .

لقد كنت أريد أن أثار لكراحتي . . كنت أريد أن
أمزق جسده إرباً إرباً

ومضت برهة صمت . . وكلانا يحدق في الآخر . .
وبذلك جهدي لكي أتمالك وأسيطر على أعصابي .

وكنت أول من تكلم ، عندما صاح صوتها من الداخل
يناديه مرة ثانية .. فقد قلت له في مرارة وسخرية :
- إنها تناديك .. اذهب إليها حتى لا تفلق ،
وإذرت له ظهري ، وخرجت من الباب في سكون ،
وأغلقتة خلفي وهبطت الدرج . واحتوتني حلقة الليل .

• • •

سرت في الطريق ، وأنا أحس بيران آكلة تحرق قلبي
ورأسي وجمدي ، وقد تملكني إحساس خليط بين الذمة
والتماسة واليأس والغضب ، والرغبة في الانتقام ، ولم يكن
تفكيرى قد استقر بعد على ما أفعله .. انهم إلا على شيء واحد
لم يكن هناك مجال للتردد فيه ، وهو عدم عودتى إلى هذه الدار ،
وهذا الحيوان الأدنى .

مهما حدث .. فلن أعود .. حتى ولو أدى الأمر إلى أن
أهيم على وجهى .. سائلة .. أو بنيا . ما من قوة تستطيع أن
تعدنى مرة أخرى .. لا أبى ولا غيره .. إني أنا التى سأفرد
مصرى هذه المرة .. كفى استعباداً ، وكفى مدبة :

وسرت برهة أضرب في الطرقات على غير هدى ، وريح
الليل تهب باردة فتشلج وجهى وأطرافى ، ورأسي يضطرب
بما فيه .. وأنا حائرة .. إلى أين أذهب ؟ وماذا أفعل ؟

وتفت حولى .. فإذا بي أمام دار أعرفها جيداً ، ولم
تكن تبعك كثير أ عن المطلقه التي تقطن بها . وهي دار محمود
شكرى ، زوج ططم ، ورفعت بصرى ، فإذا بالوافد ينهض
منها الضوء .

ونجاة ففرت إلى ذهني فكرة طارئة وجدت فيها مخرجاً
لثبث النورة التي تستمر في نفسى ، ومفدأً لذلك البركان الذي
يصطبغ بين جوانحي .

لقد بدا لي من أضواء النوافذ أن محمود قد يكون في
الدار ، وأنى أستطيع أن أصعد إليه حالا فأنبئه بخيابة زوجته ،
وأطلب منه أن يضبطها بتلسة بخطيتها .. وأترك له إنعام
المهمة والانتقام لى ونفسه .

لقد كنت في حاجة إلى من يشار لي .. فإني أحس أني
— كما قلت دائماً — مخلوقة عاجزة .. أو كما قال أخي : إنسان
جبان .. لا أملك إلا المرار والآنرواء والاستسلام للقدر ..
ولكنني في هذه المرة كنت واثقة من أني سأجد إنساناً مواتوراً
يرد عنى الطعنة .

واقتربت من الباب ، وسألت الحارس :

— محمود بك .. موجود ؟

— أيره يا فندم .

— أريد أن أقابله .

— اتفصلي يا هانم .

ولا شك أن الرجل قد عرفني .. فقد سبق أن حضرت
مع زوجي لزيارتهم ، وتقدمي مسرعاً .. ودق جرس الباب
الداخلي .

وفتحت إحدى الخادومات الباب فقال لها الرجل :

— افتحي .. قول لسيدك .. سيدتي عائدة هانم .

ودلفت إلى الداخل ، وجلست أنتظره في حجرة العسالون
ولم تمضُ فترة وحيزة .. حتى أقبل « محمود » مرتدباً قيصاً
وبطلوناً ، وهو يتسم مرحباً ، وقال وهو يضبط على يدي .
— أهلاً وسهلاً .. كيف حالك ؟ وكيف حال « توتو » ؟

لعد كنت أوشك أن أخرج الآن .. إذ لو تأخرت لحظة
لما وجدتني .. لقد ظننت أنكما صافران .. إذ أخبرني
« توتو » ، أنكما ستضيان بضعة أيام « في عزبة الشما » .

سكن أين « توتو » ؟

ولم يترك لي فرصة للكلام أو يحاول أن يستمع لإجابة
سؤاله .. بل انطلق يثرثر :

— هن سررتما من العزبة ؟ لا بد أنكما تضايقتما .. وإلا
لما عدتما سريعاً .. معك حق .. إني أكره الريف .. ملل ،

وقذارة ، وناموس . لقد ذهبت مرة إلى العزبة . مرة واحدة طيلة حياتي ، ولم أطق أن أنام ليلة واحدة ، بل عدت في منتصف الليل ، ولم أحاول تكرارها مرة ثانية ، و . ططم . أيضاً لا تطيق الريف .. إنها تعتبره منقذاً .. لقد خرجت . ططم . منذ العصر .. إلى وحدي في البيت .. كنت أوشك أن أخرج .. سأذهب إلى السينما سواريه .. يوجد فيلم في ديانا من أحسن أفلام الموسم .. لفريد استر . . موسيقى هائلة . . ورقص عظيم .. يجب أن تشاهده .. إن . ططم ، قد ذهبت إلى بيت خالتها وقد تغيب إلى منتصف الليل أو تبث هناك .. لأن خالتها مريضة .. إلى أنصحك . . .

ولم أدر إلا ما كان ينوي أن يستمر في ثرثرته . وأحسست بصري ينغد . ولم أجد بداً من مقاطعته .. فقد كانت أعصابي متوترة وصدرى ضيقاً .. وفلت له في سخرية ومرارة متجهة إلى الموضوع رأساً .

— « ططم » لم تذهب إلى بيت خالتها يا محمود لك .
وبدا لي أنه لم يلق بالاً إلى قول في مبدأ الأمر ، فقد استمر في ثرثرته :

— إلى أنصحك أن ترى الفيلم ، إنه فيلم عيب . تقواين إن « ططم » لم تذهب إلى بيت خالتها .. كيف ؟ إلى واثق

أنها قد ذهبت إلى هناك .

— وأنا واثقة أنها لم تذهب .

— غير ممكن .. من أدراك أنها لم تذهب إلى بيت خالتها ؟

— لأنها ذهبت إلى بيتنا .. وقد تأخر حقاً إلى منتصف

الليل .. وقد تبث فيه تماماً كما قلت .

— ذهبت إلى بينكم ؟ ستقضى ليلتها عندهم ؟

— أجل .. ستقضى ليلتها على فراشي .. وبين أحضان

زوجي .

وقفز من مقعده كن لدغه عقرب :

— كيف تجرئين على هذا القول ؟

— كما حرّوت هي على فعله .. منذ عشر دقائق .. تركتها

مستلقية في غرفة نومي .. لقد تركني زوجي وعاد ليمتع بها

في بيتي وعلى فراشي .. خير لك أن تردعها ، وأن تمنعها من

التسلل إلى بيوت الناس ، وسرقة أزواج الغير .. إن الكلاب

المسورة لا تطلق هكذا بلا قيد .

وكننت أتوقع منه ثورة جارفة .. وعاصفة جماعية لا تبقى

ولا تذر .. وكننت أنتظر أن ينطلق إلى دارنا فيأثر شرفه

المثلوم ، وعرضه المخذوش .. ولكن أدهشني أن أحده

يصدق في .. ثم ينهض يبطء ويذهب إلى باب الحجرة فيغلقه

جيداً . . ثم يعود إلى . . وقد عبت وجهه ابتسامة باهتة .
وأخذت أرقبه بعين حنونة ، وأنا أنحفز لما ينوى أن
يفعله . . ورأيت أنه قد جلس على حافة أحد المقاعد . . وبعد
فترة أطراق قال لي في صوت خافت :

— أنت السبب .

— أنا السبب ؟ في ماذا ؟

— كل يجب علينا أن نبدأ بالهجوم .

— نبدأ بالهجوم ؟ لست أدرى ما تعني ؟

— طالما نفرت مني ، ونبتعدت عني . . لو استجبت إليّ

لكب الراحير ، ولما جلست هكذا ، كأن كارثة حلت بك .

وأنهاني قوله ، وأصابني لصعقة لا تقل عن تلك الصعقة

التي تلقيتها في يتي منذ لحظات .

إنه لم يثر ، ولم يقضب على شرفه المبيض ، ولا اندفع

هاتجاً ليقتحم من الخائس والحائنة . . بل كل ما فيه هو أن جلس

يؤنني ، ويحملني مسئولية ما حدث . . لأنني لم أسجب

لتفكيره ، فكان الياذة بالخيانة . . كأن كل ما حدث كان

أمر لا يعيبه إلا أنه لم يكن نفعاً متبادلاً .

لم يسره أنت تقضي زوجته ليلة مع رجل في فراش ،

ولكن ساءه أن ضاعت عليه فرصة مثلها .

وأحسست بثورة الغضب تتصاعد في صدري .. و هممت
بأن أفضح فيه . ولكنى كبحت جماح نفسي ، واكتفيت ' بأن
أحطق فيه كما أحطق في نوع غريب من الحيوانات .
ولم ألم يحدني أحبيه على قوله أودف قائلا
— على أية حال .. لا بد لنا من الانتقام .

ورفعت إليه حاجبي في دهشة .. لقد بدأت تعاوده
رجولته . وأخذ يتحدث عن الانتقام . وأنصت إليه في لفظة
واستمر هو يقول :

— أجل .. لا بد لنا من الثأر .. العين بالعين ، والسن
بالسن ، واحدة بواحدة ، واليدى . أعلم .. إننا نستطيع أن
نضرب عصافيرين بحجر ، وننتقم لنفسينا بنفس الطريقة ..
سنرد العدوان بعدوان مثله .. إنها ترقد الآن في فراشك ، فلم
لا توقدين في فراشها ؟

وضغطت على أسناني حتى أحسست أنها ستنتفتح ، ثم
تمتعت قائلة :

— جبان .. ساهل .

— مجنونة ! أما زلت تمسكين بأهداب الشرف والعمه ؟
أفي الوقت الذي يرقد زوجك مع امرأة أخرى في فراشك ،
تحاولين التسلك بهذه الحزبات التي بادت وعفت آثارها ! !

هذا الوسط الذى تعيشين فيه لا يابه كثيراً لهذه الرسميات
ماذا يمكن أن تتأرى به لنفسك من التى سرقت زوجك ولو كنت
فراشك أكثر من أن تسرق زوجها وتلوئى فراشها؟ وماذا
أستطيع أن أفعل أما أفضل من أن أقص من الخائر بنفس
طريقته .. هدى نفسك ، وكونى عاقلة . وفكري فيما أهول
لك .. هل يؤلك كثيراً .. أن تخونى زوجك ؟ . من يتقل
عليك ضميرك إذا فعلت ما فعل ؟ لم ؟ . ماذا له من حقوق
عليك ؟ إن الرابطة الزوجية التى بينكما لا تعدو أن تكون شيئاً
وهياً .. لأنها مجرد شكليات .. فإذا لم يعمل هو لهذه
الشكليات قيمة ، ولم يتم لها وزناً . فلم تجعل لها أنت وزناً ؟
لم يتدخل ضميرك فى مسائل تافهة لا محل له للتدخل فيها ؟

معه حق ١١ .. ألم أعترف أنا نفسى من قبل أن ما بينى
وبين زوجى لا يعدو أن يكون عقداً شكلياً كتبه ذلك الشيخ
المعصم . لقد قلت ذلك قبل أن أعرف مدى تقدير زوجى لهذه
الرابطة الشكلية ، فما بالى لأن وقد رأيته يمزحها إرباً ويحطمها
شظايا ؟

إن هذا الرجل الجالس أمامى .. رغم ما أتمته به من
الجن والسفالة ، لم يقل سوى الحق .. إن تفكيره مطلق
معقول : العين بالعين ، والسن بالسن ، واحد به واحد

والبادىء أظلم .. لقد استحوذت على زوجى وفراشى وتركت
زوجها وفراشه حاليين ، فلم لا أستحوذ عليهما أنا الأخرى ..
فأضرب عصفورين بحجر واحد وأنتقم لنفسى بنفس الطريقة ؟
حقيقة إنه أمر مروع .. مخيف .. إذا ما بحثت بتفكيرى
الاول ، وعقليتى السابقة غير الملوثة .

أما الآن ، وأنا امرأة مصابة ، مهينة الجناح ، وفى
هذا الحو الملوث ، وتلك الكبرياء الجريحة ، والكرامة
المحطبة ، يبدو الأمر صعباً لا غبار عليه .. بل هو الأمر
الطبيعى الوحيد الذى يجب أن أفعل .

* * *

هكذا تطور تفكيرى ، وأنا جالسة أحرق فيه وأنصت
إلى حديثه ، وأضخى ذهنى على أتم اسعداد لقبول العرص
وتنفيذ الانتقام .

ونظرت إلى عينيه فلبحت فيهما برقى لهفة ، ورأيت
يقترب منى . فأطرفت برأسى ، وأحسست بجسدى يهتز
كريشة فى مهب الريح ، ومدت يده فضغط بها على يدي مترقفاً ،
وقال فى صوت كأنه خفيج الأفاعى :

— تعالى ...

ورفعت عيني إليه .. فأبت وجهه قد تأجج ببرقان

الرغبة ، وسمعت صوت أفساسه تتلاحق . وشعرت أني أمقته
مقاً شديداً وتمنيت لو استطعت أن أنهال عليه بالصفع ،
لقد كان في نظري أشبه بحشرة حقيرة لا يقل حجارة عن
زوجي المحترم . . .

ولكن يجب أن أتحملة . . إنها عملية انتقام لا أقل
ولا أكثر . . يجب أن أكبت نفوري وأخفي اشمزاري . .
يجب أن أستسلم له كما استسلمت لزوجي من قبل . . وأن
أعود نفسي عليه ، كما عودت نفسي على الآخر .

ورأيتني يجلس على حافة المقعد ، ومد أحد ذراعيه فطوق
جسدي ورفع بيده الخالية ذفي وأخذ يقترب بشفتيه
من شفتي .

وتذكرت أحمد ، في نفس الجلسة ، ونفس الوضع ،
وأحسست بقشعريرة تسري في جسدي .

وبلاوعي ولا إرادة . . دفعت الرجل في صدره دفعة
شديدة ، ونهضت من مقعدي ، ووقفت متحفزة للسؤال كأي
حيوانة نائرة .

ماذا كنت أوشك أن أفعل ؟ وأية هاوية كنت أوشك
أن أتردى فيها ؟

انتقام ؟ . من ؟ . من تلك الحشرة النافذة الحظيرة ؟

أو يستحق أن ألوث نفسي من أجل الانتقام منه ؟ ..
أو يستحق أن أكون من أجله عاهرة بغيا ؟
وأحمد ؟ كيف نسبته ؟

كيف أجسر أن أفكر فيه ، أو أقارن نفسي به .. إذا
ما زدت في الهاوية وتلوّثت بقذارتها ؟
حقاً إنى لا يهمنى أن أكون شريفة من أجل روحى ،
ولكن من أجل أحمد ؟

كيف يمكن أن يفكر فى ، وصى ابنته باسمى ، ويحبنى
حتى آخر العمر ، وأنا مخلوقة قلدة ملوثة ؟

كيف يمكن أن يرانى أنا ، المخلوقة النموذجية السامية ..
المرصعة الآية الشريفة .. التى يضعها - على حد قوله -
في مصاف الآلهة والملائكة ، وقد أضحيت كده طيبم ،
وأماها من سارقات الأزواج ؟

إن كل ما بقى لى في هذه الحياة .. هو تفكيرى فى أحمد ،
وبقضى أنه ما زال يرانى كما كنت دائماً .. المخلوقة اذوى
في حياته .. التى سيذكرها .. حتى آخر العمر ، والتى جعل
منها آماله التى لن تتحقق ، ولكنها تحبه ربما رغداً .

كيف أحطم آماله ، وأبدد أوهامه ؟
من أجل أحمد يجب أن أقاوم ، وأن أترفع ، وأن أتحمّل

كل شيء... وأن أستحق ثقته بي .
 من أجله يجب أن أكون تلك المخلوقة السامية المثلى ...
 يجب أن أبقى دائماً في مستواه الرفيع .
 إن أحمد هو زوجي الحقيقي ... هو روج روحي وتوأم
 نفسي ...

لقد عقد المأذون زواجي على «تهاني» عقداً بين
 الأجساد ... أما عقد القلوب والأرواح ، فقد كان بيني
 وبين أحمد من قبل ذلك بزمان طويل .
 إذا غابني زوجي ... فليذهب إلى الجحيم .
 إن أحمد وحده هو الذي يملك عليّ حقاً ... ويجب أن
 أرفع هذا الحق .

يجب أن أصون نفسي وروحي عن الاندفاع في الخطيئة .

° ° °

رددون أن أنيس بيت شقة أدرت طهرى واطلاقت ،
 هاربة من المحاولة التي كنت أوشك أن أزلق فيها .





ما قبل الفسق



إلى الطريق مرة ثانية ، وانطلقت في الفلصات
غمرجت أضرب على غير هدى ، وأما أحسن أن نجوت
من خطر أوشك أن يودى بي .

وأخذت أمعن في السير ، كأنى فريسة مطاردة ، حتى
وصلت إلى الشارع الموازى للنيل والمؤدى إلى الكورى
الإيجلىزى (كورى الجلاء) . وهبت موحه من ريح باردة
سرت في عظامى فعضمت المخطف جيداً حول جسمى .

ووصلت إلى الكورى وبدأت أتأمل وأسير الموبنا .
لقد بتت في ذهى المشتت الشارد فكرة جديدة ، أوحى
إلىّ بها خرر الماء الجارى أسفل الكورى في حللكه الليل .
لم لا ألقى بنفسى في اليم فأستريح من الحياة ؟
عاذاً يحلانى أتشبث بحية فارغة خاوية حالكة ، لا يبدولى
منها مارقة أمل أو شعاع رجاء ؟

ماذا يمكن أن أمل من حياى ؟
إن أقصى ما يمكن أن أحصل عليه هو الخلاص من
زوجى .

ومعد ذلك ، أقبع في دلى ، مطلقه ، بالسة بائسة ١١

لو إن أحمد لم يتزوج ١٢

ولكن هل كان يقبل أن يتزوجني الان بعد أن خذته
في أول مرة .. ولفظته لفظ النواة ؟

أجل . إنه إنسان كريم ، وهو ما زال يحبني ، ولن يكف
عن حبي مدى الحياة .

ولكن ما فائدة كل هذا : وهو متزوج فعلا ؟
إن الانتحار هو خير وسيلة للخلاص .

يجب أن أتوقف .. ثم ألقى بنفسي من فوق السور
الحديدي . وفي ثوان معدودة سيكون كل شيء قد انتهى .
إن الخلاص يحتاج إلى شجاعة وجسارة ، ويجب أن أكون
شجاعة ولو مرة واحدة حتى أبحو من حياتي التعسة الشقية .
دار ذلك الحديث في رأسي .. دون أن أتوقف ..
وانتهى الحديث ، وقد انتهت من عبور الكوبري .. دون
أن ألقى بنفسي في الماء .

لأن ملأت كما كنت دائما .. مخلوقة جبابة .. لا أستطيع
أن أقدم على ما فيه خلاص نفسي .. وكل ما أجسر عليه هو
التفكير ، ولا شيء أكثر من التفكير . أما التنفيذ .. فامر
لم أحاوله قط .

وعندت أفكر نابذة فكرة الانتحار .. قائلة لنفسي ..
يـَـمَ أجمل بالحكم على نفسي ؟ .. لم لا أنتظر ؟ .

وما دمت قد وطلت نفسي على الموت .. فإني أستطيع أن
أحتل أى مكروه في الحياة .

وهكذا سرت أنخطط بين أفكارى المختلفة المختلطة حتى
وصلت إلى كوبرى « قصر الليل » ، وأعاد مظهر الهر الثريصر
والماء الخالك .. فكرة الاسحر إلى رأسى ، ولكنها لم تزيد عن
أن تكون فكرة . ونهيت كذلك من عبور الكوبرى دون
أن أتوقف أو ألقى نفسى في اليم .

ورسلت إلى ميدان الإسماعيلية ، وبلا تفكير انجعت إلى
موقف الأتوبيس (رقم ١٤) الذاهب إلى حدائق القبسة ،
وصعدت في إحدى العربات .

إلى أين أذهب إن لم أذهب إلى بيت أبى ؟ هل لي ملجأ
سواه ؟ .. مهما سرت في الطرقات .. أليس للسير من نهاية ؟
لقد بدأت قدمائى تكلان فعلاً ، ولا بد أن أجد لي مقراً
تكون به عاتمة المطاف .

وتحركات العربى عبر الشوارع المصيبة الصاحبة وجطست
أحرق من وراء زجاج النافذة فى المناظر العابرة دون أن
أعى منها شيئاً .

كنت لا أحس كثيراً بما حولى .. فقد كان فى ذهنى
شديد ، وكان ذهنى قد أعبته الحوادث ، وأضناه التفكير ..

فتباد وحده .. وأصحيت في جلستي في العربة أشبه بمریضة ذاملة
أو عجيولة تائهة

ولم أشعر بمرور الوقت ، ولم أميز معالم الطريق ، بل
وجدت نفسي في النهاية ، وقد حلت العربة إلا منى . ورأيت
السائق يغادر العربة ، والكسارى يتسامل في طهجة لا تغلو من
السخرية :

— لقد وصلنا النهاية يا هانم .. أم تريدین العودة معنا ؟
ونهضت في صمت .. وعادرت العربة .
وتوقف أنظر حولي ، ولم أتمالك نفسي من ضحكة حائنة
مريرة ساخرة .

يا للسخرية !

لقد وقفت تلك الوقفة من قبل وشتان بين وقفة ووقفة !
هذا هو الجامع القائم في زاوية الطريق ، خيمت عليه
حلكة الليل .. فلم يبد منه سوى شبح مظلم كالإطلال البالي
تقوم بينها المئذنة كأنها مارد يوشك أن ينقض .
والطريق قد بدا موحشاً مخيفاً جرّده الشتاء أحمر أزهاره
وأخضر أوراقه ، وترك أشجاره المتكاثفة مجردة عارية كأنها
هياكل الموتى ، أو قوائم القبور .

والسمااء .. والكواكب .. والنجم الثاقب .. قد باتت
كلها غطاء مطلقاً يطبق على الأرض .. والسم قد عاد ريحاً
تصفر وتئن وتقول وترن

وأنا .. وحيدة .. بلا أحد .. ولا أمل .. ولا رجاء ..
باللعجب ! .. أكان يخطر لي على بال وأنا ألعب مع
أحمد وقتنا الساحرة وقد غمرنا صوء القمر .. وأقم نفسها
الأمل .. وفاضت جوانحها بالمتعة والهاء .. أن هذا المكان
يمكن أن يضحى ما هو عليه الان ؟

كيف يمكن أن تتبدل الكائنات مثل هذا البديل ؟
كيف يمكن أن ينبع اليأس من مائع ارجاء .. وبنت الشقاء
من منابت الهباء .. ؟

وبدأت السير .. لا لأعود إلى الدار .. بل لأخوض
غمار الطريق الموحش المظلم ..
إلى أين ؟ .. وله ؟ ..

أهو إيمان في التعذيب ؟ أم عدو وراء سراب ؟
ليكن ما يكون .. إن بي إلى السير في الطريق ، والجلوس
على الساقية .. حيناً لا يقاوم ، ولطفة لا ترد ..
إنه تعذيب تمتع .. وألم لتبذ ..

مهما كنت .. ومهما كان المكان .. فإني أحس فيه
بجلاء الاستقرار وسكينة المأوى .

مهما كان بي من حزن ويأس وشفاء وبؤس ، ومهما كان
بالمكان من طيبة ووحشة وكآبة وجود .. فإني أتوق إليه .
وأدلف عليه .

إن لي فيه حياة .. بل إنني لم أحي إلا فيه .. أما فيما عداه
فقد كنت في عداد الموتى .

وسرت في الطريق الخائن المعرق في صمت المبور ..
وسور السراى يقوم على يميني قائماً مظلاً : يبدو في ارتفاعه
وضخامته كأنه حاجز يمتد من الأرض إلى السماء .. والريح
تهب من ناحية المزارع صرصرأ عاتية .. تصطدم بأطراف
الجازور وبالعالية القسائمة وراء السور ، فتزسل منها فحيحاً
مخيفاً .. وكل شيء يبعث على الخوف ويثير الرعب .. ومع
ذلك فما أحسست خوفاً ولا رعباً .

كنت أسير في ثقة وطمأنينة ، وقد قرأت نفسي وتهددت
أحزاني .. واستتب في نفسي الأمن وعادتني السكينة ،
وداخلني إحساس تائه صال يوشك أن يهتدى إلى مأواه ،
وغريب طالبت غربته بهم بأن يعود إلى وطنه .
كنت أشبه بجندي دفع به في أتون المعركة وخاصر عمارها

بين الدوى واليران والثرى والدماء . . وأصابه منها ما خطمه
وأهدته وعيه . . ثم أفاق في حلقة الليل بين الأشلاء الراقدة
والسكون السند ، وأخذ يزحف على يديه وقدميه بين الحياة
والموت ، حتى لاح له بارقة هدته إلى معسكره . وأعادت
إليه الأمل في الحياة .

ووصلت إلى الساقية ، ولاح لي شبحها أسود قائماً . .
لا تستطيع العين أن تميز منها سوى كتل داكنة تقوم وسط
الحقول العارقة في الدياجير .

واتخذت طريقاً إليها . . عارة الممر الضيق الذي طالما
اجتزأه سوياً ، وقد تشابكت أيدينا وتلاصق جسدانا .
وجلسنا كما تعودت أن أجلس دائماً . . على جزء من
السور المنخفض المهدم . حيث مهد لي ، أحمد ، مقعداً بين
الحجارة انشائمة . وأحسست أن كل شيء قد عاد كما كان ، وأن
السنين التي ولت قد رجعت بي القهقري . . وأني قد عدت مرة
أخرى إلى العهد البائد والأيام الخالية .

وماذا بعد ؟

ماذا بعد هذه الجلسة . . التي أثارت هاجس الذكرى ،
وكامن الشجن ؟

ماذا أرجو ؟ وماذا أؤمل ؟

وخلت في نفسي هائفاً يهتف بالمعبد المقدس :
هل الزمان معيد فيك لدينا
أم الليالي التي أمضته نرجعه ؟
وأجبت نفسي بضحكة مأزوماً السخرية .
أي زمن هذا الذي يعيد اللذة المنصرمة والمتعة البائسة ؟
وأي ليالٍ تلك التي ترجع ما أمضت .. وتعيد ما سلبت ؟
ذلك عهد لم يعد يرجى في منه سوى استعادة الذكريات
وترديد الأحلام .
كل أمل فيه .. لا يعدو جلسة كهذه .. تكتنفها الوحشة
وتحيطها الظلمة .. ويحدها السكون والهدوء ..
جلسة كهذه .. أجلس فيها بجوار الساقية الخربة في عصف
الرياح .. وصبابة البرد .. وجمّة الليل .. كأنى شبح من أشباح
الخرائب .. قد باتت كل زادى في الحياة .
بالسخرية ..
أذلك هو أقصى ما أستطيع الحصول عليه في دنيا الملية
بالنعم والمتع والاندات ؟
وأحمد ؟ لطف نفسي عليه ، وعلى مسة من يده ، وهمسة
من شفثيه !
ماذا يقصير القصر .. لو أرسله إلى في هذه اللحظة ؟

أكثر على القدر .. أم أكثر على ؟
القدر الذى يكيل الضربات ، ويقتن السخرات ،
ويحكم تدبير أسباب الضراء .. لم لا بكرمى مرة يدبر لى
فرصة سراء !

أكثر على القدر الماهر البارع .. أن يدبر بيننا لقاء
غير سل إلى أحمد على غير موعد ؟

أم أكثر على أن أحظى بهذه النعمة ؟
وتذكرت آخر جلسة لى بجوار هذه السقية .. صباح
الزفاف ، وحيدة كما أجلس الآن ، وتذكرت حنى إليه
ولفتى عليه ، وتوقى مجيئه بين لحظة وأخرى .. آمله أن تدبر
لى المصادفات لقاء آخر .. وتذكرت عودتى بحنى حنين ..
خاتبة الرجا .. محطمة القلب ..

من أم ؟ .. حقاء .. غيبة ؟ ! أعلل النفس بآمال زائفة ..
وأوهام سرابية !

تلك أشياء لا وجود لها إلا فى القصص .. أما فى الحياة
الواقعة ، فإن الأقدار أبخل من أن تجود بها .

ذلك اللقاء المحكم الذى تدبره المصادفات المحضة .. هو
شئ أشبه بالمعجزات ، وما أظنى — بعد كل ما حدث —
أطمع فى معجزة .

أين مني الآن .. صنو الروح وتوأم النفس ؟
 أتراني أطوف بحاطره كما يطوف بخاطري .. أم تراني
 لا أشغل من رأسه فيد شعرة ؟
 أغلب الظن أنه جالس في بيته يتمتع بالدفء .. مشغول
 عني .. بامرأته وبطفله ١١
 أجل .. إنه لا شك يذاعب طفله الآن .. فسا أطن
 امرأته إلا قد وضعت .
 ترى ماذا أنجب ؟ .. بنتاً أم ولداً ؟ .. أتراه سيصدق
 في وعده ويسمى البنت ، عايدته ، كما قال لي ؟
 أتراه سيذكرني إذا مانداها ؟ .. أم ترى اسمها سيمحو
 اسمي فتصبح لديه « عايدته » واحدة .. وعفا الله عما سلف ؟
 من يدري ؟
 وانطلقت من صدري رهرة حارة ، وأحسست بعبرتين
 ساخنين تسيلان على وجنتي .
 وما الآخرة ؟ .. ما آخرة كل هذا ؟ ١٢
 أليس من الخير لي أن أغادر المكان ، وأعود إلى
 الدار ؟ أما كنفي أو هلماً وأحلاماً ؟
 وهممت بالنهوض متثاقلة .. عندما سمعت جفأة صوتاً
 يشق السكون ويهتف بي :

— آبتِ ؟ .. عايدة ؟
وأفزعني الصوت فزعاً شديداً . . فقد كان وقعهُ في
أذني وسط السكون السائد . . وأنا لا أتوقع وجود أحد
لي . . شديد المفاجأة على نفسي .
وتملكنتني منه رجفة خوف . . سرعان ما أعقبها
ذهول شديد .

من يصدق هذا ؟ .
مستحيل . . لا يمكن ! .
إني لاشك واهمة حالة .. أأصابني خبل ، ومستنى حجة ؟
أهو حقاً أحمد ؟
أم تراني مارأيتهُ وما سمعته . . ولكن شُبّه لي ؟
أجل . . هو ذاك ولا شك . . لقد جَسَدَهُ في الوهم من
فرط ما تذبذبه وفكرت فيه .

ومع ذلك . . فقد أخذ الشبح الطويل الفارع القامة ،
يقترِب مني . . حتى بت أكاد أسمع تردد أنفاسه .
لقد كان هو أحمد . . بدمه راحته . . لا وهم ، ولا شبح .
وكنت أنا المتسائلة هذِهِ المرة في صوت مبجوح ،
وأنفاس لاهتة :
— أحمد ؟ !

ومضت فترة صمت ، وكلانا يحدق في صاحبه متدوها
مهوَّتا دون أن ينبس بكلمة -

~ ~ ~

إني أحاول الآن أن أصف مشاعري وقتذاك ..
ولكن يبدو لي أن الألفاظ والتراكيب تعبا عن وصفها ..
وتبسيطها حقها .

لقد حدثت المعجزة أخيراً ، في زمن خلا من المعجزات
وتحقق الرجاء الذي لم أجسر حتى على التفكير فيه .

ها هو أحمد .. ما جلس في بيته يتمتع بالدفء ، ولا شغل
عنى بامرأته وطفله ، بل يقف معي بجوار الساقية الخربة ..
يشاركني في رجفة لقر ، وعصف الريح ، ووحشة الليل .

وحشة أحاش الله أن تكون الوحشة حيث يكون أحمد .

لقد وفقت أحملق فيه ، وقبي يدق بعف ، ويكاد يقفز

من بين أضلعي ، وقد تبعد من نفسي كل ما كان بها من حرئ

ويأس ولوعة وأسى .. وتطأرت من رأسي الهموم

والأشجان .. ونسيت كل ما مر بي من حوادث مثيرة صاحبة ،

واعحي من ذهني كل مافي الوجود من كائنات ومخلوقات ..

ولم أعد أرى إلا مخلوقاً واحداً .. هو أحمد .

كست أقب أمامه .. بعد طول شوق ولهفة وحرمان

وهجران ، وبعد طول خيوع للبسائى . وخضوع للتقاليد ،
وبعد طول إخلاص لزوج لا يستحق الإخلاص ، ومحافظه
على شرف ملوث مثوم .

كنت أقف أمامه . . كالجمهرة الصادية . . ألهمها المحجير
وأحرقها السعير ، وكادت تهلك ظلماً . ثم لوح لها بقطرات من
الماء البارد العذب .

ولم أنبس بينت شفة ، ولم أسأله من أين أتى ؟ ولا لم
أتى ! لم أسأله عن شيء قط .

هل يسأل الضامى الذى كاد يقتله الظلم . . عن مورد الماء
وكيف أتى ؟ أم يندفع إليه ليهديء من حرارته ويطنئ غمأه ؟
كذلك فعلت .

لقد اندفعت فى أحضانه . . بلا كللة واحدة . . حتى
ولا التحية . . لقد أثرت لنفسى من طول الصوم وازهد ،
والكبت والحرمات .

وضمعت إليه . . وأما أرتجف وأرتعد . . ولم أتمالك من
الامدفاع فى البكاء . وأخذ جسدى يهتز بين يديه ، وأما أشفق
شقيق طفلى يتحب .

وهدأت نفسى أخيراً ، وكففت عيائى عن البكاء ثم أخذت
أنحسسه جيداً . . لأننا كد أنه حقيقة . . وأبى لست حامله .

وقلت له هامة :

— كيف أتيت إلى هنا ؟ . كيف حدثت المعجزة ؟

وأجاب وهو يجلسنى بجواره فى مجلسنا القديم :

- كيف أتيت أنت ؟ هذه هى المعجزة ! أما مجيئى لما
هلبس من المعجزات فى شىء .. فليست هذه هى المرة الأولى
التي آتى إلى هنا .. طالما جئت وحدى .. وقضيت الساعات فى
الوحشة والظلمة والسكون .

— أنت كنت تأتي إلى هنا ؟

— ولم لا .. ما أحسست بالهدوء والسكينة إلا هنا .

— عجباً ! كنت أظنك أنتم بالا .. وأقر نفساً .. كنت
لظنك نسيت المعبد المقدس .

- كيف أنسى ؟

— ظننت أن لديك من مشاغل الحياة ما يشغلك عن
تلك الذكريات البائدة ، وخلتك ، وأنا جالسة وحيدة فى تلك
الظلمة .. تنعم بسفوف الفراش .. هاتماً بزوجتك وابنتك .

— زوجتى وابنتى ؟

وانطلقت منه ضحكة ملؤها المرارة والسخرية .

وأدهلتنى ضحكته البائسة البائسة .. وأخذت أرقبه
فى إشفاق ودهشة .. فوجدته يطرق برأسه إلى الأرض .

وأردف في صوت خافت :

— لم يعد لي زوجة ولا ابنة .. لقد ذهبنا كلناهما ..
الزوجة والطفلة .
— كيف ؟

— كانت الولادة عسيرة .. احتاجت إلى إجراء عملية
جراحية .. أودت بالأم والجنين .. رحمها الله .. لقد تعدت
منذ اليوم الأول للحمل .. لم تر يوم راحة قط .
وتعلكتني عليه لوعة .. إنه لم يكن أفس مني مهاباً ..
حتى آماله البسيطة التي قنع بها .. ذنبا الرياح .
وسأولت أن أقول شيئاً على سبيل العزاء .. ولكني
لم أجد ما أقوله .. فضنطت على يده في صمت ،

ورفع إلى بصره ، وتسأل :

— وأنت .. ماذا أتى بك إلى هنا ؟

— أتى بي ما أتى بك .. أبني الطمأنينة .. وأتلس
العزاء والسلوان ؛

— وعمّ العزاء ؟

— عن كل شيء .. عن حياة مدمرة محطمة .. وعن
مستقبل مظلم حالك .

— كيف ؟ ماذا حدث لزوجك ؟ هل ... ؟

وأدركت ما يعنى بسؤاله .. فهرزت رأسي يطم ..
وأجبت :

— لا .. ما زال على قيد الحياة .. نعم بمباهجها ، ويرتع
في محبوبتها ورغبتها .
— إذا فإذا حدث ؟

وبدأت أقص عليه ما حدث .. منذ البداية . وشرحت
له تصرفات زوجي وأفعاله . وذكرت له حادث مسابقة
الفرسية .. وغيره وغيره ، وذهابا إلى العزبة ، وعودته
وحده .. ثم أبياته بحوادث الليلة .. وكيف وجدتهما معا
في البيت ، وكيف ذهبت إلى زوجها وماذا قال لي .. وكيف
فكرت في الخلاص بالانتحار ، وتصميتي على الذهاب إلى
أبي رغم ياسي منه .
وقدت له في النهاية .

— لقد سألني قدامى إلى هنا بلا إرادة مني ولا تفكير .
لم أكن أتوقع قط أن أراك .. كنت أتلس العزاء من مجرد
ذكرك .. من الشارع القفر .. والساقية الخربة .. وكنت
أحن إليك حنين يائس أضاع الأمل ، وقطع الرجاء . وكنت
أعتبر لقاءك إحدى المعجزات .. وعندما سمعت صوتك
يهتم بي في الطلبة .. كنت في أقصى درجات اليأس .. وقد

هممت بالعودة إلى دارنا ، رغم أنى لا أتوقع من أبى خيراً .
ولكن إلى أين أذهب ؟ .. إن التشرذم والسؤال خير لى
من العودة إلى حياتى السابقة .

ورفع يدى موضع ظاهرها على فيه .. وضمنى إليه
بأحد ذراعيه . فازددت به التصاقاً .. وقال لى فى لهجة
تذوب رقة وحناناً :

— لا تقولى هذا .. أنت تشردين ؟ .. أنت تشقى
فى حياتك ؟

وأحسست وقد التصق جسداً وأسدت رأسى على كتفه
بطمأنينة عجيبية وهتفت بغير وعى :

— لا تتركنى وحيدة .. كفى صبراً وتجهداً واحتمالاً ..
إنى لم أعد أحتمل البعد عنك .. لقد أخذت نصيبى من
الحرمان والشقاء .. وأنت ؟

— أما ! ! ماذا تظنين حياتى كانت ؟ .. حياة كمل فراغ
ووحشة ، ورياء وشناق .. حاولت أن أحصع شئبة القدر
وأن أكون زوجاً وفياً ، ولكن وفائى كان مداومة .. كنت
وفياً فى الظاهر .. أما فى الباطن .. فما استطعت قط أن أتحكم
فى ذلك النائر فى الحسايا .. المتورد بين الضلوع .. كم حاولت
تهدئته وتسكينه . ولكنه ما كان يهدأ إلا ليثور لأقل ذكرى

وأبسط سائحة .. كل شيء كان يذكرني بك .. ما من شيء ..
طاف بي إلا ورأيتك فيه .. كنت أراك في السماء الصافية ،
والجوارح لزامية ، وأسمعتك في حفيف الورق وحنان الورق ..
كنت أذكرك عندما أمام أو آكل أو أستيقظ .. كل
المتناقضات كانت تذكرني بك : زهور الداليا ، وبرطبات
المستردة .. هديل الحمام ، وصحيح المكائن ... كنت
أذكرك وأنت صائفة في البيت جاثلة بمنفضة في يدك ..
أو جالسة في الخديعة ، عارية القدمين .. ملوثة بالطين ..
لم أستطع أن أزعجك من نفسي .. لقد فشلت فشلاً
ذريعاً في ذلك .. كيف لا .. وقد كنت أخطئ أحياناً
فأنتى زوجتي باسمك .. كيف لا .. وأدما كلفت منذ
اليوم الأول من زواجي .. عن زيارة معبد المقدس ..
والجلوس وحيداً .. هنا في هذا المكان الموحش الخرب ..
لقد كنت وأنت جالسة وحده .. تعتبرين حضوري إحدى
المعجزات .. ولكنني كنت أرى حضورك .. وأما حالي
وحدي .. فرق المعجزات .. لم أحاول قط أن أفكر فيه
أو أتوقع حدوثه .. ومادام يمكن أن يدفعك إلى الحضور
لأقصى الأرض .. وأنت منعمة مرفقة .. هائلة قريرة ..
إلى ما أتيت هنا قط لمحاولة لقائك .. فقد كان ذلك أبعد

الاشياء عن ذهنى . . كل ما كنت أبغيه من الحضور . . هو
التنعم بالذكريات الخالية . . ما أردت أكثر من أن أجلس
وأفكر ، وأنعم بالهدوء والاستقرار . . كانت حياتى شقية
معصية . . فما كان هناك بينى وبين زوجتى أقل تفاهم . . كانت
تشك فى . . دون أن تعرف شيئاً طاهراً لهذا الشك . . كانت
تدرك بغريزتها أن فى قلبى إنساناً آخر . . يستحيل عليها أن
تطرده منه لتحل محله ، ولكنها لم تجد فى تصرفى انطام
نحوها مأخذاً أو نقيصة . . كانت تحس أن الرباط الذى يشد
أحدنا بالآخر سطحي واه ، لا يربط بين قلوبنا ، بل بين أناملنا .
وكانت متبرمة شاكية . . متوترة الأعصاب ، وراد الحمل
من توتر أعصابها وإنهاك نفسها . . فأصحت لانتطاق ، وبت
أرى البيت الذى كان لى أمنية عزيزة جحياً يستعز بالشكوى
 والمرض ، وسلب الخدم وحجيجهم . . وكان لابد أن أجد
لى مهرباً . . أنا الذى لا أحب أكثر من السكون والبشاشة
والهدوء .

ها كان مهرى ومفرى ومخرجى من سفير الدار . . حتى
هدأ السفير ، وسكنت الدار ، وذهب كل شيء كأن لم يكن ،
وهدأت الثورة كأنها هبة غبار تارت من حولها برهة ، ثم
استقرت على الأرض ، أو تهددت مع الريح .

وخرجت أشيعها وأما مطاطي الرأس ، محني الهامة ..
أسائل نفسي فيم كان كل هنا ؟ ما بال القدر يستمر في عبث
لاطائن تحته ، ولا جدوى منه ؟ لقد أصابني بزواجها ،
وأصابني بوفاتها .. فيم كان الزواج والحمل والولادة .. إذا
كان كل ذلك قد انتهى إلى لا شيء ؟ إلى قبر بشفرة وعظام نخرة .
وعدت من المقبرة ، وكأني قد شيعت عبثاً ، وحملت عبثاً
أثقل وأمر ، ولم أذهب إلى الدار ، ولا إلى الميس ، ولا إلى
الثكبات ، بل تسالت من بين القوم لآتي إلى هنا لأدفن
أحزاني وأغرق همومي .. فإذا أجذك بعد طول لفة وحنين ،
وقد بلغ في اليأس من لقائك أشده .. وإذا بك تسأليني
ألا أتركك وحذك .

أنظنين أنني أستطيع تركك هذه المرة ؟
لينهبوا جميعاً إلى الجحيم بتقاليدهم وقيودهم ومبادئهم ..
ولتنطبق السماء على الأرض .
تعالى .

وحذيتي من يدي ، وحثنا الخطى تاركين الساقية ،
عابرين المسر إلى الطريق ، وكنت أحس وأنا أمسك في يده
وأسرع بحواره .. أني قد أصحيت مخلوقة أخرى .. من نفسي

الجسارة وملء روحى الجرأة والإقدام .. لا أخشى عواقب ،
ولا آبه لتأنيج .

كنت أحس أنى لا أسير على الأرض ، بل على هام
الحب .. وأنى قد ألقيت عن كاهلى كل ما أثقله ، ورميت
عن ظهري كل ما أنقضه ، وأنى بت حرة طليقة ، وأنى قد
حطمت القيود ودمرت الأغلال .

لقد صفا ذهنى ورسبت شوائبه ، وحللت فكبرى من
كل شيء .. إلا شيئاً واحداً ، هو أنى أسير بجوار أحمد ،
وأنى سأبقى معه .. لن تبحرؤ قوة على الأرض أن تنزعنى
منه .. سأكون له أى شيء .. حتى مجرد متاع .

كفى بعداً وحرماناً .. كفى استعباداً للشرف والتقاليد
والقيود الزوجية .. لن أترك أحمد مهما حدث .

أليس هذا الإحساس كافياً لأن يقر بنفسى ؟

لينهبوا جميعاً - كما قال - إلى الجحيم .. الروح
والآب ، والخلق كلهم ، ولسطيق السماء على الأرض ، فما عاد
يعضرنى شيء مادمت معه .

بهذه الأفكار النائرة الحرة الطليقة ، خرجت من
المزارع إلى الطريق . فرجدت عرته الصغيرة تنتظر على
الجانب القريب ، ودون أن ينبس ببنت شفة فتح بابها .

وأجلسني . . ثم اتخذ مجلسه أمام عجلة القيادة . . وفي لمح
البصر . . انطلقت العربة تهب بنا الأرض نهياً .

وتلفت إليه قاداً به قد شرد بذهنه ، وأخذ يحمق ببصره
في غياهب الطريق الذي اخترقه الشعاع المنطلق من مصباح
العربة ، وسألته بصوت أشبه بالهمس :

— إلى أين ؟

— إلى أقصى الأرض ، إلى القمر ، أو إلى المريخ . .
لانسألي عن شيء . . ألا يكفي أن نكون معاً ؟

— أجل .

— أنتخين شيئاً ؟

— أبداً .

— أنتخافين عاقبة ؟

— ولا الموت .

— أو أوافقك أنت ؟

— ليس أحب إليّ من الموت بحوارك .

ووصلت العربة إلى نهاية المور من ناحية المطرية ، ثم
لف بها يميناً بحوار السراي ، وبعد برهة عبرت شريط السكة
الحديدية عند محطه سراي القبة ، واتجهتا يساراً في طريق

الزيتون . ثم يمينا في أحد الشوارع الفرعية ، وتوقفت العربية
وترك أحمد مقعده قائلا :

— دقيقة واحدة .. لا تغلقى .

وتركنى في العربية ، وابتعد قليلا ، ثم دلف في أحد
الآبواب ، ورغم رجائه لى بالآأألق ، فقد أحسست بالةألق .

لقد كنت أأتمد شجاعأى من وجوده ، فلما غاب بدأت
أأأأوى .. ولكن لم أأأض دأقأة كما قال أأأى أبصرت بأشأأه
أأأأ من الباب وأأأأ فى الاأأراب ثم أأأأ بأأأه أأأأأى
وأأأأ فى صأأ إلى الطأأأ الرأأأى .. لآأوقأ بأأأأه
أأأأ لأأأى أأأأ البأأأأ وأأأأ للأأأل :

— أأأأ الأأأأ .

وأأأأأ فى صأأ البأأأأ .. أأأأأ فى طأأأ
الأأأأ .. وكان فى شوق أن أأأأ إلى أين أأأأ ، ولكن
لم أأأأ أن أأأأ .. أأأى ما أنا فىه .. ألا أأأى — على أأأ
أأأه — أن أأأأ معاً ؟

وأأأأ أأأأأ أأأأ أأأأأ من صأأه ، وأأأأ صأأه
إلى أأأى وهو أأأأ فى طأأأ أأأأأأأأأأ كأأه أأأأأأأه :
— أأأأ الله .. كان كل شأء أأأأأأ بأأأأ فأأأ .

من كان يصدق أن القدر يكرمنا إلى هذا الحد؟ إن المعجزات
لا تأتي فرادى .

— ماذا تعنى ؟

— أليس لقاءنا معجزة ؟

— أجل !

— والبقية تترى .. أترقبين إلى أين نحن ذاهبان ؟

— لقد سألتك فلم تجب .

— لم أكن قد وثقت بعد .

— والآن ؟

— كل شيء على خير مايرام .. إن الظروف قد خضعت

لشيئنا ، وأن الرياح لآتية بأقصى ما تشتهي السفن ؟

— وماذا كانت تشتهي السفن ؟

— مرفأ تلجأ إليه ، وملاذأ نلوذ به .. يحميها من عصف

الرياح وتلاطم الأمواج .

— وركاب السفن ؟

— كوخ في أقصى الأرض .. بعيد .. بعيد .. نهرب إليه

وحدنا ونقبع فيه بعيدين عن جميع البشر .. لا يرانا أحد

ولا نرى أحداً .

— وهل وجدته ؟ هل أنت به الرياح ؟

— أجل .

— أين ؟

— في الإسكندرية .. على الشاطئ في ناحية منعزلة
تصية .. في آخر سيدى بشر .. يملكه صديق لى ، وقد طاف
بذهنى ، فرأيت فيه خير مهرب ، وأفضل ملاذ ، وتمنيت أن
أجد صاحبه في داره .. حتى يعطينى المفتاح ، ولم يكن يته
يبعد .. ذلك البيت الذى مررنا به منذ لحظات ، وكان يمكن
ألا أجدنه ، وكان يمكن أن يقول إن المفتاح ليس معه . ولكن
الظروف — كما قلت لك — قد لانت أخيراً ، وكأنها دبروت لنا
كل شيء ، بلا عفات ولا عراقيل .. لقد وجدته هناك ، وعندما
سأله المفتاح ، تملكته الدهشة ، وهمّ بالسؤال ، ولكنى أنبأته
أنى على عمل .. لم يتوان لحظة ولم يتردد فى إعطائه لى ، متنبئاً
حظاً سعيداً .. قائلاً إنه ترك كل شيء كما هو ، وأسى أن أنعب
فى شيء ..

• • •

وسارت بنا العربة فى طريق مسترد .. وبدأت المزارع من
خلال الزجاج سوداء قائمة قد لفها الليل بضياب ثقيل ، وعلا غيق
الصنفادع من الترع المجاورة للطريق .. مختطاً بصوت عجلات
العربة فى احتكاكها بالأسفلت .. صوت كالصفير أو الفحيح .

وسألني أحمد في حنان :

— ما رأيك .. أسعيدة أنت ؟

— كل السعادة .. إني راضية عن كل ما فعله .. معك

أينما نذهب ، حتى نستقر سويًا في باطن الأرض .

ورفع يمينه عن عجلة القيادة فجلس بها يدي وتحسبها في

رفق ثم رفعها إلى فمه ، وأحد يتحسبها اشفته كأنه عابد متبتل .

ورأى بيننا الصمت بعد ذلك ، وشرد كل منا بذهنه في

تخضم أفكاره .

يا للعجب ! .. من كان يصدق أن هذا اليوم الخافل

يمكن أن يحتم بمثل هذه النهاية ! أكان يخطر لي على بال في أية

لحظة من لحظاته القاسية الشقية . أني سأستقر في نهايته إلى

جوار أحمد ، هارين بأنفسنا من تعاستنا وشقائنا ، واضعين

ألفول البعد والحرامان !

وبدأت أحس بالتعب يحيط علي جسدي ، وشعرت وأنا

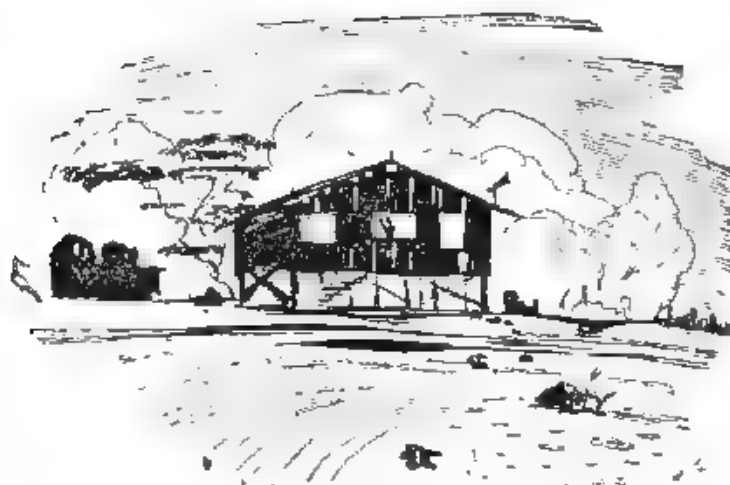
لستقر إلى جواره والعربة تعدو بنا في بهمة الليل .. أني منهكة

معهمة .. بعد ذلك اليوم الحافل بالتعب والحوادث ،

المغم بالجهد ، والمشقة ، والسير ، والسفر .. ووجدت حفي

متأقلاق ، والنوم يتسلل إلى عيني فأسندت رأسي إلى كتفه

ولم أعد أشعر بشيء .



ساعة فضل البصر



ولست أدري كم مرّة من الوقت ، ولا كيف مرّ .. كل
ما أدريه أنى استغرقت فى أحلام متقطعة مختلطة صاخبة ،
رأيت فيها أحمد مشبكاً مع زوجى ، وأبى بعد ورائى
محاولاً للحاق بى ، وفى يده سوط يوشك أن يهوى به على
ظهري .. ثم رأيتنى أبكى بين أحضان جدتى ، وهى تربت
على كتفى قائلة قولها المأثور ، لا تكثرى من الآمال ، فإن
وظيفة العبد هى أن يخيب آمالنا ، فلا تعطيه فرصة للشبهة
بك ، ثم رأيتنى بعد ذلك فى ثوب رفاف ، وقد جلست بحوار
أحمد ، وأملت الشيخ المعتم ويده قلبه ودوره وقد بدا عليه
الغضب ورفض أن يكتب العقد فيمسك أحمد بيده يمزقه
تمزيقاً ، ويهوى على الرجل بضربة من يده ترديه صريعاً ،
ثم أبصر الشرطة يكبلون أحمد بالأغلال ، ويسوقونه إلى
السجن ، وأنا أصبح خلفه باكية ، أحمد .. أحمد لا تذهب

وأحسست بالعربة قد وقفت ، ووصل إلى صوت أحمد

يصيح :

— عابده .. عابده .. لا تبكي إني بجوارك .

وفتحت عيني فإذا أحمد بجوارى ، وقد أمسك بوجهي
بين يديه ، وأخذ يمسح دموعي ويهتف بصوت ملؤه الحنان .
— لا تبكي يا حبيبتي ، إني لن أذهب أبداً .

وتشبثت بذراعيه في خوف ، وأنا لم أفق بعد من تأثير
الحلم ، وقلت هامسة :

— لا تتركني .

— لن أتركك .. سأدافع عن مصيرنا معاً حتى الموت ،
لن نفترق أبداً .. إما أن نبقى معاً ، أو نذهب معاً .

ونلتفت حولى فلم تستطع عيني أن تفترق حجب الظلام
المحيطة بنا ، ووصل إلى أذني دوى مستمر وهدير صاخب ،
فسألت :

— أين نحن ؟

— لقد وصلنا .. هذه هي الكابين ، قائمة على يميننا ..
والبحر يهدر على يسارنا .. لست أدري أين أضع العربة ..
الطوية شديدة والرياح يتطاير إلى الطريق .

— كم الساعة الآن ؟

ورفع يده بالساعة وأضاء نور التابوت وأجاب :

— الواحدة والنصف .. لقد وصلنا بسهولة والحمد لله ..

لم تمنعنا العربية . ولم تعترضنا عقبات .. ألم أهل لك إن الظروف تمهد لنا كل شيء .. سأدخلك الآن .. ثم أعود لأجد مكاناً للعربة .

— لا .. بل سائق معك .. ثم تدخل سوياً ، لا أحسر على البقاء وحيدة .

— كما شئت ، إنى أذكر أنه كانت وراء الكابن مظلة خشبية .. أشبه بشرقة في الحديقة .

وبدأ يدير العربة ببطء مسلطاً ضوءها على الكابن ، كأنه نور كشاف ، وبدأ لنا على الضوء سور خشبي به فتحة واسعة تكفي لدخول العربة .

واجه أحمد بالعربة نحو الفتحة .. تاركاً أرض الطريق ، خائضاً في الرمال ، ثم دلف إلى داخل السور ، ورفع ضوء العربة على قوائمه خشبية ، وقال أحمد وهو يحرك العربة ببطء وثقة :

— ها هي المظلة .

ودخلت العربة بين الأعمدة الخشبية ، وأوقف أحمد الماكينة ، وأطفأ السور ، وتركنا العربة ، وأخذنا تلس في الطلبة الدامسة .

وعلا صوت المدير من ناحية البحر .. كأن بجوفه
معركة طاحنة لا يهدأ لها أوار ، أو كأنه ففص يمجج بآلاف
الحيوانات المفترسة الجائعة .. وهبت الريح شديدة
عاصفة .. تحمل إلى وجوهها رذاذ الماء .. وضمت المطف
حول عنى .. وأمسك ، أحمد ، يدي يقودني وسط الظلمة ..
حتى وصلنا إلى باب ، الكاين ، .. وطرق سمى صوته مرتفعاً
صائلاً بين هدير البحر وصخبه :

— احترسي ، أمامك يضع درجات ، امسكي ذراعي جيداً .
ولم أكن في حاجة إلى نصيحته فقد كنت أمسك بذراع
كأنى غريق بثبث بطوق النجاة .

وأخذ يتحسس يده ثقب المفتاح . ، وقال مازحاً :

— تصوّري لو أن صاحبنا أخطأ في المفتاح ؟

— لا شيء .. نيت في العربة .

وسمعت صوت المفتاح يصر في الثقب ، وصوت أحد

يتهد في ارتياح :

— الحمد لله .

ودفع الباب . ، فأرسلت مفاصله صريراً خافتاً ، وعاد

أحمد يقول :

— بقيت مشكلة النور كان يجب أن أحضر ثقاباً أو

بطارية . فحقه يُحذى مزايا الذين يدخنون . ما بالك ترهبين؟
وكنت حقاً أرتجف . . وكانت أسناني تصطاك فتُرسل
صوتاً مسموعاً . . لعله الرد . . أم لعلها رهبة لموقف . . أو
فرط الجهد .

لم يكن عجباً أن أرتجف . . بن العجب أنى بقيت واقفة على
قدمي حتى الآن . . أما المخلوقة الوادعة الساكنة . . التي كانت
أقصى مغامرة أخوض غمارها هي أن أجلس وحيدة في الشرفة .
كيف احتملت كل هذا ، وكيف جرّوت على الأقدام عليه ؟
وعاد صوت أحد يقول :

— هذا مفتاح الكهرباء . . ما بي من حاجة إلى ثقاب
ولا ولاعة .

وغمر النور حياة أركان المكان ، وأغلقت عيني لحظة ،
فقد بهرما الضوء بعد أن تعودت طول الظلمة . . ثم فتحتها
لأنصر صلاله صغيرة . . قد توسطتها منصدة خشبية عارية
وبضعة مقاعد من الفس ، وهويت على أقرب مقعد . . وأغلق
أحمد الباب . ثم اقترب مني ، وأخذ رأسي بين يديه ثم وضع
شفتيه على شفتي وهمس :

— أنت متعبة ؟

— جداً .

— لشد ما عابت طيلة يومك . . ها حبيبتي انغالية . . لن
أدعك تتعبين بعد اليوم .
— لن أنعب ما دمت معك .

وكان الحديث ينساب من الشفاه وهى مطبقة بعضها فوق
بعض ، وأسبلت عيني وأحسست بمغمول لذيد .
ولم أفتح عيني حتى بعد أن رفع شفتيه ، بل تركت رأسي
مسندة على ظهر المقعد ورحلت بين اليقظة والسبات .
وسمعت صوته يقول :

— لا تتحركي حتى أعد لك فراشاً .

ولم أنتحرك لأنني لم أكن أستطيع حراكاً . . كنت متعبة
جداً ، وكنت أحس باسترخاء شديد . . كأتى في شبه إغماء .
ولم أعد أشعر بما حدث إلا كأنه حلم ، فرأيت فيما يروى النائم
أن أحمد أقبل علىّ لخصني برفق بين يديه ، وسارني إلى إحدى
الحجرات وأرقدني على فراش . . ثم نزع حذائي من قدمي ،
وأخضع عني معطى ، وأخذ غطاء فدفنني به جيداً ، ثم ركب
بحوارى ، وأخذ يغمر وجهي بالقبل ، وأحسست بدفعتين
ساخنتين تسيلان على وجهي ، وهو يلمص شفتيه شفتي . .
واطلقت من صدرى زهرة حلز حملت معها كل هموم الحياة
وشعرت براحة عجيبة ، آلت إلى نوم عميق ، لا تقطعه الأحلام .

واسنيقت في الصباح وقد سبت لأول وهلة ما حدث
بالأمس ، وأخذت أقلب الصرني حولي في دهش شديد ، ثم
بدأت أدرك ما حدث ، وتواترت عليّ صور الليلة الماضية في
سرعة البرق ، وتملكتني خشية ورهبة ، وحاولت أن أفكر
فيما يمكن أن ينتهي إليه أمرنا ، ولكنني لم أترك لفكري العنان
بل نفضت عن نفسي الخشية والرهبة ، وقلت لنفسي إن أسوأ
ما يمكن أن ينتظر أي إنسان هو الموت . . وأنه كان يجب عليّ
أن أثوي في قاع النيل لو أن لديّ الشجاعة الكافية للانتحار
في الليلة الماضية ، فما يضيرني أن أضيف إلى حياتي بضعة أيام
هنيئة تساوي العمر كله . . ثم أحتم بعدها الحياة .

يجب أن أنسى كل شيء . . إلا أنني بحوار احمد . . وأما
نظن في الكاين ، سوياً بعيدين عن جمع البشر . . كان
الديا قد خلقت إلّا منا كلينا . . أو كآتنا آدم وحواء .

إن من الجنون أن أتلف سعادتي بالتفكير في ما يمكن أن
يحدث . . وأن أترك خلعة الهناء . . التي انتزعها من أياب
القدر . . لأشغل نفسي بمتاعب المستقبل .

ووثبت من الفراش . . أوفر ما أكون قوة ، وأقوى
ما أكون أملاً ، مصممة على أن أستغل هبة القدر أقصى استعمال
وأن أنسى ما معنى . . وأغض عيني عما هو آت .

وظلمت أفسح في الحجرة ومحتوياتها ، وكان بها نافذتان
وجاهيتان إحداهما مواجهة ونفذ منها أشعة شمس الصباغ
الدافئة ، والأخرى بجانبية تطل على الطريق وبدا من خلالها
البحر ، وقد هدا موجه ، وسكن نوره ، كأنه قد كل من طول
الصبيح والصخب ، أو كأن وحوشه المفترسة الهادرة العاوية
قد أعيها الصراخ فراحت في سبات عميق .

وكان أناث الحجرة غاية في البساطة . . الفراش الذي
كنت أرتد عليه وقد وضعت على حشية ، فرشت عليها ملاة
بيضاء ، وكوم الأغطية التي دثرت بها أحمد ، ودولاب خشبي
ودسريجة ، صغيرة وأظنة ذات مرآة أشبه بمرآة لونا بلوك .
وقد وضع عليها مشط وفرشاة للشعر « وعلة بريل كريم » .
وفتحت الدولاب فرجعت في جانب منه بضعة أرفف وضعت
فيها الملابس ، والمناشف ، وأكياس الوسادات . . والجانب
الأخر بضعة مشابج علق على إحداها معطفي .

وخرجت إلى الصالة بملابسي التي كنت أرتديها الآمس
والتي رقدت بها في الفراش إذ كنت لا أملك غيرها ،
وأخنت أبحث عن أحمد . . فإذا به يرقد في حجرة مجاورة
يفصلها عن حجرتي باب مغلق .

ووقفت بباب الحجرة أرقبه وقد أخذ يمس في هدوء

وغطى جسده سجادة عتيقة مألوفة . . فأدركت أنه دثرني بكل ما عثر عليه من أغطية ، ولم يجد ما يقيه للبرد سوى هذه السجادة ، و عدت إلى حجرتي لحملت ما على الفراش من أغطية . ثم اقتربت من فراشه على أطراف أصابعي ، و رفعت السجادة برفق ، ثم بدأت تضع الأغطية فوق جسده ، وعندما انتهت من تغطيته وجهه يفتح عينيه ويقول ضاحكا :

— لا داعي لكل هذا التعب . . ارفعها ثانية . . لأنني عزمت على النهوض !

— كان يجب أن تناصفها . . بدلا من أن تثقل على جسدي بهذه السجادة المترتبة .

— لقد تعرودت التقشف والاختيشان .

وقفز من فراشه وكان يرندى القميص والبنطلون وسألني في مزح واعتباط :

— كيف أنت الآن ؟

— على خير حال .

— لقد كنت متعبة بالأمس !

— الحمد لله أن وصلت إلى هنا على قيد الحياة بعد كل ما لقيت من جهد وعناء .

— سأعوضك عن هذا التعب . . يجب أن تستريحى ،

وتدعيني لأعمل كل شيء .

— بالعكس . . يجب أن تترك لي حرية التصرف في
شؤون الدار . . وألا تتدخل فيها لايغنيك .

— ألا تريد أن تستريحى ؟

— أمامى عمل كثير في الدار ، يجب أن ترتدى ملابسك
وتذهب لايبيع ما سأطلبه منك .

— بدأنا الأوامر من الآن !

— إن أوامرى يجب أن تنفذ بحذافيرها .

— هات الثمن مقدماً .

ومد إلى ذراعيه جثة وضحي إليه بعنف وهمس في فمى ؟

— أنت لى ؟

— وأنت لى .

— لى وحدى بلا شريك ولا منارع ؟

— لك وحدك . . الآن ، وفيما معنى ، وفيما بعد . .

ما استطاع مخلوق أن يتزعم مثلك .

— أحب رائحة أفساك ، ورائحة شعرك . . كنت دائماً

أعنى أن أقبلك وأنت ماهرة من الفراش . . مازال الوم يتقل

أجفانك . أنت جميلة دائماً على أى حال وفي كل وقت ، مارأيت

إنساناً يستيقظ من سباته ، بمش هذه الروعة ، ويمثل هذا الخيال .

وأقلت من بين ذراعيه ، وقد ملأني من حديثه نشوة .
ونظرت إلى ساعة يده ، وقد وضعها على المضدة فإذا بها
الثامنة والنصف .

• • •

وفي التاسعة كان يهبط من البيت ، وقد حمل معه ورقة بكل
ما طببت منه ، ولم يكد يصل إلى العربة حتى ذهبت إلى اللامعة
وصحكت به :

— نسينا شيئاً هاماً .

وصاح بي من أسفل :

— ماهو ؟

— قدح عدس بحبة .

— أما زلت تذكرين ؟

— وخر وشطه لبنة لدقة !

— لا لزوم لها الآن .

— بل لا بد أن تحضرها . . سأريك أني طباحة ماهرة

مدققة . .

— سأحاول .

وانطلقت العربة في طريق الكورنش تجاه الاسكندرية
وأخذت أجول في الدار الخشبية ألخص حجراتها ومخزباتها .

ولم يكن بها عدا الغرفتين اللتين معنا فهما سوى غرفة
أخرى للجلوس وشرفة زجاجية مسعة تطل على البحر ، وكانت
دوره المياه صغيرة ونظيفة ، والمطبخ يكاد يكون مستوفاً
جميع لوازمه من أطباق وكسرولات وأدوات للطعام .

لقد كان الكوخ في نظري نموذجياً ، لا يحتاج إلا لعملية
نظافة .. ولم يكن هناك أقدر مني عليها ، وانطلقت بحاسة
مشيرة عن ساعدي ، ورفعت ذيل فستاني ، ولغنته حول
وسطى ، كأنى حائمة ماهرة ، وبدأت عملية الكس وتنظيف
الآثاث وإزالة الأتربة عن الواجهات ومسح الزجاج ثم ملأت
« دلواً » عثرت عليه في الحمام ، وأخذت في مسح الأرض ،
ووضعت على المسند غطاء نظيفاً ، وغبرت أكياس الوسائد
وأعطية المراتب وجمعت كل ما يحتاج إلى العسل .

وسمعت صوت العربه تقف أمام الدار ، وأحمد يقرع
الباب ، وفتحت له ، ووقف ينظر إلى وهو يحمل بين يديه
كباً مليء بالحضر والفاكهة ، والحاجيات التي طلبتها منه ،
جودته يضحك بملء شديقه ويقول :

« ما شاء الله .. هذا والله منتهى الأمانة » والشياكة
لا ينقصك سوى « منديل رأس بأوية » .. و « روح من
الخلاخيل » .. من عليك أن تربط ثيابك هكذا حول

وسطك أيتها الأرستقراطية ؟

— علفتيها .. من عبك أكل والكشرى أوجبة
ومية الدقة .. يا حضرة الأرستقراطي .. ادخل ،

ودخض أحمد ووضع مامعه على المضددة وقال وهو يرفرف :
— عليك من ده يا به يا بنت الناس .. ما كان أغنانا
عن كل هذا التعب .. كنا نستطيع أن نناول غداءنا في أحد
المطاعم ثم نتم بفراغنا وحرينا .. لم كل هذا الجهد ؟

— ليس هذا بجهد .. إلى سعادة كل السعادة .. سأكون
معك هكذا دائماً ، ست بيت .. هذا ما أحب أن أكونه .
لقد شيعت فراغاً ، ورهة ، وحرية ، وانطلاقاً .. أريد
أن أكون زوجة .. زوجة وغادمة .. لقد ملك السيادة
الكاذبة والأرستقراطية لرائفة .. كرهت الملامى والفراغ ،
والدعة والخول .. ألا تحبني هكذا ؟

— أحبك هكذا .. وغير هكذا .. لو سرحت ، بمشة
فول نابت ، لعدوت وراءك في الطرقات .. ولو جمعت
أعقاب السجائر ، لعادتك على جمعها .. إلى أحبك كبنفا
تكوين .. أيتها الخنوقة المثلى .
— هيا .. وكفى غزلاً .

— ماذا تريد مني أن أكون ، سرطوناً ، أم عساة ؟

- لا أريد منك شيئاً ، دع كل شيء لي . اذهب وتزده
 على الشاطئ ، أو احلّس واقرض الشعر ، وسأفعل كل شيء .
 - لا تكوني عنيدة . . لا بد من معاونتك . . أفشرك
 البطاطس . . أو أصني لك الطماطم ؟
 - لا أريد معاونتك أحد . . أرح نفسك .
 - حسناً . . سأفعل شيئاً طالما تقف إليه .
 - ما هو ؟
 - أستحم في البحر .
 - الآن ؟
 - أجل ! .
 - لا تكن مجنوناً .
 - ولم ؟
 - أنتحم في هذا البرد ؟
 - ليس برداً . . إن الشمس تدفئ الكون .
 - الشمس لا تدفئ شيئاً . . نحن في عز الشتاء .
 - لقد تعودت أن أسبح في حمام السباحة ، في مثل
 هذا الوقت . . في أول الأمر أحس برجفة . . ثم أتعود
 برودة الماء بمجرد أن أضمن في السباحة .
 نبدأ في خلع ملابسنا بسرعة ، ولف نصفه الأسفل بمنشفة .

وانطلق يعدو إلى البحر في مرح الأطنال وهو يصبح بي :

— خذى بالك من « الكشرى » . إياك أن يشيط .

وتملكنتى عليه في بادية الأمر خشية ابرد . ولكنى

عندما وقفت في الشرفة وأحسست دفء الجو وحرارة

الشمس اطمأن قلبي وعدت إلى الداخل لأبشر أعمالي .

ولم أكن جاهلة بشئون الطهى ، صدكنت كثيراً ما أنح بنفسى

في المطبخ . . وأنهك في الطهى مع « أم حسن » الطباخة . .

بل كنت في بعض الأحيان أتولى طهى بعض الأصناف وحدى .

وبدأت في تقشير الخضر وإيقاد الكوانين . . ولم تمض

برعة حتى كانت النيران تثر تحت الأواني .

وكانت عملية غسل الملابس والملاءات ما زالت تنتظر

دورها ، وكنت أحس بفبار السفر وقنطرة الكنس والمسح

تخط على جدى . . وكان لا بد لي أيضاً من الاستحمام .

وجمعت ملابس أحمد التي خلعها ، وخلعت ملابسى ،

وارتديت المعطف « على اللحم » . . وبدأت أقوم بغسل

الملابس في الحوض وأما أقرب الطعام بين آونة وأخرى .

وانتهيت من الغسيل ، وبدأت « عملية النشر » على حاجز

الشرفة كما أرا بالمعطف المجرد ، وأما أحسن نشاط عجيب .

ولم أكدا أنتهى من النشر ، حتى أبهرت أحمد يعنومتوا بـ

ويقفز الدرج ، ثم يقف أمامي ناظراً إلى في دهش وتساؤل :

— والعسيل أيضاً ؟ أقسم أن أحد أجدادك كان غامداً .

— جدى . . أبو أمي ؟

وكان جدما من ناحية الأم مشتركاً . . فضحك وأجاب :

— لا . . جحك أبو أبوك بالطبع .

— ادخل لئلا يلفحك الرد . . كفى جنوناً . . مارأيت

إنساناً عاقلاً يستعم في البحر في هذا الوقت من الشتاء . .

إن في شفتيك زرقة . . ادخل ولا تقف هكذا عارياً .

ونظر إلى الملابس المبتلة المرسومة على سور الشرفة ،

وهز رأسه في أسف وقال :

— وماذا أرتدى وقد غسلك الملابس الوحيدة التي

أستطيع أن أستر بها جسدي ؟ .

— لعل جسدك في إحدى البطاطين حتى تجف الملابس .

— حاضر .

ودخل إلى الدار . . وبعد لحظة خرج إلى وقد لف

جسده ببطانية وبدأ كأحد نمائل الإغريق وقال :

— هكذا يعجبك ؟

— جداً . . بك شبه كبير من . . .

— من ماذا ؟ من طرزان ؟

— لا .. من ، أم على ، بائعة القول النابت .

— أشكرك .

— العفو .. عليك الآن أن ترقب الطعام حتى أستم أنا

الأخرى .

— أراقبه ؟ كيف ؟

— يعني تقف أمامه .

— حتى لا تفر الحل ؟

— لا .. حتى لا يحترق .. اكشف على الحل من أن

لآخر ، فإذا رأيته يوشك أن يحف فضع قدراً آخر من الماء .

— بسيطة .. أهذه كل المأمورية ؟

— أجل .

ودخلت الحمام ، وكنت قد وضعت ماء في د صفيحة .

خزن .. ولم أكد أزع المعطف عن جسدي وأمسك بقطعة

بايون ، حتى سمعت طرقاتاً على الباب وأجبت :

— ها .

— الكشري فار .

— ارفع غطاء الحلة قليلاً

وبعد لحظة . . عاد يدق الباب مرة أخرى :

— رفعته .. ومستمر في الفوران ؟

— دعه يفور كما يشاء .. لا تضايق نفسك كثيراً به .
 — إن منظره لا يعجبني .. لا يبدو كالكشري الذي
 كنت آكله فيما مضى في ميدان البيدة زينب !
 — سيمجيك عندما ينضج .
 وبدأت أحب الماء على رأسى وحسدى عندما سمعت سمته
 يصبح من وراء الباب : « عابده » ؟
 — نعم !
 — البطاطس يكاد يجف . أى قدر من الماء أضع في الحلة ؟
 — كوب بكفى .
 ومضت فترة قصيرة ثم سمعته يصيح :
 — لم أكن أظن أن الطهى يمثل هذه السهولة
 ثم علا صوته بعد ذلك يبدن بأغنية الجندول ، ولكن
 لم يكتم يبدأ في الأغنية حتى كف عنها وصاح بأعلى صوته :
 — عابده .. الحقى .. الكشري اتحرق .. إني أشم رائحته
 « شياط » .
 — الله يلعن أبو الكشري .. والذي احترق الكشري
 حاضراً .. خارجه حالا .
 وأسرعت بإزالة الصابون عن حسدى . ثم جففت الماء
 بالشفة .. وارتديت المعطف ، وخرجت إليه فوجدته واقفاً

أمام « حبة الكشوى » يتدوق منها بلعقة ويهتف :

— هائل .. لم أذق ألذ منه من قبل ..

— لم قلت إذا أنه احترق ؟

— نخيل إلى ..

وتأولت منه المتعة وأخذت أخضر بقية « الحلل » ..
وأحسست به يفحصني بطرف عينيه .. وكما تقصمتلا صقين
فوجدته يمد شفتيه ويتحسس بهما ذقني وجانب شفتي وطرف
أنفي .. وأحسست بقشعريرة في جسدي ، وسمعتة يقول في
صوت رقيق :

— أنت بردانة ؟ اسطري حتى أحضرك البطانية الأخرى .
واختفى في إحدى الحجرات ثم عاد حاملا البطانية ونفها
حول جسدي .. ثم حملني بين يديه وسار بي إلى الفراش
بوضعي عليه برفق وقال :

— عليك الآن أن تستريحى .. سأخذ دورى في العمل .
وسأولى تجهيز المائدة والقيام بدور السفرحى .

— اطفىء الكواكين فقد فضج الطعام :

— حاضر ، لا تتحركى من الفراش ، سأقوم بكل ما تريد .
وأحسست براحة عجيبة ، وأنا راقدة في الفراش . وبدأ لي
أننى طرحت خلى كل ما حملت من أعباء الحياة .

وسمعت وقع أقدامه تغدو وتروح .. وصوت أطباق
توضع على المائدة . وبعد برهة ، وجدته يقف أمامي ويقول
وقد انحنى في احترام بالغ :

— تفضلي يا هانم .. المائدة جاهزة .

وسمعت بالنهوض ، ولكنه وضع يده على كتفي قائلاً
بنفس اللهجة الخاشعة :

— لا تتحركي ، إياك أن تتعب نفسك ، سأحملك إلى المائدة .
— أحمد .. كني سخافة .. دعني أسير .

— أبداً .. لا بد من حملك .. إن أمتع شيء لدى في الحياة
هو حملك ، فلم لا تدعيني أحملك .. فتريحيني وتريحني نفسك ؟
وضحكت واستلقيت على الفراش وقلت :

— تفضل .

ورفعني بين يديه وضممني إلى صدره . وسار وهو يضع
شفتيه على شفتي ، وأنفه على أنفي وهمس قائلاً :

— واحد شابل روحه .. والثاني تعباني ليه ؟

ورفت في أمام المائدة ونظر إليها معجباً وقال :

— ما رأيك ؟

وكان ما يزال يحملني بين يديه فأجبت :

— أرجو أولاً أن تصع روحك ، على أحد المقاعد .

— حاضر

وجلس أمام المائدة .. وقد رصّ عليها للصحاف ،
ونظرت إليه معجبة وقلت :

— لابد أن أحد أجدادك كان سفيرياً !

— هذه المرة .. جدى لأمى .

وبدأنا فى تناول الطعام .. ولا أظنه كان جيد الطهى ،
ومع ذلك فما أذكر قط أن أكلت شبيهة ، كما أكلت حينذاك ،
ولم نكف عن تبادل النكات والأحاديث المرحطة طيبة الطعام .
ولست أدري ما الذى دفع فى رأسى فجأة ذلك الحاضر
القلق .. فجعلنى أفكر فى كيف يعطل ، أحمد ، هذه الغيبة عن
عمله ، وماذا ترى سيفعلون به ؟

عن نفسى أنا لا يهمنى قط ما يمكن أن يقول إليه مصرى
فكنى أنى استمتعت فى حياتى بهذه الفترة التى أحيأ فيها الآن .
كأنى أن لقيت فى حياتى « ساعة تفضل العمر » .

ولكن هو .. كيف تركته يندفع معى فى هذه المغامرة ،
دون أن أفكر فيما يمكن أن يصيبه من جرائها ؟

ولا شك أنى كنت أبداً ساهرة شاردة ، فقد وجدت

أحمد يهتف بى :

— عايدته .. ما بالك ؟

وهزرت رأسي وأحبه محاولة الضحك :

— لا شيء .

— بل هاك ما يققك . . ماذا تخشين ؟

— أخشى عليك .

— مم ؟

— ماذا سيقولون عن غيابك عن عملك ؟

— لقد كلمت صاحبي أن يقدم عني طلباً بثلاثة أيام إجازة

عجلة ، ولا شك أن المائد سيوافق عليها . فهو إنسان لطيف .

— ويعد الثلاثة أيام ؟

— يفعل الله ما يريد . لانشغلي نفسك بالتفكير في أي شيء .

وفي نفس الوقت الذي ساق إلى أصبحت تلك . . بد

هو الآخر ، وقد سر دهنه ، فقلت ضاحكة :

— لقد جاء دورك في التفكير !

— أما ؟ ليس في رأسي شيء .

— بل به ما يضايقتك ؟

— أقول لك الحق . . كنت أفكر في مصيرك أنت .

— مصيري أنا ؟

— أجل . . إني أنا الذي يجب أن أخشى عليك .

— لمه ؟

— كان يجب عليّ ألا أعريك بالاندفاع معي .. لقد
اندفعنا كالجمارين .. كان يجب علينا التريث .. لقد كنا مثلاً
للعشاق القداميين .

— أنطرق النعم إلى نفسك ؟

— أنا لا يعني شيء قط .. ولكن أت ؟ .. إنك
ما زلت زوجة ؟

— زوجة ؟ .. لا تقنها مرة أخرى .. أي زوجة أنا ؟
زوجة ضائعة الحقوق .. مهددة الكرامة .. مسلوية زوج
لا يستحق السلب .. لا .. لا .. إلى لا أعتبر نفسي زوجة
وأستطيع أن أؤكد لك أن مصيري يمكن أن ينتهي إلى أي
شيء إلا العودة إلى هذا الحيوان .

ومضت يرهة استغرق كلانا في التفكير .. وبدأت
أنصوّر حياتي البغيضة وزوجي الكريه .. ولكن سرعان
ما انفضتها عن ذهني كما تنفص الأتربة عن الثوب وقلت لأحمد:
— أرحوك .. دعنا من كل هذا .. يجب ألا نغضب
هنا ما تذكر الماضي ، أو التفكير في المستقبل .. يجب أن
نعيش فقط في حاضرنا السعيد .

وصط على يدي وأجاب:

— أجل .. يجب أن ننسى كل شيء ما دمنا وحدنا .

وترك المائدة . . ورفعت عنها الصحف وغايا الطعام
وخرج هو إلى الشرفة . . ثم عاد يقول
— لقد جف القسيل . . مارأيت في الذهاب سوياً إلى
الإسكندرية لجول جولة في شوارعها ومنتاع بعض اللوارم ؟
— كنت أوشك أن أطلب منك هذا . . هيا بنا .
وبعد لحظات كنا قد ارتدينا ملابسنا . . وأغلقت الباب
ثم هبط إلى العربية وسارت بنا تنطلق في طريق الكورنيش .
كانت تلك هي المرة الأولى التي أحضر فيها إلى الإسكندرية
في الشتاء . . إني ما ظننت أنها لطيفة بهذا القدر . . أم ترى
الرضا كأنما في نفسي . . وعين الرضا عن كل عيب كيلة ؟
ليكن ما يكون . . إن حقائق الأشياء لا قيمة لها . . إلا
بالقدر الذي تراها به . . لقد كنت أحس والعربة مندفة على
الكورنيش . . والطريق خال والرمال منبسطة . . والبحر ممتد إلى
مالا نهاية . . أتى أسير في طريق خاص . . وأن كل ذلك
البحر والمضاء . . ملكنا وحدنا . . لا شريك لنا فيه .
وصلنا إلى ميدان الرمل وأوقف أحمد العربية . . ثم سرنا
نحمرل على أقدامنا .

وكنيت أحمرل في حافظتي ورقة بعشرة جنيهات أعطاهالي
«توتو» عند تركه إياي في العربة ، وكنيت أحمرل بقيمتها الآن ،

فهي لا شك ستفعلنا نفعاً كبيراً . . . وقلت لأحمد أبنته عنها :

— معي عشرة جنيهات .

ثم مددت يدي في الحافظة وأخرجتها له ، ولكنه أجاب مؤبياً :

— أنا أيضاً معي نقود .

— ضعها مع نقودك . . حتى تصرف منها .

— بل ابقها معك . . إن مني ما يكفي .

وقلت له غاضبة :

— أحمد . . لا تكن سخيفاً . . ليس هذا وقت كبرياء

وكرامة . . نحن في حاجة إلى نقود . . وقد نكون نقودك

كافية ولكن إذا أضفت إليها نقودي فستكون أكثر . .

أرجوك كفف عن هذا العناد . . ودعنا نستمتع بوضعنا .

ونظر إلي أحمد ثم ضحك . . ومددت يدي بالورقة

فوضعها في جيبه .

واتهينا من جولتنا وابتعنا ما نحتاج إليه من ملابس

وأطعمة وأشياء مختلفة ، ثم عدنا إلى العربة ، وكانت الساعة

قد بلغت الخامسة وال نصف . . وسألي أحمد :

— مارأيتك في الذهاب إلى السينما ؟

— كما تشاء .

وذهبنا إلى إحدى الدور ، ولم نكد نستقر على مقاعدنا
حتى أحسست بيده تضغط على يدي وسمعته يهمس .
— أتذكرين أول ذهاب لنا إلى السينما سوياً ؟
— عندما تركتسا جدتي وذهبت إلى نفيسه هانم ؟
— وعند ما لم نطق البقاء في السينما
— وذهبنا للسير وراء السراى !
وساد الصمت لحظة . ثم سمعته يهمس ثانية :
— إني لا أطيع الجلوس الآن .
— ولا أنا .
— هيا بنا .
— هيا . . .

ومكثنا انصرفنا من السينما بعد خمس دقائق من دخورنا .
إن الوقت أئمن من أن نضيقه في الإيمعان في الشاشة . .
فقد كان كل منا يرى في وجه صاحبه أحمل ما يمكن أن
يرى . . . ويسمع من شففيه خير ما يمكن أن يسمع .
وعدنا إلى الدار ووضع العربة مكانها وصعدنا الدرج
نحمل مشترباتنا . . ملء نفسيما الثقة والاطمئنان .
لم يكن في من رهبة الليلة الماضية وإن كها شئ . . وما كان
في أقل شعور بالاعتراب أو الوحشة ، بل كنت أحس أني مقبلة

على موطئ الطيحي، ودارى التي ألفت سكناها منذ عشرات السنين.
ودلفنا إلى الداخل . . فلم تغذ إلى أننى رائحة تراب، ولا
صدم عيني منظر خراب، وأحسست بالسكينة وأنا أجد العرافة
بطيفه مرتبة . . تتوسطها المائدة مغطاة بمفرش أبيض نظيف
وصع عليه الكوب الذى وضعت فيه بعض أغصان خضراء
وزهور برية قطفتها من الأعشاب التى تحيط بالمنزل .

ووضعت لوازم الطعام فى المطبخ . . ورتبت الملابس
فى الدولاب . . ثم بدأت أعد العشاء . . .

وأحسست بشفتيه تسانى عتق وأنا أقف أمام مائدة
المطبخ وسمعت يهس :

— دعيني أتم عمالك . . واذهبي لتخبرى ملاسك . .
إن هذا دورى فى العمل .

— سأغيرها بعد العشاء .

— بل تغيرين الآن إلى أن توق إلى رقبك باليجامة الزرقاء .

— قلت لك بعد العشاء .

— لا أستطيع الانتظار .

— لحظة واحدة حتى أزل « البيض » عن الوابور .

وأخفأت الوابور . . ثم تركته يعد المائدة . . وذهبت
إلى حجري وأخذت أغبر ملابسى، وقد تملكتنى قشعريرة

عجينة واضطراب لذيذ كآني مقبلة على عرس .
ووقفت أمام المرأة أرقب نفسي وقد ارتدبت البيجامة .
حمداً لله . . إني مازلت جميلة . . بل ما أظنني كنت أجمل
مما أنا الآن ، لا تظنوا بقولي غروراً !! .
أو ظنوا كما شتم !! مغرورة أو غير مغرورة . . لقد
كنت أرى نفسي جميلة . . وكان هو يراني أجمل . . ماذا بهم
بعد ذلك إذا كنت فعلاً غير جميلة ؟
ومع كل ذلك — ورغم أني قد أكون لا أخلو من
الغرور — فإني أؤكد لكم أني جميلة .
وكيف لا أكون . . وأما أبصر صدرى في المرأة ، وقد
رفع صدر البيجامة . . وتجسد من — وراثها . . وحصرى
وقد ضمه الحزام ، واستوى من نحته رد في ؟
ووجهي !! إنه ما زال كما هو دائماً . . نظراً . . مثورداً ،
وشفتاي وعيناي وشعري المنساب . . تماماً كما كنت أقف
في المرأة في حجرتي في بيت الخدائق .
وخرجت إلى الصلاة ، فوجدت أحمد قد أتم إعداد المائدة
وجلس ينتظر ، وعندما أقبلت عليه رفع بصره إلىي وأخذ
يحديق في كأنه لم يرفني من قبل ، ثم هتف :
— مذهلة . . .

ثم مزّ رأسه أسفاً وأردف :
 - كان يجب ألا تغيري ملابسك إلا بعد العشاء .
 - وله ؟
 - حتى أستطيع التمتع بالطعام .
 - وماذا بمنعت الآن ؟
 - أنت . . . لبس من بين الطعام ما يستطيع أن يحولني
 عن النظر إليك .
 - ولا الكشرى ؟
 - ولا الكشرى .
 - هذا تصرّح حظير . . أستطيع أن أعتبره انتصاراً
 كبيراً لي . . وهزيمة منكرة ، للكشرى . .
 وسمعت بأن أجلس أمامه ولكنه صاح :
 - بل بجوارى . . ملاصقة لي .
 - دعنا نأكل . . أرجوك . . دع الغزل إلى ما بعد
 الطعام . . ما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه .
 - ولكنه جعل له قُباً وبطناً . . فلك القلب والمائدة
 البطن . . اتقني أرجوك . . لاتضعي عمرنا سدى .
 وحملت الكرسي فجلست بجواره ، وبدأما تناول الطعام
 وهو يأكل يده وبمحيط خصرى باليد الأخرى ، وقلت له :

— أحمد .. كل يديك كلتيهما .

— أحتي أن أغض عيني وأفتحهما فلا أحبك .. أخشى
أن تفرى من يسي .. هل تصدق أني كثير آ ما يشر في الدهن
فيخبل إلى أن كل ما أنا فيه ليس إلا حلاً .. وري ساستيقظ
بعد لحظات لأجد الحلم قد تبدد وأجدك أثراً بعد عين .

— هبه قد تبدد .. ألا يكفيننا ما تمتع به الآن ؟
ألا نعوطننا هذه الساعات .. عن شقاء العمر كله ؟
— أجل ، ولكني وددت لو يدوم الحلم ، وألا سنيقظ
منه أبداً .

وانتهينا من الطعام ، وعادرا المائدة ، ودلفنا إلى الشرفة
الزاجية المطلقة على البحر وجلسنا متلاصقين على أريكة من
القش وقد أسندت رأسي على صدره .

ورنا كل منا في صمت إلى ما وراء زجاج الشرفة ، وكان
هدير البحر يصل إلى آذاننا حائثاً كأنه مبعث من مكان ما .
وغور سحبي .. والزجاج قد تندى بقطرات الماء .. وست
السحب من ورائه متقطعة تخفق بين طياتها القمر حيناً وتظهره
حيناً .. وبدا القمر كأنه يعمد وراء السحب .. وهي ثابتة
لا تتحرك ، وهو يطل من خلفها بين آونة وأخرى ، وكأنه
يلعب ، استمالة ، أو كأنه يحذر ما مداعباً ويتسمت

المشرقة ليقول : حذار .. إني أراكا ..

وأحسست من فرط المتعة والراحة والشعور بالاستقرار
أنى لا أطعم فى شىء ، لا ألبق ، فى مجلسى إلى لآل .. وأنى
لم أعد فى حاجة إلى أكثر من ذلك .

ولم تتكلم .. فقد كسا ثملين فى جلستنا .. ثملين من غير خمر ،
فقدنا القدرة عن أن نأتى بأى شىء حتى الكلام ، ومد أصابعه
يتنخل بها شعرى .. كما تعود أن يفعل دائماً .. ثم أخذ
يتحسس بها وجهى ، ويلس أهداب عيني ثم أنبى وشفتي .

واستقرت أصابعه على شفتي .. فاخذت أقبليها قبلات
خفيفة أشبه بحصر الطائر الفزع .. وأضغط عليها بأسادي
ضغوطات مترفة حنوناً .. شاعرة من ذلك بنعمة عجيبة .

وتمدد على الأريكة واضعاً رأسه على ساقى ، مستنداً قدميه
على حافة الأريكة ، وأخذ كل ما يرونه إلى رجليه الآخر وأصابعه
مارالت على شفتي أقبليها حيناً وأضغط عليها ، ساقى حيناً آخر .
وسمعتهمهمس :

— أأثقل برأسي على ساقيك ؟

ولم أجب بكلمة .. بل انحنيت برأسي على رأسه ..
ووصعت شفتي على شفتيه .. ومضت فترة صمت كنت أسمع
خلالها دقات قلبينا وحفيف أنفاسنا .

ورفعت رأسي أخيراً ونهضت عن ساقى بجلوس بحوارى
ثم حملت بين يديه وأجلسنى على ساقيه كأنى طفلة غريبة . .
وأحاط جسدى بذراعيه . . ثم أطبق شفاه على شفتى . .
وضغط علينا ضغطاً شديداً حتى تلاصقت أسناننا .

وأغمضت عيني مستسلمة . . وأحسست باسترخاء شديد
ورغبة فى النوم . . و همست به قائلة : أريد أن ألام .
ودون أن ينبس بيئت شفة حملنى بين يديه وسار به إلى
حجرتى ، ووضعنى برفق على الفراش .

ثم حمل الأغطية ، فأخذ يدرئ بها كما فعل بالأمس ، فلما انتهى ،
ونف يخطر إلى فى صمت وتردد ، وسألت فى صوت خافت :
— وأنت . . بهم متعطى ؟

— بالسجادة .

— ألم تشعر بالبرودة فى الأمس ؟

— كلا . . لقد كان فيها الكفاية .

وصمت برهة ، وكنت أحس أن المسألة تحتاج إلى شيء
من الشجاعة ، وما أظنها كانت تنقصنى ، فلقد همست فى صوت
حالم ، وأنا أرفع العطاء وأفسح له مكاناً بحوارى :

— تعال . . دعنا نتشارك العطاء . . دعما نتشارك فى كل

شيء : لنوم ، والصبح ، والحياة ، والموت .



۱۶ فرضیج بلا اذن



أخشي أن أنهم بالإباحية والزندقة ، إذ أنا نحدثت بشي .
عن ليلتنا الأولى . . ليلة تشاركنا في الفراش
والعطاء . . ومزجنا الروح بالروح ، والجسد بالجسد .

أما أعم أنها أشياء لا تكتب ، ولا يقال . فحن في عالمنا
هذا ، المملوء بالمعائب ، ندعي الاشتزاز من الحديث فيما
لا نشعر من فعله . . فضع المنكر لا يعتبر عيباً ، بقدر ما يعتبر
الحديث عنه عيباً . وليس أسهل على الإنسان من أن يبيع
لنفسه في الليل ما يشتر من ذكره أو سماعه في النهار .

عالم النفاق والمناقين ، كلهم يسمون أن أذكر ما حدث ،
ولو كنته لأقبلتم على قراءته بلهفة الجائع المحروم ، فإذا ما انتهت
مه مززتم الرؤوس أسفاً ، وقلتم الشفاه احتقاراً واشتماراً ،
وقلتم : هذه إباحية . . هذا كلام لا يكتب .

أحل معكم حق ، إنه لا يكسب ولا يقال ، إنه يؤتى فقط .
كلكم مافقون ، وأشدكم نفاقاً أكثركم تظاهراً بالحرص
على الفضيلة ، وتمسكاً بالأخلاق والتعاليد .
أجل التقاليد الزائفة المافهة .

إن مافسته في ليلتي يعتبر حياته وفسقاً .
أندرون ماذا كان يقصه حتى يضحى هو نفسه بتفاصيله

وحذافيره ، وعلى نفس الفراش ، وتحت نفس الغطاء ، عملاً
شريعياً لا غبار عليه ؟ .. شئ بسيط .. غاية في التفاهة .

أذكرون ذلك الشيخ المعمم الذى قرأ وكتب ، وأباح لى
يكسبته أن أرقد فى فراش إسان غريب ، وأرتمى فى أحضان
رجل لا تربط بين قلبنا صلة ولا يشدّ روحنا عهد أو ميثاق ؟
ذلك العبد النافه هو الذى كان ينقصنى ، لمكى يجعل منى
فى نظركم امرأة شريفة ، ويجعل مما تسمونه فسقاً عملاً مشروعاً
تأتونه حين ترغبون .

إلى الجحيم .. أنتم ، وعقودكم ، وتقاليديكم .
هذه سخافات لم أعد أقيم لها وزناً .

إرب زوجى الحقيقى هو ذلك الرجل الذى ربطتنى به
موثيق الحب .. إن ما فعلته منه مشروع فى عرف نفسى ..
أما ما فعلت ، فيما مضى .. فقد كان هو الفسق لا محالة ، الفسق
المشروع بالإكرام ، إكرام العقود الزوجية .

هذا من الساحة الطرية .. فإذا أتينا إلى الساحة الراقية
فأقدم لكم أى جنيت من المتعة فى ليلة واحدة ما لم أجته فى
شهور وسنوات .. إنها مسألة تفاهل وتجاوب قبل كل شئ ،
ليست مسألة أرتومانىكية ، ولا هى بحمد يلصق بحمد ، بل هى
قبل كل شئ ، تبادل مشاعر ، وانسياب عواطف ، هى جو

زاخر بالأحاسيس والانفعالات والحين والحب واللهفة
والشوق .. هي أنفـس تذيب وقلوب تتحلل ، وأرواح يختلط
وتتخرج ، وما عدا ذلك فهو عبث وهراء ، وعمر يذهب سدى .

فتحت عيني في الصباح ، لأشعر بذراعيه يمحيطان بجسدي
وذراعي يمحيطان بجسده ورأسي مدفون في صدره وكأننا
روحان في جسد .

ومضت فترة طويلة وأنا مخددة إلى كسل لذيد وشمول متع ،
لا أريد التحرك أو الاستيقاظ أو النهوض .

كنت أمتع بدفء الفراش وبدفء أنفاسه ، وكنت
أود ألا أستيقظ أبداً ، وأن أظل مطوية بين ذراعيه ،
ملتصقة بجسده ، حتى يطوينا القبر معاً .

ونحن أخيراً ، وكانت الساعة قد بلغت التاسعة ، دون
أن يبدو أثر لضوء الشمس بعد .. فقد كانت السماء مليدة
بغيوم نقيية معتمة .

وأعددت الفطور ، وكان أحمد قد اضطجع على أريكة
في الشرفة وبدأ على وجهه تقطيب وشروء .. واقتربت منه
أتحمس شعره برفق ، وأسأله التهوض للطعم .

وأمسك يدي ووصفها على شفتيه وأجاب في صوت حافت:

— لا أستطيع الآن .

وسألت في دهش :

— ما بك ؟

— أشعر بمغص بسيط ، وميل إلى القيء .

— أرايت ؟ . ألم أقل لك ؟ لقد أصابك برد من

سباحة الأمس ؟

وجلست بجواره ، وأسد رأسه على صدرى ، وأحطته

بذراعى وقلت له :

— لم لم تسمع نصيحتى ؟ أرايت أحداً سواك فى عرض

البحر ؟ فى هذا الجو القارس يستحم الناس فى البحر ؟

— لقد كان الجو دافئاً بالأمس ، والشمس مشرقة .

— ولو . . إن الماء لاشك كان كالتلج .

— لقد تعودت من قبل أن أستحم فى الشتاء بالماء .

البلاء . . لم تكن هذه هى المرة الأولى .

— ولكنها ستكون الأخيرة . . إنك لم تعد طفلاً . .

يجب أن تسمع نصيحتى . . ابن المايوه ؟ لا بد أن أحفيه .

وصحك صيحة متعصبة وقال :

— لا داعى لذلك ، أؤكد لك أنى لن أستحم بعد الآن

وأخذت أنحس يديه وجيئته ، وقلت له بشفقة :

- بم تحس ؟

- لا شيء . منض بسيط ، لا استدعى ملك كل هذا .

- قم . . يجب أن ترقد على الفراش ، وتدفأ جيداً .

- أؤكد لك أنه لا لزوم لكل هذا . ليس بي ما يستحق

الرقاد أو التدفئة ؟

- لا . يجب أن سترجح ، وماذا يصرك من الفراش ؟

سأذهب لآتي لك به ، فمجان شاي . . . وأجلس بجوارك

على الفراش .

وسحبته من يده ، وبدت على وجهه علامات التعب

وهو ينمض من مكانه ، وأحسست كأن المنض الذي به

يمزق أحشائي أما . . وقت له في لحظة حنون :

- أتنام كثيراً ؟

- لا . لا . ألم بسيط . يذهب ويحمر .

وأرقفته في الفراش ، ثم أحضرت له فمجاناً من الشاي .

وجلس بجواره وأخذت أرقبه وهو يحتسب الشاي ، ورايته

يتنسم وينظر إليّ بطرف عينيه ثم يقول :

- أرجو ألا تحكي عليّ بالرقاد طويلاً باحضرة الدكتور

- لا تسخر مني . إملك في حاجة إلى الراحة .

وتناولت منه الفجان بعد أن احتساء وقلت له بحذرة

وأنا أنهض : « إياك أن تترك الفراش » . !
 ولكنني عدت إليه بعد بضع دقائق فإذا بي أراه أمام
 المرأة ، يحلق ذقنه ، فصحت به غاضبة :
 — أحمد . . يجب أن تلزم الفراش . . أرجوك .
 وأجابني وهو ينظر إليّ في دهش :
 — عايدة ، لا تكوني مجنونة . . ليس بي أي شيء . .
 لقد ذهب المغص وأصبحت سليماً ، كالجنى ، ، ليس لدينا
 وقت لإضاعته في أوهام المرض والرقاد .
 ثم صمت برهة وأردف :
 — هيا . ارتدى ملابسك .
 — إلى أين ؟
 — سنذهب إلى حديقة الورد ، أرايتها ؟
 — لا .
 — وتعيين بعد ذلك أنك حجة للزهور ؟ سيضيع
 نصف عمرك إن لم تريها .
 — ولكنني لا أستطيع الخروج قبل الظهر .
 — لم ؟
 — لدى الطهي ، وتنظيف الدار .
 — ليس هذا وقته يا عايدة . . ستطهين الدار ، وتطهين

الطعام ، ماشنت التنظيف والظهي .. إن الايام المقبلة كثيرة .
دعينا تتمتع بالانطلاق والزهوة ، والبحر والحدائق .

— ومن يعد الطعام ؟

— لتناوله في الخارج . . في أي مطعم . . .

— أمرك . . .

ثم ترددت برهة وسألته :

— ولكن أوافق أنت من أنك سليم معاف ؟

— مائة في المائة . . كالحصان الشقي المستريح .

وبعد فترة قصيرة كما نطلق بالعربة ، وقد ارتديت بلوزة
من الصوف ، ووضعنا « إشارب » حول رأسي وأذني ، وكان
هو يرتدي قميصاً وبنطلوناً ولوفر طويل الأكمام مقفل الباقة .
وسارت بنا العربة على الكورنيش فترة من الوقت ،
والسما مازالت مليئة بالغيوم المتكاثفة والبحر يهدر ، وتعالى
أمواجه ويتطاير منه الزيت ولوشاش . ثم انحدرنا إلى شارع
« أبو قير » متجهين إلى حديقة الورد .

ووصلنا الحديقة ، وهبطنا الدرجات القاعة عند المدخل ،
وسرنا نجول في طرفاتها . . وكانت الحديقة تسكاد تكون
غالية . . إلا من يستأني يعمل بفأسه في الأحواض ومن آثر
يقص أحد الأسوار .

وكنّا نسير متلاحقين .. وقد تشابك منا الذراعان ،
وتلامست الأكف ، وأخذنا نتحدث ضاحكين .

ومست أقول ونحن نقف أمام أحواض الداليه التي
لم ترفع بعد :

— أتذكر يوم أثبت لك لتجربتي أنك ترقبت وقلت
إلى الحرم ؟

— أجل .. كنت أتوهم وقتذاك .. أني قد بلغت أقصى
الآمل ، وأني أمسيت إنساناً هاماً خطيراً .. ولم يخطر لي على
بال أن أباك سيزأ بي ، ويردني ملوماً محسوراً .

— لا تذكر هذا .. انزعه من ذاكرتك .. لم يكن
الذنب ذنب أبي وحده .. لقد كان ذنبنا كلياً .

— ذنبنا نحن ؟

— أجل . كان عليّ أن أكون تجماعة ، وأن أثبت أنه يستطيع
أن يأمرني بأن أرتدى ما يشاء ، وأن تأول من الطعام ما يريد ، ولكن
عندما تصل المسألة إلى الزواج .. فعلتُ أن أتزوج من أشاء ، أما
وحدى التي سأحتفل بعبء زواجي ، وأنا التي سأشقي به أو أمتع
وبعد سنوات سيرحل هو عن هذه الحياه ، ويبقى الزوج في
عنقي حتى يموت أحدهنا .. إن حياة المرأة في زواجها ، كلها
وحدها أن تفتق شريك حياتها . كان يجب أن أقول له هذا ،

وأنت يا بنى قد اخترتك وحدك دون سائر البشر ، فإن رفض
رفضت ، وإن ثارت .. وكان عليك أيضاً ألا تخضع
وتستلم .

— أنا لم أحضع إلا بعد أن خضعت أنت واستسلمت .
— حتى بعد هذا كان يجب عليك ألا تستلم . كان يجب عليك
ألا تكون عاقلاً رزياً كما كنت . فهذه الظروف تستلزم شيئاً من
الجنون .. هل تدري أنى فى كثير من الأحيان كنت أفكر فى
أمك قد تحضر إلى فى ظلمة الليل وتختطفنى فوق جوادك وتقربنى .
وانطلق يقهقه :

— لو علمت أن هذا يحول مخاطرك ، لأقدمت على
تنفيذه .. على أية حال لقد نفذته فى النهاية ، واختطفتك
فى جوف الليل ، وإن كنت قد استبدلت بالجواد عربة ..
— لا بأس .. لقد أصبحنا فى عصر ميكانيكى .

وشرد فى الزمن فى المستقبل المحمول العواقب ، المستور
وراء حجب من المتعة الطارئة والهناء السريع الأقول .
وقلت له فى لهجة أشبه بالدعاء :

— من كان يظن أن آمالنا ستحقق فى النهاية ، وأن القدر
سيعدل فجأة عرسونه ومكره السيء ، فبحطم كل تلك العقبات
ويجمعنا فى غمضة عين ؟ من كان يظن أن مصيرنا سيتحول مثل

هذا التحول السريع ؟ ترى هل يكون هذا آخر تحول ؟ . .

— من يدري ؟

— ليتحول كما يشاء . . لقد عزمت على ألا أستمع قط .

لن أتركك مهما حدث . . وأنت ؟

— معك حتى آخر العمر .

ويبدأ في « آخر العمر » كتابه شيء بعيد ، بعيد ، لا يدرك الدهن

مداه . . شيء وراء الآفاق . . كلما حاولنا بلوغه ازداد منا أيا .

« آخر العمر » . . ما أبعد وأشد غموضه ، ونحن في نشوة

الآمل ، وفيض السعادة . . لسائل كل منكم نفسه ، عن آخر

العمر : متى ؟ وأين ؟ . . وكيف ؟ . . بعيد . . بعيد جداً . .

أبعد من أن نفكر فيه .

ما من أحد منا إلا ويعيش أبداً . . إن حياتنا تبدو

بلا نهاية ، حتى ولو كنا من النهاية قاب قوسين أو أدنى .

وهكذا ملاً قوله « معك حتى آخر العمر » بالسكينة التي

وأقم بالطمأنينة وروحي

وفضيا اليوم بطوله ونحن نرتج ونترج . . كأننا — على

حد قوله — جياد سليقة في مرعى خصب . . لا تحمل عبثاً ،

ولا تضيق بهم . . لا نعرف من حياتنا أمس ولا غد .

وأجيراً عدنا إلى الدار والطمة قد سقطت ، وكانت

— قد يكون أصابه نَفَس .. أضيق مصباح الغاز الموجود
في المطبخ .

وعاد يتأوه ويئن ، وسأله في صرير مرهف :
— ما بك يا أحمد ؟

— مغص .. مغص شديد يمزق أحشائي .
وسرت أنحسس طريق في الطلبة الدامسة إلى المطبخ ،
وسمعت الريح تصفر والبحر يهدر ، وقطرات الماء للقفز
تساقط على زجاج نوافذ الشرفة ، ولجأة أصاء في الشرفة ضوء
صاطع سرعان ما اختفى ، ثم أعقبه دوى شديد .
وما أظنني قد خفت من قبل من المطر والبرق والرعد ..
ولكن في تلك الظروف القاسية بدت لي تلك الظواهر الطبيعية
كانها جزء من خطة هجومية مخفية يوشك أن يصوبها إلى القدر .
كان كل ما حولي سلسلة متصلة الحلقات من عوامل
الخوف والذعر .

أين أحمد ، والطلبة الدامسة ، وهدير الموج ، وطرقاب
المطر ، وعصف الريح ، ثم لمع البرق ودوى الرعد ، كل ذلك
تعاون على أن يحسد لي شبحاً مخفياً يوشك أن يقض عليّ .
وبدأ لي أن دهرأ مضى قبل أن أعثر على المصباح وأوقده
ثم سرت أحله في يدي ، وقد أخذ ضوؤه يرتجف ويهتز .

وعلى صوته الشاحب أبصرت أحمد وقد حاول أن يبدو هادئاً ،
وأن يكتم صيحات الألم التي توشك أن تفلت من صدره .
ووضعت المصباح على المنضدة .. وركعت على ركني أمام
القراش ووضعت خدي على حده وقلت في لهجة باكية :
— بماذا تحس يا أحمد ؟ ماذا يوجعك ؟

وأجاب وقد كما شففيه شبح ابتسا ،
— لا تقلبي نفسك .. تلك نوبة سرعان ما تزول ، لقد
أصبت هامة مدسمة ، ورسمة مندبضة أشهر ، وقد شك الطيب
في أنها لا بد أن تكون أعراض الرائدة الدودية . على أية حال
لا بد من إجراء العملية في أقرب فرصة ، عندما نعود إلى القاهرة .
وكان يتحدث بنبرات متقطعة وصوت متعب منهجج . .
وقلت متسائلة :

— إذا لم يكن ما حدث لك في الصباح تبعثه برد ؟
وهز رأسه بالإيجاب ، وقلت له مؤنية في لهجة جنونية :
— لم لم تقل لي
— وما العائدة ؟
— كنت أستطيع أن تذهب إلى أحد الأطباء .
— وماذا يمكن أن تفعل ؟ إنها تحتاج إلى عملية جراحية ،
وأولاً نستطيع الانتظار ، فهي ليست مسألة خطيرة ولا عاجلة .

— بم تحسن الآن ؟

— أحسن .

ولكنه لم يكن أحسن . . بل كانت حالته تزداد سوءا .
ولم يعد يستطيع الحديث ، وأغمض عييه ، وعاد إلى الأتني
الخافت المتقطع ، وبدأ لي كأن قشعريرة تسرى في جسده .

وعاد البرق يهوى ، والرعد يهوى ، واشتد صفير الريح من
حلال زجاج النوافذ ، ووجدت نفسي أرتجف وأنا أمسك
بيده . . وأخذت أمأديه بصوت ملؤه الخنا والتوسل :

— أحمد . . أجبني . . قل بم تحسن ؟ قل شيئا ؟

— آه . . .

ولم يزد عن ذلك ، ومرت بذهني ما عرفته من قبل من أن
نوبات الزائدة قد تنتهي أحيانا بانفجارها وتسم المصاب
إذا لم يسعف بعملية تستأصلها .

وأحسست أن رأسي يوشك أن ينفجر ، وأنت قلبي
نغوم بين جنبي ، وأن حلقى جف .

لقد قال أحمد إن النوبات انتهت في المرات السابقة على
خير . . ولكن ماذا يحدث لو انفجر في هذه المرة ؟ .

وقفزت من مكاني كأن أغني قد لدغني .

كيف أجلس هكذا عاجزة ؟ يجب أن أحضر طبيباً . .

يجب أن أعمل شيئاً لإسعافه .

واندفعت من الباب في جنون ، عارية القدمين ، لا يستر
جسدى سوى البيجامة .

لن يهزمنى القدر هذه المرة ، سأقاوم وأقاوم ، لن ينزعجه
من يدي أحد ، حتى ولا الموت .

وصدمتنى هبة من الريح عاصفة عاتية ، وأحسست بقطرات
المطر تنهمر على رأسى ووجهى وجسدى ، وكالت الظلمة دامية
إلا من لمحات البرق . نير الكون بريهة ثم تتركه أشد حالكه .
وفي لح البصر كنت قد هبطت الدرج واجتازت عمر
الحديقة ، وأخذت أعدو في الطريق .

إلى أين ؟ . وبمن أستعين ؟

لا أدري .. كست أندفع في العدو متطلعة إلى بارقة
ضياء ، أسأل فيها عن أقرب طبيب .. أو أقرب تليفون ..
أستدعى منه طبيباً ، أو أطلب الإسعاف .

وكلت قدماى ، وتقطعت أنفاسى ، وأنا لا أبصر سوى
ظلمات فوق ظلمات ، وكان الماء يتساقط من شعرى ومن
وجهى ، وثيابى قد التصقت بجسدى مهدأن بللها المطر الذى
ما زال ينهمر من السماء كالثيازيب

أما من سوية ثيابى من كان حي ؟

ماذا أفعل ؟ ! حاولت أن أصرح . . فصاحت صرخاتي
بين هدير الموح وعصف الريح .

أيمكن أن يكون ما أنا فيه حقيقة واقعة ؟ أحماً أسير
على شاطئ البحر في الطلبة الدامسة ، مبتلة الثياب ، عارية
للقديس ؟ أتلك السائرة كاخبايل هي أنا ؟ أم أن كل ما بي
لا يعدو حلياً مرعاً وكابوساً مخيفاً ؟

أحقاً أني تركت أحمد وحيداً بين الحياة والموت ؟ .
ولكن كيف تركته ؟ يالئ من حماة طائشة محبونة ؟
كيف فقدت أعصابي فاندفعت هكذا أعدو في الظلام
وأضرب على غير هدى ؟

أما كان يجدر بي أن أبقى بجواره فقد يكون في حاجة إلي ؟
أجل . يجب أن أكون بجانبه . إنني أستطيع أن أعثر في
هذا المكان المهجور ، وفي ذلك الجو العاصف ، والطلبة الخالكة
والساعة تربو على الثاية أو لثالثة بعد منتصف الليل على مخلوق
يعينني . . فيجب أن أعين نفسي ، أو على الأصح أستمع بالله ،
الذي لا أظنه غافلاً عني ، إذا ما الناس كلهم غفلوا !

وعدت ثانية إلى الدار ، أعدو وأنحبط ، مبهورة
الأنفاس ، مرهقة الأعصاب ، مكدودة الحسد ، ومعدت
للدرج وأنا أترنح كالذبيحة .

ودفعت الباب فإذا بالظلمة تسود المكان ، ولا أثر لضوء
المصباح الشاحب الذي تركت أشعته تتراقص ونهتز .
واندفعت إلى حجرة أحمد وأنا أكاد أتهاوى ، فإذا
بالريح تصفر فيها بعد أن دفعت إحدى التوافذ ففتحتها على
مصراعها ، وأخذت تمحط بها طرقات شديدة مفرقة .
وأغلقت البافنة ، ووقفت في الظلمة المثلث . وصحت
أنادى في صوت مبجوح : . أحمد . .
ولم يجنى أحد . ولم أسمع وسط الكون السائد أى
صوت . . لا آين ، ولا نأوه ، ولا حتى خفيف أنفاس .
وتذكرت الزائفة البودية ، والانفجار ، والتسمم .
وانطلقت منى صرخة مدوية . . صرخة لا تفرق عن
صرحات المجانين . وأخذت أنادى :
— أحمد .

وما من مجيب .
وركعت على ركبتى أتعس الفراش ، وأخذت يهاى
تنحسنان جسده ، واستقر وجهى على وجهه وأنق على أنفه
وأحسست بأنفاسه تنصاعد خافتة متقطعة .
حمدا لله . . إنا ما زلنا معا . . في حياة واحدة .
ونفضت أتعامل على نفسي . وألبس طريقي إلى المصباح

الغارى ، حتى أوقفه ، فقد كنت فى أشد الحاجة إلى بصيص
من الضوء يشلى من أعماق تلك الطلمات المخيفة .

وأوقدت المصباح ، وعاد ضوؤه يتراقص فى يدي ويهتز
واقتربت به من أحمد ، ونظرت إلى وجهه ، فإذا به شديد
الشحوب ، جامد الملامح ، كأنه تمثال من الشمع ، وقد
أحاطت بعينه هالة سوداء زرقاء .

ولحمت جفنيه برتخفان ، ثم أخذ يفتح عينيه بتأقل
وسمته يمس ؟
— عابدة .

وركعت بحواره وأجبت فى صوت حاولت جهدى أن
أجعله طبعياً :
— أحمد . . إني بحوارك .

— اقترني . . ضعى يدك على شفتي .
ووضعت يدي على شففيه فمرت منهما فى جدى
قشيرة جعلتني أنتفض انتفاضة الطير الذريح .
وعاد أحمد يمس :

— إني أحبك يا عابدة ، وأحب الحياة من أجلك . . كم
وددت ألا أتركك وحدك فى هذه الدنيا .
— لا تتكلم هكذا يا أحمد . . أنت مخبر يا حيبي .

— أنا بخير ما دمت بجوارى . دعيني الخمس شعرك .
 ومد يده يبط . ووضعها على رأسى ، ثم عاد يهمس :
 — إن شعرك مبتل . . وكذلك ثيابك . . له ؟
 لقد كنت في الخارج . . وكان امطر ينهمر بشدة .
 — إنك ستصابين بالبرد لو بقيت في هذه الثياب . أرجوك
 أن تستبدلي بها غيرها . كيف خرجت وحدك في الظلة ؟
 — كنت أحاول أن أستدعي طبيباً .
 — طبيب ؟ وما الفائدة ! لقد انتهى كل شيء . . إني أحس
 النجم يسرى في جسدى ، لقد ذهب الألم ، وذهب العمر معه ،
 وصمت أحد . . ولم ينس بعد ذلك عينت شفة .
 أجل . . لقد يلىخ آخر العمر

* * *

آه من القدر ومن سخريته المريرة !
 « آخر العمر » . . الذى كان يبدو لنا منذ بضع ساعات
 لا يزيد عن مجرد كلمات ليس أسهل على المرء من أن ينطق
 بها . . دون أن يحاول أن يفهم لها معنى . . فهي أبعد من أن
 يحاول الذهن مجرد تصورهما .
 « آخر العمر » . . البعيد . . الموهوم . . المزعوم . .
 قد بلغناه في غمضة عين !

بن يوم ويلي قد قطعنا الطريق الذي كان يبدو بلا نهاية
ووضحت لنا نهايته بشعة خفيفة .

هل تستطيعون أن تصوروا حالي وأما أركع بحوار
فراشه . . وقد كف عن المطلق ١٩

لكي تدركوا حالي جيداً . . يجب عليكم أن تعرفوا أولاً
أن لم أبصر ميتاً في حياتي من قبل . . وما عرفت قط كيف
يموت الإنسان . . بل كان الموت والموتى والمآتم والقبور ،
ومعدات الدفن ، والجنائزات ، كلها أشياء لا أكاد أعرف عنها
إلا ما يعرف الإنسان عن الأشباح والنفاريت . . كانت
أشياء بعيدة عن ذهني . . أتصورها بخيفة مهمة عامضة .

كنت إذا سمعت صراخاً من هذا اقشعر بدني . . وإذا
رأيت مرادق ميت أحسست بغشاوة على عيني

تصوروا بعد كل هذا . . أجد نفسي وحيدة في مهمة
الليل . . الربح تصفر من وراء النوافذ وتتن وتقول وترن ،
والضوء الشاحب يرتجف ويهتز ، وأنا جالسة . . أمام ميت ١١

والى ميت ١١

لا . . لا . . لا يمكن أن يكون ميتاً . . من المحال أن
يموت أحد . . إنه مازال أمامي كما هو ، بعينه ، وشفتيه ،
رقاته الطويلة الممدودة على الفراش .

سأقبله كما تعودت أن أقبله . . لا بد أن توقظه حرارة
شفتي ، ودفع أنفاسي .

وأحسست من شفتيه برودة خفيفة ، ولم أشعر بصيد
أنفاسه الذي كان يلفح وجهي .

وأخذت أنادي به في صوت متحشرج مبجوح :

- أحمد . . أحمد . ؟ أنا عايدة يا أحمد !

وخيل لي أن أسمع صدى صوتي يجب على . أحمد . .
أحمد ، كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ ولأي حكمة ؟ ولأي
سبب ؟

منذ لحظات كان ملء يدي ، وملء أحضاني ، والآن
أجده مسجى لأحراك به . . أنادي به فلا يجيب ، وأقبله فلا
يشعر . . وأبذل بدمعي وجهه فلا يسألني : لم أهلك ، وهو
الشيء ما روعه في الحياة شيء كبكائي ؟

هل يمكن حقاً أن يذهب هكذا . . بتل هذه البساطة ؟
أيذهب كان لم يكن ، ويصبح ميتاً كلابس الموتى الذين لم يبق
منهم إلا أديم الأرض ؟

ماذا يفعلون بالموتى ؟ ليست لدى أمل فكرة ، إلا أنهم
يوارونهم التراب .

أما أوارى أحمد التراب ؟

أما أتركه يدفن وحيداً في باطن الأرض ؟

لا كنت ، ولا كانت الأرض ، ولا كانت السماء !

لا .. لا .. ليفعل الناس بموتهم كيف شاءوا .. أما أنا

فصاقل بميتي الحبيب ، ما يحلو لي ، لن أتركهم يأخذونه مني ..

لن أتركهم يوارونه التراب ، فساواه بين ذراعي ، لا بين

الأحداث .. إني لن أتركه ، ولو أطبقت السماء على الأرض .

سأنام بجواره ، وآخذه بين أحضاني ، سواء عندي

أكان حياً أم ميتاً .. إن أحمد سيبتني أحمد ، لن أعترف بفعل

القدر ، ولن أدع أحداً يترعه من بين ذراعي .

ليشعر .. أو لا يشعر .. ماذا يضربني ما دام يرقد

بجوارى وأرقد بجواره ؟

لقد بدأت ألول خيوط الفجر تنسل من نسج الليل المعتم ،

وهو ما زال بين أحضاني جثة هامدة ، وجسداً لا حراك به .

ألا يحتمل أن تعود إليه الحياه ؟ . أليس الله بقادر على

كل شيء ؟ قادر على أن يحيي العظام وهي رميم ؟

هذه ليست عظاماً ولا رميمها .. بل لم يصبح بعد كذلك ..

فهى مارالت .. أحمد .. كما هو .. وكما كان دائماً .

ليعيد الله إليّ .. ليحييه لي .. ما فائدة قدرته تلك إن لم

يعد إليّ أحمد ؟

ولكن لم أخذه؟ ولم أعطه لي ، إذا كان بنوي أخذه
مثل هذه القسوة؟

لم يفعل معي كل هذا؟ أما مخلوقة الضعيفة .. التي
لا حول لها ولا قوة إلا به .

لم يسخر مني هذه السخرية؟
إني أكره الله كما كرهني .. إني أكفر به لما قسا عني ،
لقد كنت ملحدة بالحب ، فأصبح ملحدة بالله ، وبكل شيء .
إني لم أفعل ما أستحق عليه كل هذا .

ولم هذا التدبير المفجع المحكم؟
لو أني فقدته قبل الآن .. لكنت أستطيع أن أصبر ،
وأنجلك ، وأحتمل .. ولكن لأن .. وبعد أن أصبح لي
وحدى .. الآن بعد أن قرب الكأس من شفئي .. أما المهدومة
الصادية ، التي طال بها الظلم والحزن ، وبعد أن أحسبت
بقضرات الماء تبل شفئي ونندي على روحي ، تسرع مني الكأس
ونحطم على صخرة الفناء ، ويراق ما بها في وادي الموت .
لم يرب كل هذا؟ أترأى في حاجة إليه أكثر مني؟

هؤلاء البشر .. كلهم عبيدك الذين يملكون رحاب الأرض . ألم
تجد بينهم من يفتيك عن أحمد؟ المخلوق الوحيد الذي أملكه
في هذه الأرض ، بين الملايين من المخلوقات التي تملكها أنت؟

لا .. لا .. هذا كثير .. أعدّه إلى يارب .. ردّه إلى ..

ألا تسمع !

أنت موجود يارب .. أنت لاشك تسمع .. ردّه إلى ..
ردّه .. أو لا تردّه .. إني إن أتركه ..

سأحكم غلق لباب والنوافذ .. سأحصن داخل الدار ..
سأتحدى الأرض والسماء .. ليتقدم من يشاء لأخذه
وسأريه كيف تكون العاقبة ..

إني أحس برجفة شديدة .. عادت ثيابي مبتلة .. لقد
أمرني بتغييرها .. انتظر سأعود إليك حالا بعد تغييرها ..

سألف جسدي في البطانية .. فأنا أعرف أن منظرى
هكذا يعيبك .. لا حاجة بك إلى الرد على .. فبني أستطيع
أن أضرب ردّك .. إنما نستطيع الفهم دون أن يكون بك
حاجة إلى الكلام .. إني أعرف كل ما يسور بذهنك ..

° ° °

واريمت متهاككة على أحد المقاعد .. وأعمصت عيني ..
لشد ما أمانحة متعبة .. واستغرقت في إغفاءة .. مملوءة
بحليط مهوش من الأحلام .. تارة أجدني أرف إلى أحمد
وتارة أجدني غريقة معه ..

وصبت من إغفائي .. لأجد الجسد المسحي أمامي ..

ولاجد كل شيء كما هو .. كل شيء موحش خرب ..
ونظرت أمامي .. فإذا بي أرى امرأة غريبة .. امرأة
شاحبة الوجه .. حمراء العينين .. مشوشة الشعر .. أشبه
بالمجانين .. ترى من تكون ؟
إنها تلف جسدها في بطانية .. مثل يماما ،
من هي ؟
إنها تتحرك كما أنتحرك ، وتهز رأسها كما أهز رأسي .
واعجباً ! .. إنها أنا !
أجل تلك هي صورتي في المرأة .
ما أشد شبهي بالمجانين ، ولكن أجننت فعلاً ؟
لا .. لا .. إني مازلت بعقلي .
ولكن هل يدرك المجانين أنهم مجانين ، أم يحسون كما
أحس بأنهم في تمام العقل ؟
يجب أن أهدئ نفسي .. وأن أحاول التفكير .. تفكيراً
منتظماً كالعقلاء .
من أنا ؟ وماذا فعلت ؟ وماذا أنوي أن أفعل ؟
أنا امرأة .. هاربة من زوجها ، لا يعرف الناس عنها
إلا أنها امرأة غائبة فرت مع عشيقها .
ليكن .. إنه لا يعني ما يقول الناس ..

ماذا حدث لي ؟ لقد مات أحمد .. مات عشيق في نظر
الناس ، ومات ترأم نفسي في نظري .. مات المخلوق الوحيد
الذي يربطني بالحياة والذي يستحق من أجله أن أحيأ ..
لقد ضاعت مني القيمة التي حاولت اختلاسها من القدر ..
لقد استعادها مرة أخرى وإلى الأبد .

والآن يرفد أحمد أمانى ، مسجى على الفراش ، جثة
حامية ، لا حراك بها .. ماذا أنوى أن أفعل ؟
أحفظ به ؟ أبقيه هكذا أمانى إلى الأبد ؟
هذا هو الجحيم بعينه .. لن أستطيع أن أحفظ به ،
فلقد تسلل من بين يدي .. لقد ذهب .. وكل ما يمكنني
الاحتفاظ به ، هو جسد سيئحل ويتعفن ، ولا يضحى به
شيء من أحمد .. بل سيضحى .. حيلة شنة
إن لم أستطيع أن أبقيه ، ولكنى أستطيع شيئاً آخر ،
أكثر سهولة .. إنى أستطيع أن أذهب معه !
أحل .. تلك هي خير وسيلة ، لكي لا يفترق ..
لقد كان هو كل ما في الحيلة ، وما دام قد ذهب
فماذا يبقينى ؟

° ° °

وأحببت بالراحة والاستقرار ، وشعرت أنى مت سيدة

الموقف ، وأن حزنى قد تبدد . وعلام الحزن ، وأنا سالخى به
بعد لحظات ١٩

سندهب سويآ ، سأترك للناس ، جسداً آخر ، يمشونه
بالسنتهم الحداد .

ولكن لم ؟ إلى مظلومة . . أبعد كل مالقيت ، أذهب
هكذا مشبعة باللعات كأى مذنبه مجرمة ؟
أما يجب أن أدافع عن نفسى ؟
يجب أن أقول شيئاً .

إلى الآن جامدة الحس ، ماردة الأعصاب ، أستطيع
أن أجلس عنتهى السهولة ، وأكتب لكم هذا الشئ . .
أجل هذه هى كرامة أحمد الى كان يقرض فيها الشعر ،
والتي لم تكن تفارقه أبداً . . إنها غير ما أكتب فيه قصتنا .

* * *

إن الساعات تمر ، وأنا مكبة على المنضدة ، وأحمد واقف
ورافى على الفراش . . إلى أكتب وأكتب ، ولا أفعل شيئاً
غير الكتابة ، لا آكل ولا أمام .
ما حاجتى إلى الأكل واليوم ، وأنا سأعادر هذا الجسد
الفانى بعد قليل ؟

إن الشمس تشرق وتغرب ، والليل يكر فى إثر النهار ،

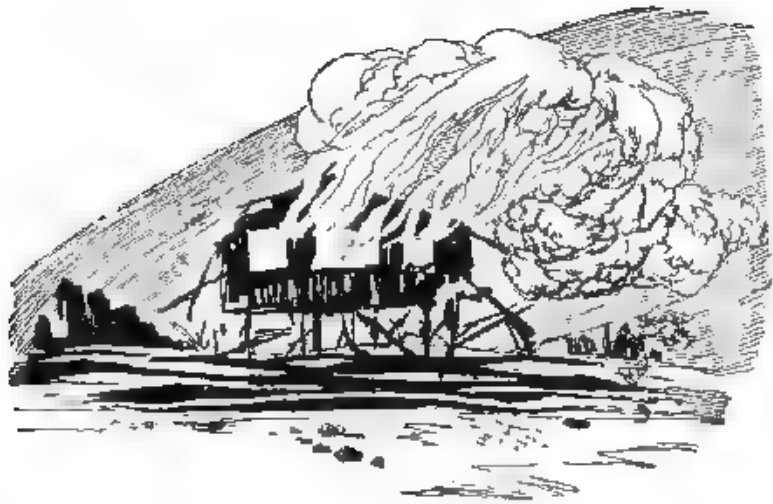
والتهل في إثر الليل ، وأما لا آبه لليل ولا نهار ، لتشرق الشمس
وتغرب كما نشاء ، إن أكرهها ، إنها جامدة قاسية ترف مآسى
البشر .. بلا حس ولا شعور ، ما احتجيت قط لحزن ولا آسى !
لقد انتهت من الكثرة .. انتهت من تسجيل دفاعي قبل
أن أرحل ، ولست أدري بعد هذا ، كيف سيكون حكمكم علي ؟
ليكن ما يكون ، فما أطنى سآه له كثير أبعد أن أذهب
عن دنياكم !

سأضع الكرسي في حنية جلدية ، وأهذف بها من الباذة ،
ثم أشعل النار في الدار .. سأحضر أحمد ، حتى تحترق سوياً ،
وحتى يفنى جسداً تامداً ، ويختلط منا السخا ويترشح الرماد ..
تلك هي خير نهاية .. لن نفرق لأجداً ولا روحاً ..
إني أعلم أن الله لا يرضى عن الإلحد ، ولكن حتى هذا
لا أدري له سبباً .

عجاً !! أبعد كل ما فعل بي ، يجبرني على القاء في دنياه ؟
ألا يهبل لي .. حتى حربة الخروج منها ؟

اللهم اغفر لي كفرى وإلحادى .. اللهم اغفر لي فرارى
من الدار القاسية إلى الدار الباقية .. اللهم اغفر لي صعودى
إليك بدون إذنك .

ولكن .. لا .. إنه كل شيء في الحياة لا يمحى
إلا بإذنك .. إنك غفور كريم وحيم .



الخاتمة



بهمة الليل . . وحركة الدياجير . . والكواكب
 في ترتفع في السماء شاحبة دابلة تغلب في الأرض
 مفلا أرمدها البكاء . . وكسف أضواءها الحزن . . والريح
 تعصف صرصرأ عانية . . تصرخ بالبكاء . . وتصدع بالعويل .
 والبحر يهدير ويصرخ . . ثائناً ملثماً . . يلطم بكف الأمواج
 ضد الصخور . . ويسكب من الرذاذ بحر الدموع .

وسط هذا المأتم القائم بين السماء والأرض وفي هذه
 الحسرة المشبعة من عناصر الطبيعة النائرة الفاضحة المعولة
 النائمة، السائمة الوجود، الطالبة للنقاء، المنردة بالخطوب
 والشدائد، بدأ الكوخ كالميث المسجي، أو كسراب الأمل
 الضائع في بلقع العيش، أو كالصدي المنبسط لمتعة غابرة .

لو تراه عشت أن الليالي

جعلت فيه مأتماً بعد عرس

في هذه الروبعة الصارخة البكية . . بدأ الكوخ في
 سكومه وصمته لا يكاد ينم عما به من حراب الخربة وشعل
 الجوى . . بل بدأ جرساً على وحشة الليل وعويل
 الرياح . . رابط الجئش على هول ما يحدث فوقه وتحت من
 أحداث ونوائب .

وجأه تعالت من جوانبه التي لفها الليل بحلكته السنة
من لب .. بدا كل منها في أدل الأمر ضئيلاً خافتاً ، يضطرب
في مهب الريح ويرتجف .. يكاد يحبو كلما عصفت به الهبة
تلو الهبة ، فهو يرق وينطق . ويحمد ثم يعلو .
ولكنه أخذ يشتد على الريح ، ويقوى على العواصف .
وتغلل في الظلام جريشاً متجدداً ساخراً بكل ما قوة
وما حوله ، مبدداً من ظلمات الليل ما لم تستطعه الجحوم
المرتجفة الكاسفة ، ومستمدداً من عصف الريح قوة ، ومن
هدير البحر أنغاماً يترافق عليها ، مضيفاً بصغيره لحناً جديداً
إلى ألحان السواح والعيول في مآتم الطبيعة . مشاركاً العناصر
الصاخبة في أنشودة اليأس والفناء .. مقنعاً نفسه زميلاً في
الخطب ، وشريكاً في البأساء .

وهكذا استمرت الريح العاصفة واللهب المتأحج والبحر
الناثر نشأ لحنها رثاء لما درس من ذاهب الحب وباتد الهوى ،
مشبعة المراحيل بأنفاس ملتهبة اللظى محتدمة السعير ، وقطرات
من الدموع ثقلة بالحزن مقعقة بالجوى ، وأحيراً خفت
اللهب ، ونمخت النيران . وطوت العنيدات أضواءه ..
وأسكتت صغيره .. وهبت الريح تندروا الحميم كما ذرت
من قبل ريح الحياة دارس الأمل وضائع الرجاء .

ولاح ضوء الفجر .. على سكون سائد ، وصمت عجم ..
كان الطبيعة قد انتهت من ماتمها وعادت من حنازتها متعبة
منهكة .. فلا موج ولا نو .. ولا رباح هوح .. بل الكل
مخلد إلى الهدوء ..

والكوخ قد عفت آثاره فلم يبق منه سوى قائم أسود
أشبه بشواهد القبور ، يشهد بأنه في هذه البقعة تعافت
روحان لم يستطع الموت أن يفرق بينهما ، وأنه فيها
ازدهرت شجرة حب وفيها صوحت وماتت ..

وعلى مقربة من أكوام الرماد والسخان والبقايا المحترقة
شوهدت حقيبة جلدية لم تتناول إليها ألسنة اللهب وقد
فشت ، وأخذ النسيم يبعث بأوراق كراسة بها .. هي كل
ما تبقى لبروى لنا قصة وراحة ..

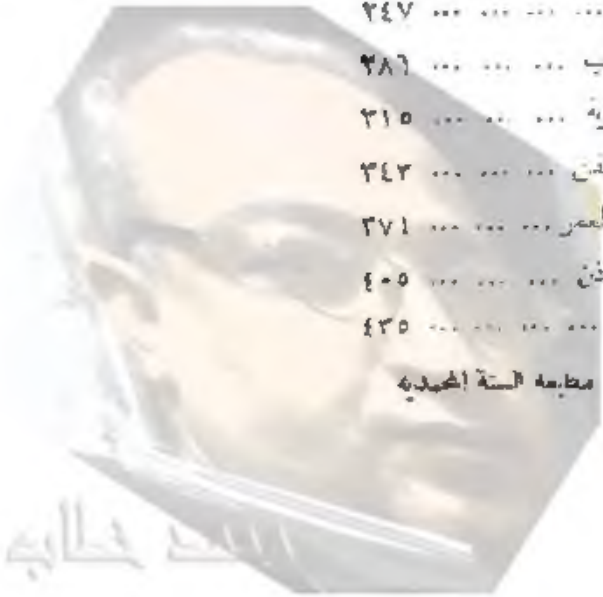
وتحت الأنقاض المحترقة .. استقر هيكلا متعاقبان
لم يبق منهما إلا ذوب رميم أوفقات هشيم ..

فهرس

صفحة

الإهداء	٥
مقدمة الطبعة الأولى	١١
..... الثانية	١٢
الفصل الأول	١٧
..... ملحة	١٧
..... الثاني	٢١
..... الثالث	٥٣
..... الرابع	٧١
..... الخامس	١٠١
..... السادس	١٢١
..... السابع	١٣٧
..... الثامن	١٦٩
..... التاسع	١٨٧
..... العاشر	٢١٣
..... الحادي عشر	٢٤٧
..... الثاني عشر	٢٨٦
..... الثالث عشر	٣١٥
..... الرابع عشر	٣٤٢
..... الخامس عشر	٣٧١
..... السادس عشر	٤٠٥
..... الخاتمة	٤٣٥

مطبعة الستة المحمدية



المكتبة المطبعة



الناشر
مكتبة النخاعي بالقاهرة

دار مصر للطباعة
١٩١٠٠ شارع النيل - القاهرة



الملك فيصل